بسم الله الرحمن الرحيم

الدعاء
وفوائده عند الاحتضار
حتى الجنة أو النار

قال رسول الله ﷺ :

«مَـا رَأَيْـتُ مِثْـلَ الجَنَّـةِ نَـامَ طَالِبُهَـا ،
وَمَـا رَأَيْـتُ مِثْـلَ النَّـارِ نَـامَ هَارِبُهَـا» .

[رواه الترمذي بإسناد حسن]

تأليف

الدكتور / موسى الخطيب

الأستاذ بجامعة الأزهر

الطبعة الأولى ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م
رقم الإيداع/ 2007 / 2762
الترقيم الدولي/ 977-6168-27-2

الناشر
دار الصفا والمروة للنشر والتوزيع
١٨٥ - شارع جمال عبد الناصر
نهاية نفق سيدي بشر
الإسكندرية ت: ٥٤٩٦١٠٧ - ف ٥٥٦٧١٣٤

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ أشرف النبيين وإمام المرسلين، وعلىٰ آله وصحبه والتابعين بإحسان إلىٰ يوم الدين، الذين أعدُّوا للأمر عُدّته، وأخذوا له أُهبته، فاسهروا ليلهم يصلُّون ويستغفرون، ويناجون اللَّه ويرتِّلون كتابه، وأظمأوا نهارهم تقربًا إلىٰ اللَّه بالصيام لأنهم علموا أن الأمر جد، ولا نجاة من النار، ولا فوز بالجنّة إلا بالتشمير عن ساعد الجد.

قال اللَّه تعالي: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً**﴾ [النساء: ١].

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً**﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

والعجب كل العجب من غَفْلة مَنْ لحظاته معدودة عليه، وكل نَفَس مِن أنفاسه لا قيمة له إذا ذهب لم يرجع إليه؛ فمطايا الليل والنهار تُسرع به ولا يتفكر إلىٰ أن يُحمل ويُسار به أعظم من سير البريد، ولا يدري إلىٰ أي الدارين يُنقل، فإذا نزل به الموت اشتد قلقه لخراب ذاته، وذهاب لذاته، لا لما سبق من جناياته، وسلف من تفريطه، حيث لم يقدّم لحياته، فإذا خطرت له خطرة عارضة لما خُلِق له دفعها باعتياده علىٰ العفو وقال: قد أنبأنا أنه الغفور الرحيم، وكأنه لم يُنبأ أن عذاب اللَّه هو العذاب الأليم.

فحق على الإنسان المكلف أن يذهب بنفسه مذهب الأخيار، ويسلك مسلك أولي النهى[١] والإبصار، ويتأهب لما أشرت أليه، ويهتم بما نبهت عليه، ولقد أحسن القائل:

إن لله عبادًا فطنا[٢] طَلَّقوا الدنيا وخافوا الفتنا

نظروا إليها فلما علموا أنها ليست لحي وطَنا

جعلوها لجة[٣] واتخذوا صالح الأعمال فيها سفنا

وبعد: فقد عرف الإنسان منذ وجوده قوةً تفوقه، وإرادةٌ عُليا تحيط به، فكان يلجأ إليها عند ضيقه وكَرْبه ـ سواء في ذلك الموحِّد والمشرك ـ فالجميع ينادي عند شدته من يراه للمناجاة أهلاً، وللإنقاذ والنصرة عونًا، حتىٰ وفدت رسل اللَّه وتعاقبت علىٰ البشرية تحمل إليها شرائع اللَّه التي أمرت بكل ما يجلب للإنسانية الخير في عاجلها وآجلها، كما نهت عن كل ما يسبب لها سوء العاقبة في دنياها وأُخراها، وكان المصطفىٰ ﷺ خاتم الأنبياء، وكتابه القرآن آخر كتب السماء، حمل للخليقة من الخير ما فاق كل سعادة ينشدها البشر، وجعله اللَّه خالدًا لتستضيء به الإنسانية في أمورها كلها، فكان من أوامره الإلتجاء إلىٰ اللَّه في السَّراء والضراء، والمنشط والمكره، فقال اللَّه تعالى: ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ﴾ [غافر: ٦٠].

فاستجاب إلىٰ هذا النداء من استجاب، فدعا وتضرع وجنىٰ ثمار مناجاته، ونأىٰ وأعرض عن هذا النداء من نأىٰ، وابتعد مؤثرًا الغواية والضلال علىٰ الهداية والرشاد.

عَرَف المؤمنون من الخلق فضيلة الدعاء، فأيقنوا به نعمةً مُسْداة من رب العباد، فملأوا به نفوسهم، وحقنوا به نياط قلوبهم، ورطبوا به ألسنتهم، فكانوا في مناجاة اللَّه صباح مساء، في غدوهم ورواحهم، وظعنهم وإقامتهم، طلبوا من اللَّه كل خير،

---

(١) أولى النهىٰ: أصحاب العقول.

(١) فُطُنا: مَن له عقل ونظر في العواقب.

(١) لُجَّة البحر: بمثابة البحر.

ووقفوا علىٰ حِكْمة التشريع من الدعاء، فمارسوا الأسباب التي أوصلتهم إلىٰ الأهداف، فتحققت بذلك الغايات حتىٰ وصلوا إلىٰ المبتغىٰ والأمل المنشود، فكانوا بذلك من الأبرار الأطهار المقربين أهل الجنة.

وسَلك الأشرار من الخلق مسلكًا عجيبًا، ومنهجًا معيبًا: حيث بدلوا نِعمَ اللَّه نقمًا، وصيّروا الخير شرًا، وأسباب النجاة سهامًا للدمار والهلاك، فاستوجب ذلك غضب اللَّه عليهم، فكان مأواهم النار وبئس القرار، وكان قائدهم ومعلمهم علىٰ طريق الغواية، وصاحب لوائهم في النار: إبليس اللعين وجنوده، اتبعوه وصدهم عن السبيل فكانوا من الهالكين.

وفي هذا الكتاب نتعرض لألوان مختلفة من الدعاء في القرآن الكريم، يلجأ إليها الإنسان عند الاحتضار والموت، وعند البعث، والحشر والحساب، وعند تسليم الصحف وبعد الحساب، وهذا في الباب الأول الذي يشتمل علىٰ آيات الدعاء وفوائده في يوم القيامة ومشتملاته، ونتائج وفوائد آيات الدعاء التي وردت في هذا اليوم العظيم ومشتملاته.

أما الباب الثاني ففيه أدعية أهل النار، الصادرة منهم وهم فيها، واستغاثات أهل النار، والافتداء والرغبة في الخروج من النار، ثم طلب الكفار الشفاعة والموت في جهنم، وبيان شهادة حواسهم عليهم، وما يمكن استنتاجه من أدعية أهل النار.. نعوذ باللَّه من النار وأهلها، ومن عذاب الجبار يوم القيامة.

ويأتي الباب الثالث فيصف أدعية أهل الجنة في القرآن الكريم، وفيه ذكر الجنة وما لله سبحانه وتعالىٰ علىٰ عباده في خلقها من الفضل والمِنّة، ومقولات أهل الجنة في القرآن الكريم، وآيات المشيئة والاشتهاء والطلب والدعاء، ثم دعاء أهل الجنة في القرآن الكريم، وفيه أيضًا: نعيم الجنة فوق ما يخطر بالبال، أو يدور في الخيال، وإن موضع سوطٍ في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها، وشعر ابن القيم ـ رحمه اللَّه ـ في وصف الجنة ونعيمها، والنتائج والفوائد في أدعية أهل الجنة.

أخي المسلم: والله ما العيش إلا في الجنة حيث يقع اليقين بالرضا والمعاشرة لمن لا يخون ولا يؤذي.. والله إني لأتخيل دخول الجنة ودوام الإقامة فيها من غير مرض ولا آفة تطرأ، بل صحة دائمة، وأغراض متصلة لا يعتورها منغِّص، في نعيم متجدد في كل لحظة إلىٰ زيادة لا تتناهىٰ فأكاد أُذهل.

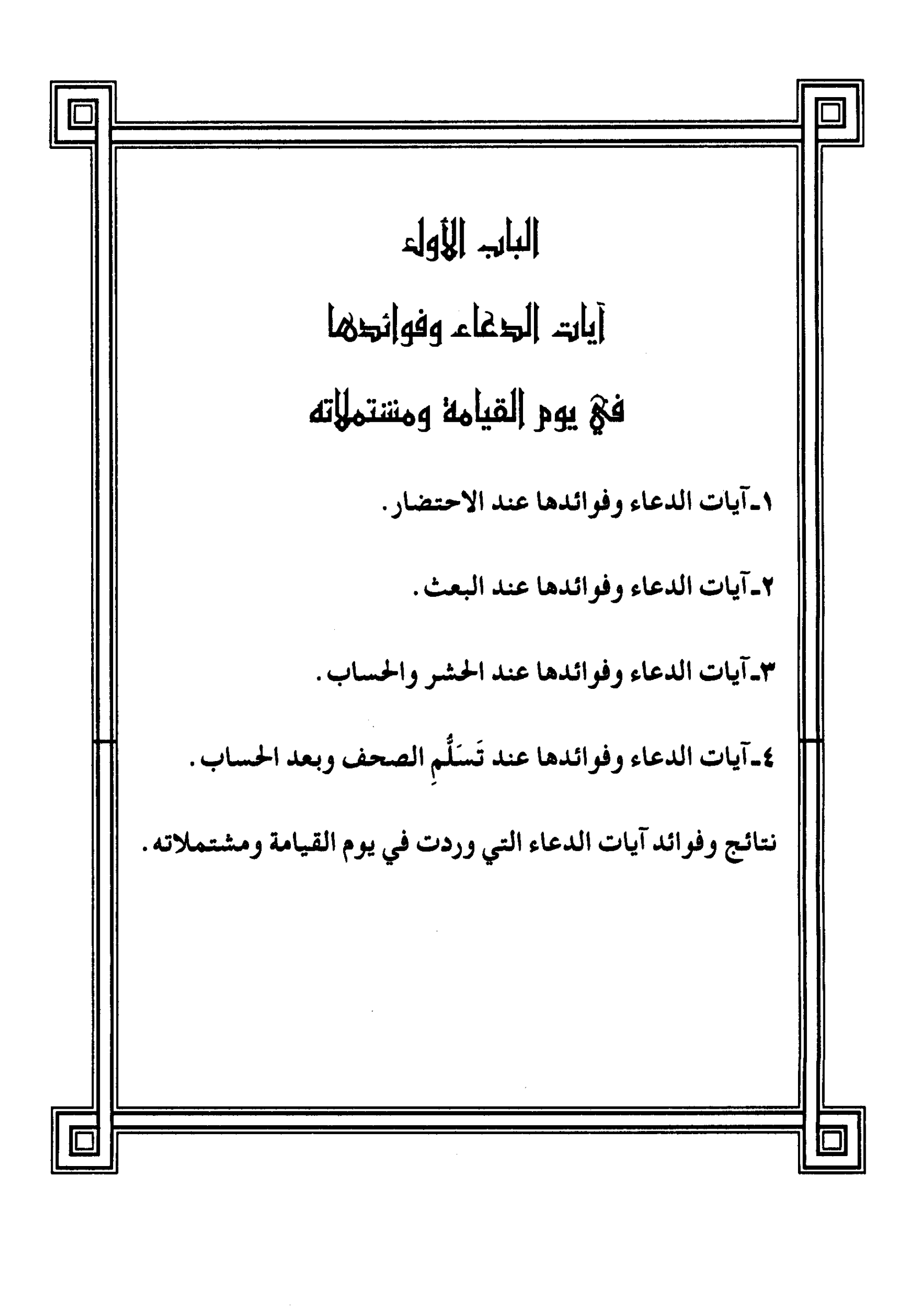
ومعلوم أن منازل الجنة إنما تكون علىٰ قدر الاجتهاد ها هنا.. في الدنيا، فواعجبًا من مضيّع لحظة فيها.. فتسبيحة واحدة تغرس لك شجرة أكلها دائم وظلها.

فيا أيها الخائف من فوت ذلك شجع قلبك بالأمل والرجاء، فمنذ خروج الروح تتكشف هذه المنازل لأصحابها لتستقر تلك الأرواح في حواصل طير تعلّق في أشجار الجنة، فالبدار البدار قبل أن تصفر شمس العمر، وقبل أن يحين الغروب، فمن تخيّل دوام اللذة في الجنة هان عليه في الدنيا كل بلاء وشدة.

أسأل الله عز وجل أن يحقق لنا هذه الغاية، وأن ينفع به، وأن يجعله ذخرًا لنا في صحيفة أعمالنا، وصالح أفعالنا وأقوالنا، إنه سميعٌ مُجيب.

المؤلف

الدكتور / موسىٰ الخطيب



الباب الأول

آيات الدعاء وفوائدها

في يوم القيامة ومشتملاته

١ـآيات الدعاء وفوائدها عند الاحتضار.

٢ـآيات الدعاء وفوائدها عند البعث.

٣ـآيات الدعاء وفوائدها عند الحشر والحساب.

٤ـآيات الدعاء وفوائدها عند تَسَلُّمِ الصحف وبعد الحساب.

نتائج وفوائد آيات الدعاء التي وردت في يوم القيامة ومشتملاته.

الفصل الأول: آيات الدعاء وفوائدها عند الاحتضار
الأدعية الصادرة من الخلق عند الاحتضار

وردت هذه الأدعية في خمس سور من القرآن الكريم هي سور: المنافقون وغافر والمؤمنون ويونس والأعراف.

الآية الأولى

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ [المنافقون: ٩ ـ ١١].

نظرات في التفسير:

ذهب أكثر المفسرين والعلماء أن هذه الآيات نزلت في المؤمنين؛ لأن ظاهر الخطاب يدل علىٰ ذلك، ولأن المقام يقتضيه.

وممن ذهب إلىٰ هذا القول صراحة الضحاك[1]؛ فقد قال: لا ينزل بأحد لم يحج، ولم يؤد الزكاة الموت إلا سأل الرجعة، وقرأ هذه الآية.

ومن أهم الأدلة المدعمة لهذا الرأي تفسير معنىٰ «الذكر»، و«الرزق» الذي أُمروا

(١) الضحاك بن مزاحم: عالم كوفي، أخذ التفسير عن سعيد بن جبير، ولم يلحق ابن عباس، وكان فقيهًا ورعًا، ويُعَلِّمُ ولا يأخذ شيئًا، وقد أقام بخراسان، وسمعوا منه، ومات سنة خمس ومائة، انظر مصادر ترجمته: «تهذيب الكمال» ج١٣ ـ ص٢٩١، و«سير أعلام النبلاء» ج٤ ـ ص٥٩٨، و«الطبقات الكبير» ج٨ ـ ص٤١٧ ـ ٤١٩.

بالإتفاق فيه، فقد وردت آراء كثيرة للعلماء في المعنىٰ المراد منها، وإليك أهمها:

* الذكر: قال الضحاك: هو الصلوات الخمس؛ وقيل هو الجهاد، وقيل: القرآن؛ وقيل: هو فرائض اللَّه تعالىٰ: كالصلاة، والزكاة، والحج، وقيل: هو طاعة اللَّه.

أما الرزق الذي أُمروا بالإنفاق منه: فقال ابن عباس(١): المراد به زكاة المال، وقيل: هو الإنفاق الواجب.

من خلال هذه المعاني للذكر والرزق يتضح أن المقصود بالخطاب هو المؤمن؛ إذ الكافر لا يُخاطب بفروع الشريعة، علىٰ الرأي الأرجح عند علماء الأصول.

كما أن تصدير الآيات بلفظ الإيمان يرجِّح هذا المعنىٰ ويدعمه.

---

(١) ابن عباس: هو البحر الحبر، ترجمان القرآن، فقيه الأمة، الصحابي الجليل، أبو العباس عبد اللَّه بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف الهاشمي المكي ثم المدني ثم الطائفي، ابن عم النبي ﷺ، وقد كني بأبيه العباس، وهو أكبر ولده، ولد قبل الهجرة بثلاث سنين، وكان جميلا نبيلا أبيض جسيمًا، صبيح الوجه فصيحًا، إذا مر في الطريق قال النساء: أمر المسك أم ابن عباس؟! وقال مسروق: كنت إذا رأيت ابن عباس قلت: أجمل الناس، وإذا نطق قلت: أفصح الناس، وإذا حدَّث قلت: أعلم الناس، وكان نبيل المجلس، مشحونًا بالطلبة في أنواع العلوم، ولا عجب فقد دعا له الرسول ﷺ فقال: «**اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ**»، وفي رواية أنه ضمه وقال: «**اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الحِكْمَةَ**»، وفي رواية أنه مسح ناصيته وقال: «**اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الحِكْمَةَ، وَتَأْوِيلَ الكِتَابِ**»، وكان مهيبًا، قال عبيد اللَّه بن عبد اللَّه بن عتبة: كان ابن عباس قد فات الناس بخصال: بعلم ما سبقه، وفقه ما احتيج إليه من رأيه، وحلم ونسب وتأويل، وما رأيت أحدًا كان أعلم بمن سبقه من حديث رسول اللَّه ﷺ، ولا بقضاء أبي بكر وعمر وعثمان منه، ولا أفقه في رأي منه، ولا أعلم بشعر ولا عربية، ولا بتفسير القرآن، ولا بحساب ولا بفريضة منه، ولا أثقب رأيًا فيما احتيج إليه منه، ولقد كان يجلس يومًا للفقه، ويومًا للتأويل، ويومًا للمغازي، ويومًا للشعر، ويومًا لأيام العرب اهـ، وكان عمر يستشير ابن عباس ويقول: غواص. وكان يقول له: لقد طرأت علينا عضل أقضية، أنت لها ولأمثالها. وقال سعد: ما رأيت أحضر فهمًا، ولا ألب لبًّا، ولا أكثر علمًا، ولا أوسع حلمًا من ابن عباس، ولقد رأيت عمر يدعوه للمعضلات، ومناقبه جمة، توفي رضي اللَّه عنه بالطائف سنة ثمان وستين، وهو ابن سبعين سنة، وصلىٰ عليه محمد بن الحنفية رضي اللَّه عنهما.

أما ما ذهب إليه قتادة من أن المخاطبين هم المنافقون؛ فلعل الذي حمله علىٰ هذا هو تصدير السورة التي اندرجت فيها هذه الآيات بقول اللَّه تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ [المنافقون: ١]. حتىٰ سميت بهم، ولعل الذي دعم هذا المعنىٰ في نفس «قتادة» أن معظم آيات هذه السورة نزلت في المنافقين؛ إذ إن هذه السورة تشتمل علىٰ إحدىٰ عشرة آية منها ثماني آيات في شأن المنافقين، ولكن كل هذا لا ينهض مع الأدلة سالفة الذكر، ووضوح الرؤية في هذه الآيات.

الآية الأولى: بدأت بنهي المؤمنين عن أن يتشبهوا بالمنافقين في تلهيهم بأموالهم وأولادهم عن كل ما يؤدي إلىٰ طريق اللَّه، وخاصة قبض اليد عن الإنفاق، ثم عرجت هذه الآية إلىٰ الإخبار عن حال الذين لم يجتنبوا ما نهوا عنه، بل باشروه وزاولوه بأنهم خسروا الدنيا والآخرة.

ثم تحدثت **الآية الثانية**: عن الأمر بالإنفاق من المال الذي هو في حقيقة أمره رزق ساقه اللَّه تعالىٰ إلىٰ عباده، كما أنها حثت علىٰ الإنفاق في حال الحياة والميسرة خشية أن يصبح الإنسان قاب قوسين أو أدنىٰ من الموت؛ فتتكشف له الحقائق، ويطلب الإمهال وتأخير الأجل ليتسنىٰ له استدراك ما فات، ولقد روي الترمذي عن الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس قال: من كان له مال يبلِّغه حج بيت ربه، أو تجب عليه فيه زكاة فلم يفعل إلا سأل اللَّه الرجعة عند الموت.

ورواه الحسن بن أبي الحسن في كتاب منهاج الدين عن ابن عباس مرفوعًا؛ فهذه الآية الثانية اشتملت علىٰ الأمر والخبر المتضمن للدعاء والتحسُّر؛ إذ هو إخبار من اللَّه تعالىٰ عن الحال التي يكون عليها ذلك الإنسان المنافق أوالمؤمن العاصي من الحسرة والألم، كما هو إخبار أيضًا بما سيتفوه به ذلك المعاند؛ لذلك قال صاحب الكشاف عند قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ﴾ أي من قبل أن يعاين مما ييأس معه من الإمهال، ويضيق به الخناق، ويتعذر عليه الإنفاق، ويفوت وقت القبول؛ فيتحسر علىٰ المنع، ويعض أنامله علىٰ فقد ما كان متمكنًا منه.

أمـــا **الآية الثـالثـة**: فقد أفادت الجواب عمن استغاث وطلب النجدة بعد فوات الأوان؛ فقد أعرض اللَّه تعالىٰ عن قبول استغاثته؛ وعن تحقيق رغبته؛ لأن الفرصة قد ضيَّعها، وأوان التوبة فوته؛ فأصبح حاله إلىٰ ما صار إليه الآن لازمًا.

فقد تحاشت هذه الآية الإجابة الصريحة التي كانت تقتضي أن يقول له لن أؤخرك إلىٰ أجل قريب كما طلبت، بل سلكت به طريق الإخبار تهكمًا به واستهزاءً، وتصويرًا لما يطلبه في صورة المستحيل حصوله ووقوعه؛ حيث قال تعالى: ﴿**وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾؛ فقد صدَّر اللَّه الآية بما يفيد النفي الأبدي، كما طوت الآية الإجابة طيًّا سخرية بذلك المستغيث، وتهكمًا بذلك الراجي، وإرساء لقاعدة مهمة: ألا وهي تحديد الآجال؛ حيث لا يستأخر من أزف موته، وحان أجله، وانتهت أيامه، كما لا يستقدم من لم يحن أجله، ولم تنته أيامه، ولم يدن الموت منه.

غير أن الآية اقتصرت علىٰ نفي التأخير، ولم تتعرض صراحة للتقدم نفيًا أو إثباتًا؛ لأن الداعي المستغيث طلب التأخير، ولم يذكر عن التقديم شيئًا فناسب قول القرآن قوله، كما أن نفي التأخير جاء علىٰ وجه التأكيد لأن معناه منافاة المنفي.

فقد طلب التأجيل فأفاد القرآن أنه لا تأخير، كما أن النفس البشرية ـ وبخاصة من وسَّع عليها في الرزق، وطول العمر ـ لا تود ولا ترغب في أن ينقص من عمرها ساعة، بل لحظة واحدة.

ويمكن توزيع هذه الآيات الثلاث إلىٰ معان متفاوتة مختلفة مرتبطة بعضها ببعض:

إذ **الآية الأولىٰ** تفيد: التنبيه علىٰ مزاولة الذكر قبل الموت، **والثانية** تفيد التنبيه علىٰ مزاولة الشكر قبل الموت **والثالثة** تفيد التنبيه علىٰ أن الكفار لو رُدُّوا لعادوا لما نُهُوا عنه.

وعليه فتكون الآيات خطابًا للمؤمنين حقًّا علىٰ الأرجح، وللمنافقين علىٰ المرجوح، ولا مجال فيها للكافر؛ فاللَّه يخاطب المؤمنين بلفظ الإيمان ليوفقهم إلىٰ معالم الطريق: طريق الحق والصواب، ويحيطهم علمًا بأن المنافقين ما سلكوا ما سلكوا من طريق، وما قالوا ما قالوا من قول إلا بسبب أن أموالهم وأولادهم ألهتهم عن ذكر اللَّه

تعالىٰ، وتذكر حقوقه وواجباته؛ فآمنوا ظاهرًا وكفروا باطنًا؛ فاللَّه تعالىٰ ينهىٰ المؤمنين أن يكونوا مؤمنين بشهادة الميلاد فقط؛ فيصبحوا كالمنافقين شبهًا، كما وضع اللَّه تعالىٰ أيدي المؤمنين علىٰ الأسباب التي تحولهم إلىٰ هذه الصور: وتلك هي التلهِّي بالأموال والأولاد عن كل ما يوصل إلىٰ طريق اللَّه ويوقفهم علىٰ حقائق الأمور ومصائرهم.

قال ابن كثير: كلُّ مفرط يندم عند الاحتضار، ويسأل طول المدة ليستدرك ما فات، ولكن هيهات[1]؛ فلن يُمهل اللَّه أحدًا - أيا كان - إذا انتهىٰ أجله، ولن يزيد في عمره، وفي هذا تحريض للعبد علىٰ المبادرة بأعمال الطاعات، حذرًا أن يجيء الأجل وقد فرّط، ولم يستعد للقاء ربه، وهو سبحانه مطلّع علىٰ أعمال البشر، وعالم بأعمالهم من خير وشر، ومجاز عليها الجزاء الأوفىٰ في موعد الحساب، نسأل اللَّه العفو والعافية في الدنيا والآخرة.

تنبيه: النفاق لم يمكن بمكة وإنما كان بها الكفر، ولم يظهر النفاق إلا بالمدينة حين عزّ الإسلام وكثر أنصاره، وقد كان المنافقون يُظهرون الإسلام لصون دمائهم وأموالهم، كما قال الشاعر:

وما انتسبوا إلىٰ الإسلام إلا ... لصون دمائهم أن لا تُسال

فائدة: العِزَّة غير الكبر، ولا يحل للمسلم أن يذل نفسه، فالعزة هي معرفة الإنسان بحقيقة نفسه، والكِبْر جهل الإنسان بنفسه قيل للحسن بن علي رضي اللَّه عنهما: إن الناس يزعمون أن فيك كِبْرًا وتيهًا، فقال: ليس بتيه، ولكنه عزّة المسلم، ثم تلا قول الله تعالى: ﴿ **وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [المنافقون: ٨].

لطيفة: روي عن ابن عباس رضي اللَّه عنهما قال: «من كان له مال يبلغه حج بيت ربه، أو تجب عليه فيه زكاة فلم يفعل سأل الرَّجعة عند الموت، فقال رجل: يا ابن عباس اتق اللَّه، فإنما يسأل الرّجعة الكفار!!

فقال: سأتلوا عليكم بذلك قرآنًا، ثم تلا قول اللَّه تعالى: ﴿ **وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ** ﴾ الآية.

(١) «تفسير ابن كثير» ٣/ ٥٠٦.

الآية الثانية

قال اللَّه تعالى: ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر: ٨٥].

نظرات في التفسير:

هذه الآية الكريمة من أوضح الآيات الدالة علىٰ عدم قبول الإيمان الاضطراري في أية حالة من حالات اليأس الإنساني الذي لا يرجىٰ معه نجاة، كما أنها وضعت الحد الفاصل بين جدية القول والهزل فيه، وأوقفت المتلاعبين بالألفاظ المستهزئين بالأديان، المنافقين في العقائد، المستغلين للظروف، المقتنصين للفوضى؛ أوقفت هؤلاء وهؤلاء جميعًا علىٰ سوء عاقبة ما يفعلون، وما إليه يصيرون.

فقد وردت هذه الآية إجابة لمن أعلن كلمة التوحيد عند رؤيته للعذاب المحيط به من كل مكان، وكان قبله يناصب ربه الحرب والعداء.

هؤلاء هم القوم الذين نبه اللَّه العرب المشركين إلىٰ وعورة ما سلكوا من طريق، وإلىٰ ما آلوا إليه من مصير، وذلك في الآيات السابقة علىٰ هذه الآيات في قول اللَّه تعالىٰ: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝٨٢ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝٨٣ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ [غافر: ٨٢-٨٤].

فهذه الآيات تقول لمشركي مكة ومن لفَّ لفهم: أكسلتم فلم تسيروا في جنبات الأرض المحيطة بكم لتقفوا علىٰ أخبار الأمم السابقة عليكم؛ حيث كانوا أكثر منكم عددًا ،وأعظم قوة، وأوسع منكم إدراكًا لمتع الحياة؛ فقد شيدوا الأهرامات، ونحتوا من الجبال بيوتًا، وكانوا لتربة الأرض معِّبدين، وعلىٰ ساحتها مشيدين، ولطرقها مذللين، غير أنهم أنكروا الخالق، وجحدوا الرسالات، وكذبوا الرسل وحاربوهم: كقوم نوح وموسىٰ وهود وصالح فأخذهم اللَّه بالماء والريح والصيحة، حتىٰ صاروا مثلاً لمن حاد اللَّه ورسوله.

وعلىٰ هذا سارت سُنة اللَّه تعالىٰ في خلقه يمهلهم رجاء التوبة أو الإنابة، أو يستدرجهم حتىٰ يستنفدوا مُتَع الحياة؛ فيلقوا اللَّه ولا خردلة لهم من عمل صالح.

تحكي لنا سورة الحاقة طرفًا من ذلك فتقول: ﴿الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ (٨) وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ [الحاقة: ١ - ١٠]، هؤلاء لما حل بهم ما حل من عذاب دنيوي، وشاهدوه يلاحقهم ويتعقبهم، اضطربوا في سلوكهم وتفكيرهم حتىٰ أخطأوا ما تواضع عليه الناس، ويحكي القرآن الكريم تعجلهم واضطرابهم عند نزول العذاب بهم حتىٰ حملهم علىٰ ارتكاب ما لم يألفه الخلق: فأعلنوا التحلية قبل التخلية فقالوا: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ [غافر: ٨٤]؛ ففي هذه الآيات من الزجر والتهديد لكفار مكة - ومن هم علىٰ شاكلتهم - ما فيه؛ حيث لم يتعظوا بمن سبقهم من الأمم، كما أنهم لم يفهموا حقيقة الأسباب التي أدت بهم إلىٰ الدمار والهلاك، ولم تغن عنهم آلهتهم التي عبدوها، ولا أموالهم ولا أولادهم شيئًا.

ومن خلال هذه الآيات الكريمة اثبت العلماء فائدة جليلة تجدر الإشارة إليها: فقد قالوا إن الوقت الذي لا ينفع فيه الإيمان صاحبه هو الوقت الذي يعاين فيه ملائكة العذاب؛ لأنه في ذلك الوقت يكون قد فقد القدرة والاختيار، والسبب في ذلك دفع ما حل بالمرء من عذاب؛ لهذا عبرت الآية تعبيرًا دقيقًا فقالت: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾.

و﴿يَكُ﴾ في الآية زائدة كزيادتها في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ [مريم: ٣٥] لإفادة التأكيد أي لم يصح أن ينفعهم هذا الإيمان.

وقد دعم اللَّه تعالىٰ هذه القضية بقضية أخرىٰ مفادها:

أن عدم قبول توبة هذا الصنف من الناس إنما جرىٰ علىٰ سُنَّة اللَّه المطردة بين الأمم؛ وهي عدم قبول الإيمان حال اليأس والقنوط لسلب دلالة الصدق فيه، ولذلك ذيلت هذه الآية بما يفيد ذلك قال اللَّه تعالى: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾: أي خسر هؤلاء الكافرون كل شيء حتىٰ ما أعلنوه من توبة فإلىٰ بوار؛ لأنها صدرت منهم عند نزول العذاب، ورؤيتهم له. اهـ.

الآية الثالثة

قال اللَّه تعالي: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

نظرات في التفسير:

قال صاحب الكشاف: كلمة ﴿حَتَّىٰ﴾ التي وردت في الآية متعلقة بـ﴿يَصِفُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

أي لا يزالون علىٰ سوء الذكر إلىٰ هذا الوقت، أي وقت مجيء الموت إليهم، والآيات فواصل بينهما علىٰ وجه الاعتراض، والتأكيد للإغضاء عنهم، مستعيثا باللَّه - أي النبي ﷺ - علىٰ الشيطان أن يستزله عن الحِلْم قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧، ٩٨]

والتكرار هنا للمبالغة والاعتناء بشأن الاستعاذة، ومن ثم يحرص المؤمن عليها في كل وقت وحين.

ولكن مَن المراد في قوله تعالى: ﴿أَحَدَهُمُ﴾ للعلماء آراء في ذلك: فقد ذهب ابن عباس رضي اللَّه عنهما إلىٰ أن المراد هو «المؤمن» الذي لم يؤد حق اللَّه عليه، حكىٰ الضحاك قال: كنت جالسًا عند ابن عباس فقال: من لم يزكِّ ولم يحج سأل الرجعة عند الموت، فقال واحد: إنما يسأل ذلك الكفار، فقال ابن عباس: أنا أقرأ عليك به قرآنًا، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠].

ثم قال ابن عباس: قال رسول اللَّه ﷺ: «إِذَا حَضَرَ الإِنْسَانُ المَوْتَ جَمَعَ كُلَّ شَيْءٍ كَانَ يَمْنَعَهُ مِنْ حَقِّهِ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَعِنْدَهُ يَقُولُ: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾.

والرأي الثاني: هو ما ذهب إليه أكثر العلماء والمفسِّرين، ومنهم الإمام الرازي؛ وهو أن المراد من ﴿أَحَدَهُمُ﴾ هم «الكفار».

ثم عرج علىٰ الآية التي استشهد بها ابن عباس - رضي اللَّه عنهما - قائلاً:

إن قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ إخبار عن حال الحياة في الدنيا لا عن حال الثواب، حتىٰ قال: ولولا ذلك لكان أدون[1] المسلمين ثوابًا يَغْتَمُّ بفقد ما يفقد من منزلة غيره، ولأن المؤمن إذا عرف منزلته في الجنة وشاهدها فإنه لا يتمنىٰ أكثر منها، غير أنه لم يوضح موقفه من الحديث الذي استشهد به ابن عباس، ولو تم له ذلك لكان أدعم لرأيه، وأقوىٰ لرده.

والرأي الثالث: هو ما ذهب إليه البعض من أن وقت مسألة الرجعة إنما هو عند معاينة النار، ولقد رد هذا الرأي أيضًا الإمام الرازي قائلاً: لعل هذا القول قد ترك ظاهر هذه الآية لما أخبر اللَّه تعالىٰ في كتابه عن أهل النار في الآخرة أنهم يسألون الرجعة، لكن ذلك مما لا يمنع أن يكونوا سائلين الرجعة في حال المعاينة، واللَّه تعالىٰ يقول: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ فلعل قولهم هذا بحال حضور الموت وهو حال المعاينة؛ فلا وجه لترك هذا الظاهر، وإني لأرىٰ رأي الإمام الرازي فيما ذهب إليه، وهو أن الأولىٰ والأرجح بهذه الآية أن تُحمل علىٰ حال الكافر لا المؤمن، لأن المؤمن موقن بأنه لا رجعة بعد الموت إلىٰ الحياة الدنيا، كما أن الأرجح أيضًا أن تُحمل علىٰ حال الاحتضار في الدنيا دليل ذلك قوله تعالى:

١- ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ فذكر الموت في الآية صريح، ولا يكون ذلك إلا في حال الاحتضار.

٢- ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ فذكر البرزخ الذي هو المدة الزمنية الواقعة بين موت الخلق وبعثهم الأعظم، ولا يكون إلا بعد الموت؛ فدل ذلك علىٰ أن سؤال الرجعة إنما هو في الدنيا حال الاحتضار.

(١) أدون: أقل.

وتفاوت آراء العلماء والمفسرين في المراد من كلمة ﴿أَحَدَهُمُ﴾ يشير إلىٰ ذلك القول بأنه لا مانع البتة أن يراد من هذه الكلمة «المؤمن والكافر» علىٰ السواء، غير أن هذا يكون في حال الاحتضار بالنسبة لكل منهما، ولا مانع أن يسألها الكافر للمرة الثانية عند معاينة العذاب في الآخرة، أما سؤال المؤمن الرجعة عند الاحتضار مع علمه باستحالتها فذاك دليل علىٰ فقدان توازنه العقلي لما يراه ويباشره من ملائكة الموت ومرارته.

وأما سؤال الكافر الرجعة عند الاحتضار إما أن يكون جهلاً منه، أو لظهور الحقيقة أمامه دون التباس في أن الأمر كله بيد اللَّه، خصوصًا وقد تخلىٰ عنه الأقرباء والأصفياء عند حشرجة الروح ومفارقة الحياة يطلب هذا المحتضر من ربه أن يرجعه إلىٰ الدنيا ليستطيع أن يتدارك ما فاته من إيمان وعمل صالح، يطلب ذلك في أسلوب يليق بعظمة اللَّه وتمام قدرته، كما ينبئ عن هوان ذلك المحتضر وذلّته وانكساره؛ فصدَّر كلامه بلفظ الرب الدال علىٰ تمام معرفته بخالقه وكفالته له، وجاء بصيغة الجمع في ﴿ارْجِعُونِ﴾ لتقديس اللَّه تعالىٰ وتعظيمه التعظيم اللائق بذاته العلية.

واختياره لصيغة الترجي وورودها علىٰ لسانه ليس لونًا من ألوان الشك في إتيانه العمل الصالح وتداركه لما فات من خير، بل هو دليل علىٰ وقوفه علىٰ حقيقة أمره، وما يئول إليه مصيره، حتىٰ كأن لسانه أنطلق من عقاله قائلاً: مكنوني من الرجعة لعلي أتدارك ما فاتني من خير.

يقول ذلك وهو جازم بأنه لا عودة، أو قالها لجهله بما يقع في مستقبله، وإن كان جازمًا للتدارك تأدبًا في مقام اللَّه تعالىٰ، وقد يكون المراد من قوله: ﴿ارْجِعُونِ﴾ الملائكة القابضة للأرواح، وعليه يكون لفظ ﴿رَبِّ﴾ قصد به القسم؛ فكأنه قال عند معاينة الموت بحق الرب ارجعون، ولكن لماذا طلب ذلك العبد عند احتضاره الرجعة إلىٰ الدنيا؟

لعله طلب من ربه الرجعة إلىٰ الدنيا ليتمكن من تدارك ما فاته من إيمان وعمل

صالح؛ فهو يُبدي هذه الرغبة للتخلص من المسئولية، وللنجاة من سوء العاقبة، غير أنه فات أوانها، وولىٰ وقتها، كما أن رغبته هذه لم تصدر من إرادة حرة كريمة، بل انبثقت من إنسان محطم فقد كل شيء حتىٰ إرادته، وأصبح عاجزًا عن فعل أي شيء.

كما أن التوبة الصادقة، والرغبة في العمل الصالح لم تكن السبب في طلبه هذا، بل كان المُلجئ له إلىٰ ذلك ما أحاطه من خور وضعف، وفقدان كامل لكل مقومات الحياة الإنسانية البصيرة بعواقبها، وأصبح قوله هذا بمثابة استغاثة الغريق الذي أحاط به الماء من كل جانب، وابتعدت عنه كل قوارب النجاة، ولكن ما المراد من العمل الصالح في قوله: ﴿**أَعْمَلُ صَالِحًا**﴾؟

ذهب بعض العلماء إلىٰ أنه «المال» حتىٰ قالوا: لعلي أعمل صالحًا فيما خلَّفت من مال؛ إذ المعقول من قوله ﴿**تَرَكْتُ**﴾ التركة؛ فهو يطلب العودة إلىٰ الدنيا ليؤدي حق اللَّه تعالى في ماله، غير أني أرىٰ الأرجح في هذا المقام أن يفسر قوله بمعنىٰ ﴿**فِيمَا تَرَكْتُ**﴾ «قصرت» لشمول هذا لسابقه، ودخوله فيه دخولاً أوليًا؛ حيث تدخل فيه الحقوق والعبادات البدنية والمالية، وكأنهم بهذا تمنوا الرجعة ليُصلحوا ما أفسدوه، وليطيعوا اللَّه في كل ما عصوه.

فهل أُجيب ذلك المحتضر إلىٰ ما طلب؟

مثل هذا العبد الكنود لا ينبغي أن يُستجاب إلىٰ طلبه، بل ينبغي أن تكون إجابته بما يفيد تيئيسه وتقنيطه؛ لهذا قال اللَّه تعالىٰ له ردًا علىٰ طلبه ﴿**كَلَّآ**﴾؛ فهي كلمة - فضلاً عن كونها تحمل كل معانىٰ القنوط واليأس - فهي تحمل أيضًا كل معاني الشدة والقسوة والزجر له، ولمن يحاول السير علىٰ دربه.

و﴿**كَلَّآ**﴾ كلمة زجر وردع ومنع من تحقيق ما طلب، صُدِّرت بها الجملة لتكون كالجواب لما سألوا تهكمًا بهم وسخرية واستهزاء، ولا يمنع ذلك أن تكون بمعنىٰ حقًا، وإن كان الأول أرجح.

أي هم يقولون ذلك عند الاحتضار حقًا إنها كلمة هو قائلها، أي إنها كلمة جرت علىٰ لسانه فحسب، حاله في ذلك كحال الذي أحاط به الهلاك فهو متخبط في قوله وفعله؛ لاستيلاء الحسرة عليه، وصياغة هذه العبارة بهذه الصورة تفيد زيادة غمه وحزنه ويأسه، كما أن انفراده بقولها دون مشاركة غيره له فيها حجبته عن استجابتها؛ لظهور أنانيته فيها، وحبه للنجاة دون سواه كما أن تذييل الآية بقوله تعالى: ﴿ **وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ** ﴾ تعميق لمعنىٰ استحالة عودته إلىٰ الدنيا؛ إذ إن هؤلاء المحتضرين صائرون إلىٰ حالة مانعة من التلاقي، حاجزة عن الاجتماع، وذلك الفاصل هو الموت؛ لأن الميت بموته يكون قد احتُجز عن دنياه وعن آخرته، فلا هو في الدنيا يعمل، ولا هو في الآخرة يلقىٰ جزاءه.

ومما يروىٰ في هذا المقام من أحاديث رسول اللَّه ﷺ أنه قال لعائشة رضي اللَّه عنها «**إِذَا عَايَنَ الْمُؤْمِنُ الْمَلائِكَةَ قَالُوا نُرْجِعُكَ إِلَىٰ دَارِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ إِلَىٰ دَارِ الْهُمُومِ وَالأَحْزَانِ لا بَلْ قُدُومًا عَلَىٰ اللَّهِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُقَالُ نُرْجِعُكَ فَيَقُولُ ﴿ ارْجِعُونِ ﴾ فَيُقَالُ لَهُ إِلَىٰ أَيِّ شَيْءٍ تَرْغَبُ؟ إِلَىٰ جَمْعِ الْمَالِ أَوْ غَرْسِ الْغِرَاسِ أَوْ بِنَاءِ الْبُنْيَانِ أَوْ شَقِّ الأَنْهَارِ فَيَقُولُ الْجَبَّارُ ﴿ كَلاَّ ﴾**» وهذا يدعم رأي من رأىٰ - ومنهم الأمام الرازي - أن المقصود من هذه الآية هو الكافر وليس المؤمن، كما قال ابن عباس رضي اللَّه عنهما، وهو ما اتفق معه فيه أغلب المفسِّرين أهـ.



الآية الرابعة

قال اللَّه تعالى: ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس: ٩٠، ٩١].

نظرات في التفسير

نقاط في البحث:

١- صِلَة الآية بما قبلها.

٢- مقالة فرعون لفظية أم نفسية.

٣- هل تدل هذه المقالة علىٰ تكرار الإيمان منه؟

٤- ما مُراد فرعون من قوله: ﴿ لا إِلَٰهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ﴾؟

٥- لماذا لم يقبل اللَّه تعالىٰ إيمان فرعون نتيجة مقالته؟

٦- من القائل: ﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾؟

٧- لماذا اختار اللَّه تعالىٰ لفرعون وجنده الغرق؟

٨- ما العلة في إنجاء فرعون ببدنه دون روحه، ودون جنده؟

هذه الآية الكريمة امتداد لقصة موسىٰ عليه السلام مع فرعون وقومه؛ فقد بعثه اللَّه إليهم، وشد أزره بأخيه الذي أشركه معه في الرسالة لفصاحته، وبيان حجته، والتماس المودة والرحمة وحسن الجزاء.

استمر موسىٰ عليه السلام فيهم ردحًا من الزمن، دون أن تثمر دعوته، أو يستجيبوا لنداء ربهم، فلما طال به المقام معهم، وعيل صبره، وبلغ اليأس منه مبلغه، دعا عليهم، وأمَّن علىٰ دعوته هارون عليهما السلام؛ فقال: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ

وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٨٨].

فاستجاب اللَّه دعائهما. قال تعالى: ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٨٩].

أمر اللَّه موسىٰ عليه السلام أن يسري بعباده لأنهم مُتَّبعون، فشد بنو إسرائيل الرحيل في الوقت المعلوم، وأسرعوا الخطو صوب خليج السويس، فأتبعهم فرعون بجنده مشرقين، فلما تراءىٰ الجمعان، قال أصحاب موسىٰ له خوفًا ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء: ٦١]، فرد موسىٰ من فوره ﴿ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: ٦٢]، فأوحىٰ اللَّه إلىٰ موسىٰ عليه السلام ﴿ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾، فاستجاب لأمر ربه بينما كان فرعون وجنده قاب قوسين أو أدنىٰ منه، وظهرت قدرة اللَّه تعالىٰ، فانحسر الماء، وانشق البحر اثني عشر طريقًا يبسًا، وكل قطعة مرتفعة من البحر بين طريقين كالجبل الضخم، فسلك موسىٰ ومن آمن معه هذه الطرق، وساروا في دروبها، وبينما هم كذلك، إذا بفرعون وجنده قد اقتربوا من الشاطيء الغربي للخليج، وبدأوا العبور منتهزين انفلاق البحر، الذي أبقاه اللَّه تعالىٰ ليتم به أمرًا كان مقضيًا، فلما وصل موسىٰ ومن معه إلىٰ الشاطئ الشرقي للخليج، وانتصف بفرعون وجنده الطريق أعاد اللَّه للبحر التئامه حتىٰ تعانقت أمواجه، فلما أدرك فرعون الحقيقة، وعرف يقينًا أن الغرق مدركه لا محالة نطق بكلمات كلها المكر والدهاء؛ فقال: ﴿ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾.

أما إدراك الغرق لفرعون فإنه لا يخرج عن أحد احتمالين:

أ- إما حقيقة. ب- أو مجازًا لقربه منه، ومشارفته له.

فإن كان الإدراك حقيقة فلا يتأتىٰ له التلفظ بهذه الجملة، ويكون القرآن الكريم قد حكىٰ عنه ما جال بنفسه؛ فيكون ذلك من الكلام النفسي الذي هو حقيقة في الكلام

وذلك تصديقًا لقول الشاعر:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما   جعل الكلام على الفؤاد دليلاً

وتصديقًا أيضًا لقول عمر بن الخطاب في سقيفة بني ساعدة عند انتقال الرسول ﷺ للرفيق الأعلىٰ حيث قال: لقد زورت في نفسي مقالة. أي أعددت كلامًا في نفسي لأتلفظ به بلساني، ويمكن الاستدلال بهذه الآية أن حقيقة الكلام هو النفس لا اللفظ، وإن كان الإدراك مجازًا؛ وذلك لقرب فرعون من الغرق ومشارفته له؛ فتكون مقالته هذه لفظية لا نفسية.

وهذا ما أرجحه لما تحمله من جمل ثلاث: الجملة الأولى: هي قوله ﴿**آمَنتُ**﴾ وإيثار صيغة الماضي علىٰ غيرها لقصد التحقيق.

الجملة الثانية: ﴿**أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ**﴾، هذه الجملة هي متعلق الإيمان الذي تضمنته الجملة الأولىٰ، غير أن تقييده ببني إسرائيل يجعله هدفًا للريب والشكوك؛ لأن هذا القيد ذو شقين، لأنه إما أن يكون المقصود من بني إسرائيل هم الذين تعددت آلهتهم، ومالت قلوبهم إلىٰ التشبيه والتجسيم، يدعم ذلك قولهم حينما جاوز موسىٰ بهم البحر ورأوا قومًا يعكفون علىٰ أصنام لهم قالوا: ﴿**اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ**﴾؛ وعليه فيكون قول فرعون ﴿**آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ**﴾ من باب الخديعة والحيلة؛ ولذا رُد إيمانه ورفض، وإما أن يكون المقصود من بني إسرائيل هم الذين آمنوا بموسىٰ وجاوز بهم البحر، وعليه يكون إيمان فرعون صحيحًا، وكأنه قال: ﴿**آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ**﴾ اللّه وهو ﴿**الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ**﴾ إلا أن هذا الرأي الثاني لا يتفق مع ما كان عليه فرعون من عقيدة وسلوك قبل بعثة موسىٰ وبعدها، كما لا يتفق مع ما حكاه القرآن عنه من ادعائه الربوبية، وكثرة لجاجه ونقاشه مع موسىٰ وتعذيبه لمن آمن به، بل لا يتفق أيضًا مع قوله: ﴿**قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ**﴾ [الشعراء: ٢٩]، ولا مع قوله: ﴿**إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤)**

وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٥٤-٥٦]، أما الجملة الثالثة فهي قوله: ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

فهذه جملة اسمية تفيد الدوام والاستقرار، وتثبت لصاحبها الإيمان والإسلام؛ لأنهما إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا، وهنا ذكر الإسلام فيشمل الإيمان.

وإذا صح لنا الشك في الجملة الأولىٰ التي نطق بها فرعون، وجاز لنا الشك أيضًا في متعلقها - وهو الجملة الثانية - إذا وجدنا مجالاً للريب فيهما فلا نستطيع الحصول عليه في الجملة الثالثة؛ إذ إن إيمان فرعون فيها صريح ظاهر لا إلباس فيه ولا غموض؛ لهذا يتساءل المرء لماذا لم يقبل اللَّه تعالىٰ من فرعون هذا الإيمان والإسلام الذي أعلنه وصاغه في عدة أساليب تفيد في مجموعها الصدق والصراحة، وبخاصة منطوق الجملة الثالثة ومفهومها.

ولعلنا نجد بعض الأسباب التي تُظهر الحكمة الإلهية في رفض هذا اللون من الإيمان وها هي أهمها:

١- أن مقالة فرعون لم يقلها في حال صحته وأمنه، كما أنها لم تصدر عن اختياره، بل قالها في حال احتضاره، وألجأته إليها ظروف الموت التي أحاطت به، والإيمان الذي يقع علىٰ هذه الصورة، في مثل هذه الملابسات لا يقبله اللَّه تعالىٰ؛ لأنه يكون خاليًا من الإذعان القلبي بالوحدانية يدل علىٰ ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥].

٢- لم يذكر فرعون في مقالته إلهه الذي آمن به علىٰ وجه التصريح، ومثل هذا الإيمان الذي لم يحدد فيه «الإله» هو إيمان مردود لعدة أسباب أهمها:

أ- أن هذا الإيمان يفيد التردد والتشكك.

ب- وجود الشك في إله بني إسرائيل؛ حيث كانت لهم عدة آلهة، وهذا لا يجعل الإله محددًا.

ج ـ أن فرعون بمقالته هذه قلَّد بنو إسرائيل في إيمانهم، وقد أجمع العلماء أن إيمان المقلِّد غير صحيح، ومرفوض من أساسه.

٣ـ قال فرعون ما قال ليتوسل به إلىٰ دفع ما نزل به من محن ناجزة، وبلايا حاضرة؛ فما كانت هذه المقالة صادرة عن إيمان حق، ولا عن إخلاص في التوحيد محض، بل هي حيلة منه، ومكر ومكر اللَّه به، ﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٤].

٤ـ فرعون موسىٰ هذا لم يذكر القرآن التقليل من شأنه، والعموم ليعتبر بنهايته كل فرعون يلي أرض مصر، وقد عُرِف عنه أنه كان دهريًا من المُنكرين لوجود الذات المقدسة المعبودة بحق، وهذا خير ترشيح للرأي القائل بأنه قالها منجاة مما حلَّ به.

٥ ـ الإيمان المطلوب من الخلق مركب من جزئين، ولعله المطلوب من بني إسرائيل، ومنهم فرعون:

أ ـ إيمان بوحدانية اللَّه تعالىٰ وعدم الشرك به.

ب ـ الإيمان بجميع من أرسلهم اللَّه تعالىٰ إلىٰ الناس، وبكل ما جاءوا به من قبل اللَّه تعالى؛ لهذا لما اعترف فرعون بأنه آمن بالذي أمنت به بنو إسرائيل، دون أن يقر ويعترف برسالة موسىٰ رُدَّ إيمانه وأصبح لاغيًا.

وهذه الآية تعتبر دليلاً للرأي القائل بأن قبول التوبة ـ أي توبة التائب ـ غير واجب علىٰ اللَّه عقلا، وإن توفرت شروطها، كما أن اختيار فرعون للفظ الإسلام دون لفظ الإيمان دليل علىٰ أنه سلك هذا المسلك لاستسلامه، لا لحقيقة الإيمان؛ لهذا كله رُفض إيمان فرعون، كما أنه لم يُمكَّن من العودة إلىٰ الدنيا ليعمل صالحًا، يستفاد هذا من ثلاث جمل وردت بعد مقولاته الثلاث: الجملة الأولىٰ والثالثة صريحتان، وأما الجملة الثانية فطويت بينهما.

الجملة الأولى: هي قوله تعالى: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ اخْتُلِفَ فيها؛ فذهب بعض العلماء إلىٰ أنه جبريل مدعمين رأيهم هذا بأخبار دالة علىٰ ذلك: منها ما رواه صاحب الكشاف في تفسيره فيما سأذكره بعد، ومنها المقابلة في قول فرعون: ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ بقوله تعالى: ﴿وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾، وذهب البعض الآخر إلىٰ أن قائل هذه المقالة هو اللَّه تعالىٰ؛ بدليل قوله تعالىٰ بعدها: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس: ٩٢]، وهذا الأسلوب لا يُتصور إلا من اللَّه تعالى، وسواء كان قائلها اللَّه تعالىٰ أم جبريل - بإذنه تعالىٰ - فهي في ذاتها تحمل في طياتها الرفض القاطع لما أعلنه فرعون من إيمان مزيف، وتسجل عليه المعصية والإفساد.

الجملة الثانية: وهي المطوية بين الجملة الأولىٰ والثانية وتصويرها كالآتي:

﴿آلآنَ﴾ لا يُقْبَل منك هذا الإيمان لأنه صادر في حال اليأس، والذي سبب لك هذا ما باشرته من معصية وفساد، فجزاؤك عندي الغرق بالماء، الذي هو علىٰ غرار ماء النيل، الذي كان ينساب أمام قصرك، حتىٰ قلت: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١].

الجملة الثالثة: هي قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ هذه الجملة هي الدالة والمشيرة علىٰ الجملة الثانية التي طويت.

ولكن يتساءل المرء لماذا اختار موت فرعون بالماء؟ ولماذا ذكر البدن مع أن نجاة الإنسان لا تكون إلا به؟ ولماذا لم يُخرج اللَّه أبدان جنده الذين غرقوا معه؟

بالنسبة للتساؤل الأول أقول: لعل الحكمة الإلهية قد اختارت لفرعون هذه الصورة لعدة أسباب، نذكر منها ما يلي:

أ - أن هذه الصورة هي التي حكم بها فرعون علىٰ من سلك مثل سلوكه مع صاحب النعمة عليه، يوضح ذلك ما رواه الزمخشري في كشافه: «أن جبريل عليه السلام

أتىٰ فرعون بفتيا قال له فيها: ما قول الأمير في عبد نشأ في مال مولاه ونعمته؛ فكفر نعمته، وجحد حقه، وادعىٰ السيادة؟ فكتب فرعون إليه ردًا يقول فيه: إن جزاء العبد الخارج علىٰ سيده، الكافر بنعمته أن يغرق في البحر.. ثم إن فرعون لما غرق رفع جبريل عليه السلام فُتياه له.

ب - ثبت في التاريخ أن قصر فرعون موسىٰ كان علىٰ ضفاف النيل، وكان فرعون متمتعًا به سباحة ورؤية وركوبًا؛ لهذا كان يقول: ﴿ **أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ** ﴾ [الزخرف: ٥١]؛ فأماته اللَّه بمثل ما تمتع به من الماء عقابًا.

جـ - لقد كان غرق فرعون بالماء مظهرًا من مظاهر كمال قدرة اللَّه تعالىٰ، وعظيم إرادته؛ حيث جعل اللَّه الماء الذي هو مصدر الحياة لكل الكائنات سببًا لهلاك فرعون وجنده.

د - يُعلم اللَّه تعالىٰ عباده بإغراق فرعون بالماء أن له أجنادًا كثيرة ليسوا من البشر، ولا من الجن ولا من الحيوان والطير فحسب، بل له تعالىٰ في كل شيء، ومن كل شيء جندًا يسلطهم علىٰ من يشاء، وكيف يشاء، وأنىٰ يريد، من هذه الأجناد الريح والماء.

أما بالنسبة للتساؤل الثاني فأقول:

أ - لعل ذكر البدن ليفيد أنه نُجي بدنًا خالصًا علىٰ الحال التي هو حينئذ عليها دون روح.

ب - أو ليفيد كونه خالصًا كاملاً سويًا، لم يطرأ عليه تغيير.

جـ - أو كونه عاريا من كل لباس.

د - أو ليبطل شبهة اعتقاد قومه بألوهيته.

هـ - أو ليظهر في صورة الذليل الحقير فيكون ردعًا لغيره وزجرًا.

و ـ أو ليدل بصورته هذه علىٰ كمال اللّه ذاتًا وصفةً وفعلاً.

وقد يندفع هذا التساؤل بما رواه الليث من أن المراد من البدن هو الدرع الذي يكون قصير الكمين: أي ننجيك بدرعك، ومما يدعم ذلك ما رواه ابن عباس أنه كان عليه درع من ذهب يُعرف بها؛ فأخرجه اللّه من الماء مع ذلك الدرع ليُعرف(١) ويعتبر هذا معجزة لموسىٰ إن صحت الرواية.

أما التساؤل الثالث: وهو لماذا لم يُخرج جنده معه؟

أقول: أفرده بطرح بدنه علىٰ الشاطيء للأسباب سالفة الذكر، ولتظهر بذلك حكمته، وتتضح تمام قدرته علىٰ أنه الخالق الحق، القادر دون غيره علىٰ تمييز المتشابهات بعضها عن بعض؛ حيث ابتلع الجميع اليم، ولم يكن لسواه تعالىٰ أن يميز بين الأبدان في ظلمات البحر.

ومما يلفت الأنظار في هذه الآية كلمة ﴿ **نُنَجِّيكَ** ﴾؛ فقد قرنت بالجيم المعجمة، ومعناها نلقيك بنجوة من الأرض، والنجوة هي المكان المرتفع من الأرض، وقرئ ننحيك ـ بالحاء المهملة ـ ومعناها نلقيك بناحية من الأرض.. وعلىٰ كلتا القراءتين فقد أوثر هذا التعبير لإظهار التهكم والازدراء؛ وذلك من باب قول اللّه تعالى: ﴿ **فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ نعوذ باللّه تعالىٰ من عذاب جهنم، وفتنة المحيا والممات، وفتنة المسيح الدجال ا هـ.



(١) قال ابن عباس رضي اللّه عنهما: إن بعض بني إسرائيل شَكُّوا في موت فرعون؛ فأمر اللّه البحر أن يلقيه بجسده سويًا بلا روح ليتحققوا موته وهلاكه. «تتفسير ابن كثير» ٢ / ٢٠٦.

الآية الخامسة

قال اللّه تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٣٧].

التفسير:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ الاستفهام للإنكار أي من أقبح وأشنع ممن تعمد الكذب علىٰ اللّه، أو كذب بآياته المنزلة؟

﴿أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾ أي يصيبهم حظهم في الدنيا مما كُتب لهم وقدر من الأرزاق والآجال. قال مجاهد: ما وُعدوا به من خير أو شر ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ أي جاءت بهم ملائكة الموت تقبض أرواحهم ﴿قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي أين الآلهة التي كنتم تعبدونها من دون اللّه، ادعوهم ليخلصوكم من العذاب، والسؤال للتبكيت والتوبيخ ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ أي قال الأشقياء المكذبون لقد غابوا عنا فلا نرجوا نفعهم ولا خيرهم، ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ أي أقروا واعترفوا علىٰ أنفسهم بالكفر والضلال، وإنما قالوا ذلك علىٰ سبيل التحسر والاعتراف بما هم عليه من الخيبة والخسران.

نظرات في التفسير:

ولكن ما المراد من كلمة ﴿رُسُلُنَا﴾؟

للعلماء في ذلك رأيان:

أصحاب المذهب الأول: يرون أن المراد من ﴿رُسُلُنَا﴾ هم عزرائيل وأعوانه، واستدلوا علىٰ ذلك بكلمتين في الآية هما: ١- ﴿نَصِيبُهُم﴾ ٢- ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾

(١) وذهب كثير من العلماء أن المراد من ﴿نَصِيبُهُم﴾ العدل والإنصاف والذب عنهم، والدفاع عن حياضهم؛ لأنهم أهل ذمة لهم مالنا وعليهم ما علينا.

أما ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير - رضي الله عنهم - فقد ذهبوا إلىٰ القول: بأن المراد من ﴿نَصِيبُهُم﴾ هو ما سبق لهم في علم الله من شقاء.

وقال ابن زيد والربيع المقصود من ﴿نَصِيبُهُم﴾ هو ما كتب لهم من الأرزاق والأعمال والأعمار.

ولفظ ﴿نَصِيبُهُم﴾ وإن كان يحتمل كل هذه المعاني إلا أن أقربها إلىٰ نسق الآية هو ما ذهب إليه الربيع وابن زيد؛ لأن الله تعالىٰ بين أنهم وإن بلغوا في الكفر مبلغًا عظيمًا إلا أن ذلك لا يحرمهم من رزقهم المكتوب لهم، وأعمارهم المقدرة، تفضلاً منه تعالىٰ، عسىٰ أن يتوبوا ويستقيموا، وهذا ما ذهب إليه المحققون، يدعم ذلك لفظ ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ فإنه دليل علىٰ أن مجيء الرسل للمتوفىٰ كالغاية لحصول ذلك النصيب، فوجب أن يكون حصول ذلك النصيب متقدمًا علىٰ حصول الوفاة، والمتقدم علىٰ حصول الوفاة ليس إلا العمر أو الرزق، وعلىٰ هذا فيكون المراد من الرسل إنهم الموكلون بقبض الأرواح، ولأن لفظ ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ يفيد ذلك، لقول ابن عباس رضي الله عنهما: «الموت قيامة الكافر»، ويكون قول الملائكة لهم ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من باب الزجر والتوبيخ والتهديد

أما أصحاب الرأي الثاني: فيذهبون إلىٰ تفسير النصيب بأنه اسوداد الوجه، وزرقة العينين، أو الأغلال التي في أعناقهم، أو سوقهم إلىٰ النار.

كما فسروا ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾أي يتوفون عدتهم عند حشرهم إلىٰ النار، أي يستكملون عِدتهم، ويحصون عددهم حتىٰ لا ينفلت منهم من أحد؛ فالمراد بالرسل هم ملائكة العذاب، غير أن أصحاب الرأي الأول علىٰ بينة واضحة، وسواء كانت الوفاة بمعنىٰ قبض الأرواح، أو بمعنىٰ حصر عددهم، وسواء كانت الملائكة للعذاب أو

لقبض الأرواح، سواء كان هذا أو ذاك فالشاهد في هذه الآية قول الكفار ﴿ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ ردًا على سؤال الملائكة لهم ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ فلهذا أقول: إن ردهم هذا قد جمع بين أمرين اثنين:

أولهما: الحكم على الذين عبدوهم من دون اللَّه تعالىٰ بالبطلان والضياع والذهاب، وهذا يسلب الألوهية عن آلهتهم، لأنها لو كانت آلهة حقة لما غابت عن عابديها، ولما بطل الاستنجاد بها، لأن الإله الحق هو الذي يكون مع عبدته في كل زمان ومكان: يمدهم بعونه، وينجدهم بقدرته.

ثانيهما: أنهم أعلنوا صراحة أمام ملائكة الموت - ردًا علىٰ سؤالهم - أنهم كفروا باللَّه، وادعوا له الشريك، وأنكروا نعمه، وكفروا بمقدساته.

هذان الأمران هما المُعبر عنهما في قوله تعالى: ﴿ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ وقولهم هذا وإن لم يظهر فيه الدعاء صريحًا إلا أنه متضمن له تضمينًا قد يصل إلىٰ درجة الظهور البين والواضح الجلي، لأنه مشتمل على التبرؤ والندم، ولا يكون ذلك إلا حيث يرىٰ المتبرئ النادم نفسه في حاجة إلىٰ الإقلاع عما سبب له ذلك، وأن الإقلاع عنه لابد وأن يكون مسبوقًا بتوبة نصوح عما سلف من قول وعمل غير صالحين، وأن يكون متطلعًا لعود محمود إلىٰ اللَّه تعالىٰ يلتزم فيه بحدوده وشرعه ؛فيحل حلاله ويحرم حرامه، ولا يكون ذلك إلا إن قصد به الدعاء، ولا فائدة في الدعاء إلا في الحياة الدنيا لا الآخرة.

كما يدعم هذا الرأي أيضًا: وهو أن المراد من الرسل هم الموكلون بقبض الأرواح في الآية السابقة عليها وهي قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥، ٣٦].

فاللَّه يخاطب بهذه الآية بني آدم قائلاً لهم أنه إذا وافتكم رسلي يخبرونكم بأمري وتعاليمي؛ فعليكم بالاستجابة والطاعة؛ وعدم الكفر والتمرد لأن من اتقىٰ غضبي وأصلح ما بيني وبينه بأن فعل كل ما أمرته به أكرمته عند مماته، فلا يخاف سؤال قبر، ولا شدة موقف، ولا دخول نار، ولا يحمل همًا ولا حزنًا لفراق الأحباب، يدعم ذلك أيضًا الآية التالية لها وهي:

﴿**قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ**﴾ [الأعراف: ٣٨].

ولا تكون هذه الآية جوابًا علىٰ قولهم ﴿**قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ**﴾ إلا إذا ضمنت مقالتهم هذه معنىٰ الندم والنجدة والرغبة في العودة إلىٰ الدنيا للقول الصالح والعمل الطيب، أو الرغبة في العفو والمغفرة حتىٰ يتجنبوا النار وينعموا بالجنة.

وعلىٰ كلا الأمرين والرغبتين فقولهم: ﴿**ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ**﴾.

هو دعاء لأنهم يطلبون من اللَّه تعالىٰ إعطائهم فرصة لإثبات حسن نيتهم في تحقيق الخير بعودتهم إلىٰ الدنيا، أو يطلبون من اللَّه تعالىٰ التجاوز عما سلف من سيئات أعمالهم وقبيح أقوالهم؛ فيدخلون الجنة، وما ذلك إلا الدعاء الضمني سواء كان نفسيًا أو قلبيًا اهـ.



أهم ما ينتاب المحتضر ويجول بخاطره
والفوائد التي يمكن استنتاجها من آيات الدعاء عند الاحتضار

بعد دراسة هذه الآيات الخمس والأدعية الصادرة من الخلق في مقام الاحتضار، يمكن للمرء أن يقف علىٰ أهم ما ينتاب المحتضر ويجول بخاطره عند احتضاره من قول أو فعل، ويمكن تلخيص ذلك فيما يلي:

(١) الاعتقاد الجازم بالحكم علىٰ تلك الآلهة التي عُبدت من دون اللَّه زورًا، بالخسة والضعة، والحكم أيضًا علىٰ عبادتها بالبطلان والفساد، والحكم كذلك علىٰ من عبدوها بالكفر والإضلال.

(٢) الاعتراف بأن الخداع الكاذب، والتلاعب المشين بالألفاظ عند إعلان التوبة والإيمان لا ينفع ولا يجدي، خصوصًا عند فوات الأوان وذهاب الفرص كما هو في حال الاحتضار.

(٣) الإقرار بأن طلب العودة إلىٰ الدنيا لتدارك ما فات عند مشاهدة علامات الموت لا ينفع حزينًا، ولا يساوي فتيلاً ولا قطميرًا.

(٤) عدم جدوىٰ الإيمان في حال العذاب والهلاك، ولو كان المُعلِن لإيمانه صادقًا في توبته وإنابته إلىٰ اللَّه تعالى، كما أن طلب تأخير الموت للتصدق وعمل الصالحات، وإن صدقت النية مردود، ومستحيل قبوله وتحقيقه.

(٥) الآجال محدودة، والأنفاس معدودة، ولا يجوز فيها الزيادة ولا النقصان، قال تعالى: ﴿**فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ**﴾ [الأعراف: ٣٤].

❑ ★ ❑ ★ ❑

الفصل الثاني: آيات الدعاء وفوائدها عند البعث
الأدعية الصادرة من الخلق عند البعث
تقديم

ما المقصود بـ «البعث»؟

البعث: هو أحد مشتملات اليوم الآخر (القيامة)، وهو إحياء اللّه الموتىٰ ليلقىٰ كلٌ منهم جزاءه الذي قُدِّر له من نعيم أو عذاب، قال اللّه تعالىٰ: ﴿ **ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ** ﴾ [المؤمنون: ١٥، ١٦].

وقال اللّه تعالىٰ: ﴿ **ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ** ﴾ [الحج: ٦، ٧].

وقال تعالىٰ: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ** ﴾ [الروم: ٢٧]: أي هين عليه.

وقال تعالىٰ: ﴿ **زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** ﴾ [التغابن: ٧].

وقال تعالىٰ: ﴿ **يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ [المجادلة: ٦].

الأدعية الواردة عند البعث:

هذه الأدعية وردت في سبع سور من القرآن الكريم هي:

١ - سورة إبراهيم. ٢ - سورة الفرقان. ٣ - سورة سبأ. ٤ - سورة الصافات.

٥ - سورة الزمر. ٦ - سورة الزخرف. ٧ - سورة النبأ.

الآية الأولى

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ [إبراهيم: ٤٤].

التفسير:

يظهر جليًا أن المراد من ﴿ النَّاسَ ﴾ في الآية هم الظالمون المذكورون قبلاً في قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ [إبراهيم: ٤٣]، وهم مشركو مكة وأندادهم، أي لا تظنَّن يا محمد أن اللَّه ساه عن أفعال هؤلاء الظلمة، فإن سُنَّة اللَّه إمهال العُصاة، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

قال ميمون بن مهران: هذا وعيد للظالم، وتعزية للمظلوم[١].

كما أن المراد من «اليوم» في قوله تعالي: ﴿ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ ﴾الآية هو المذكور بأوصافه في قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾ [إبراهيم: ٤٢، ٤٣].

وهو يوم البعث، وهو اليوم العصيب الرهيب، الذي تشخص فيه الأبصار من الهول والفزع، فتظل مفتوحة مبهوته لا تطرف ولا تتحرك، قال ابن مسعود: «تبقىٰ أبصارهم مفتوحة لا تتحرك أجفانهم من هول ما يرونه[٢]»، يهرولون مسرعين إلىٰ مصائرهم، لا يلتفتون إلىٰ شيء، بل رافعين رءوسهم مع إدامة النظر.

وقال الحسن: بل وجوه الناس يومئذ إلىٰ السماء لا ينظر أحد إلىٰ أحد ولا يطرفون بعيونهم من الخوف والجزع، وقلوبهم خالية من العقل لشدة الفزع.

---

(١) «القرطبي»: ٩/ ٣٧٥.
(٢) «أبو السعود»: ٣/ ١٣٣.

ومن ثم فصِلَةُ الآية بالآيتين السابقتين عليها وثيقة جدًا لأنها امتداد لهما؛ فقد وصف اللَّه تعالي هذا اليوم بما سيحدث فيه.

وفي هذه الآية الكريمة فإن الحق جل وعلا يأمر نبيه محمدًا ﷺ أن ينذر هؤلاء الناس ـ كفار مكة ـ ويخوفهم بما سيحدث في هذا اليوم؛ حيث تشخص فيه الأبصار دون تغميض، وترفع فيه الرءوس ولا ترد لوضعها الطبيعي، حتىٰ القلوب تخلو من العقل والتفكير.

ومن صفات هذا اليوم أيضًا ما يتردد علىٰ ألسنة هؤلاء الكفرة الظلمة وأمثالهم حيث سيقولون: ﴿**رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ**﴾ فهم ظلموا أنفسهم بالكفر والإشراك، وظلموا غيرهم بحملهم علىٰ ما سلكوا قهرًا أو اقتداءً، هؤلاء يندمون عند مشاهدتهم لأهوال يوم القيامة منذ بعثهم وخروجهم من القبور، وما أكثر مشاهد يوم القيامة! وما أعظم أهوالها! إنهم ليتباكون ويتألمون، ويطلبون من اللَّه تعالىٰ أن يمنحهم فرصة ليعودوا إلىٰ الدنيا فيؤمنوا باللَّه الواحد الأحد، وبمحمد ﷺ خاتمًا للأنبياء والمرسلين؛ فهل استجاب اللَّه لهم تذللهم هذا وتحسرهم؟ كلا..

بل قابل ندمهم هذا الذي فات أوانه بمنتهىٰ القوة البيانية، والأقيسة المنطقية؛ حيث لم يرد عليهم صراحة، ولم يقل لهم لا رجعة لكم إلىٰ دار الدنيا، بل ساق الإجابة في أسلوب ساخر بعقولهم، محطِّم لأمالهم؛ فقال: ﴿**أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ**﴾ أو هل نسيتم قولكم: ﴿**لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ**﴾ [النحل: ٣٨]، فقرعهم اللَّه تعالىٰ بهذا القول: أي لا رجعة لكم إلىٰ الدنيا، وكيف يكون ذلك وقد كنتم من قبل لا تعترفون بالآخرة ولا بالميعاد، وكنتم ترون أنفسكم باقين مُخلدين في الدنيا لا تزولون منها إلىٰ حياة ثانية؟ ثم زادهم اللَّه توبيخًا بأن أخبرهم بأنهم سكنوا في مساكن الذين ظلموا أنفسهم من الذين قبلهم: كقوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط، غير أنهم لم يتعظوا، ولم يعتبروا مع علمهم بما صار إليه مآلهم، وما وصلت إليه عاقبتهم من سوء النهاية، وقُبح المنقلب.

وفي هذا التعبير الإلهي ما فيه من تمام الإيضاح لقدرة الله؛ حيث إنه قادر علىٰ التعذيب المؤجَّل والمُعجَّل علىٰ السواء، هذا الذي ذكرته من إجماع المفسرين علىٰ أن المراد من هذا اليوم هو يوم القيامة خالفه أبو مسلم حيث حمَّل قول الظلمة: ﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ علىٰ ساعة الاحتضار مدَّعيًا أن هذه الآية شبيهة بما ورد في سورة المنافقون وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ الآية [المنافقون: ١٠].

إلا أننا نرىٰ أن سياق الآيات وما فيها من شواهد وصفات لا تلائم إلا يوم البعث، تدعم رأي إجماع المفسرين، كما أنها لا تساند رأي أبي مسلم: لا من قريب، ولا من بعيد؛ لأن طلب التأخير في آيتنا هذه معناه «رُدَّنا» إلىٰ الدنيا، ولا ينبغي أن يفهم منه طلب تأجيل الموت.

❑ ★ ❑ ★ ❑

الآية الثانية

قال اللّه تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩].

التفسير:

واذكر يا محمد يوم القيامة حيث يندم ويتحسر الظالم علىٰ نفسه لما فرط منه في جنب اللّه، وعض اليدين كناية عن الندم والحسرة، والمراد بالظالم «عُقبة بن أبي معيط» كما في أسباب النزول، وهي تعم كل ظالم، قال ابن كثير: يخبر اللّه تعالىٰ عن ندم الظالم الذي فارق طريق الرسول ﷺ، وسلك سبيلاً غير سبيل الرسول، فإذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم، وعضَّ علىٰ يديه حسرةً وأسفًا، وسواء كان نزولها في «عقبة بن أبي معيط» أو غيره من الأشقياء فإنها عامة في كل ظالم[1] في هذا اليوم العصيب الرهيب، يقول الظالم: يا ليتني اتبعت الرسول فاتخذت معه طريق الهدىٰ الذي يُنجيني من العذاب.

ويتأسف علىٰ ما فرّط منه، ويرىٰ مصيره ماثلاً أمامه، فيقول: يا هلاكي وحسرتي، ليتني لم أصاحب فلانًا وأجعله صديقًا لي، ولفظ «فلان» كناية عن الشخص الذي أضله وهو «أبي بن خلف»، قال القرطبي: وكني عنه ولم يُصرح باسمه ليتناول جميع من فعل مثل فعله[2]، يقول عن صاحب الضلالة: لقد أضلني عن الهُدىٰ والإيمان بعد أن اهتديت وآمنت، ثم قال اللّه تعالىٰ: ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴾ أي يضله ويغويه، ثم يتبرأ منه وقت البلاء؛ فيهرب منه ولا ينقذه.

نظرات في التفسير: ١- صلة الآيات بما قبلها:

هذه الآيات متصلة بقوله تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ﴾ [الفرقان: ٢١] أي هلا نزلت الملائكة علينا فأخبرونا بصدق

(١) «تفسير ابن كثير»: ٢/ ٦٣٠.
(٢) «القرطبي»: ١٢/ ٢٦.

محمد ورسالته، أو نرىٰ اللَّه عيانًا فيخبرنا أنك رسوله، قال أبو حيان: وهذا كله علىٰ سبيل التعنت، وإلا فما جاءهم به من المعجزات كافٍ لو وُفِّقوا؛ فالذين لا يرجون لقاء اللَّه هم الذين لا يأملون في إنجاز ما وعد به الطائعين، وما توعد به العُصاة؛ فمن هؤلاء الذين لا يرجون لقاء اللَّه علىٰ التعيين؟

قال الكلبي ومقاتل: نزلت هذه الآية في أبي جهل والوليد وأصحابهم المنكرين للنبوة والبعث، غير أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ فمن كان علىٰ وتيرتهم كان جزاؤه جزاؤهم؛ فهل استجاب اللَّه طلبهم؟ نعم، ولكن بالصورة التي تؤلمهم؛ فقال تعالىٰ.

أولا: ﴿ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢١] حكم اللَّه عليهم بالاستكبار والخروج عن حد العبودية إلىٰ مقام المنازعة.

ثانيًا: ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٢] أي سيريهم اللَّه الملائكة، ولكن ليس علىٰ الصورة التي طلبوها، فلن تكون لهم يومئذ بشارة تسرهم، بل لهم الخيبة والخسران، وسوف تشهد الملائكة بصدق نبوة محمد ﷺ ورسالته.

وتقول لهم الملائكة: حرام ومحرم عليكم الجنة والبشرىٰ والغفران.

ثالثًا: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣] أخبر اللَّه تعالىٰ عما ظنوه ينفعهم من صدقةٍ وبر، أنه يجعله هباءً منثورًا لأنه لا يعتمد علىٰ أساس، ولا يستند علىٰ إيمان. قال الطبري: أي جعلناه باطلاً لأنهم لم يعملوه للَّه، وإنما علموه للشيطان، والهباء هو الذي يُرىٰ كهيئة الغبار إذا دخل ضوء الشمس من كوة، والمنثور المتفرق[1]، وقال القرطبي: إن اللَّه أحبط أعمالهم بسبب الكفر حتىٰ صارت بمنزلة الهباء المنثور[2].

رابعًا: ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ [الفرقان: ٢٤] أدخل اللَّه الحسرة والألم إلىٰ قلوبهم بوصف ما سيكون عليه المؤمنون يوم القيامة من نعيم،

(١) «الطبري»: ١٩/ ٣.
(٢) «القرطبي»: ١٣/ ٢٢.

تنبيهًا علىٰ أن السعادة كل السعادة في طاعة اللَّه عز وجل، فالمؤمنون في الآخرة في الفردوس والنعيم المقيم، والكفار في دركات الجحيم، قال ابن مسعود: «لا ينتصف النهار من يوم القيامة حتىٰ يقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار».

ثم وصف اللَّه اليوم الذي يرىٰ فيه هؤلاء الكفار الملائكة بخمسة أوصاف:

الصفة الأولىٰ: قال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾ [الفرقان: ٢٥] أي واذكر ذلك اليوم الرهيب يوم تتشقق السماء وتنفطر عن الغمام الذي يُسَوِّد الجو ويُظلمه؛ ويغم القلوب مرآه لكثرته وشدة ظلمته.

ويكون المقصود بهذه الجملة في الآية الكريمة هو ما ورد في قول اللَّه تعالىٰ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠] أي ا ينتظرون شيئًا إلا أن يأتيهم اللَّه يوم القيامة لفصل القضاء بين الخلائق[1] حيث تنشق السماء، وينزل الجبار عز وجل في ظُلل من الغمام وحملة العرش والملائكة الذين لا يعلم كثرتهم إلا اللَّه، ولهم زجل من التسبيح يقولون: سبحان ذي الملك والملكوت، سبحان ذي العزة والجبروت، سبحان الحي الذي لا يموت، سبحان الذي يميت الخلائق ولا يموت، سبوح قدوس رب الملائكة والروح.

الصفة الثانية: قوله تعالي: ﴿وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلاً﴾ [الفرقان: ٢٥] أي ونزلت الملائكة فأحاطت بالخلائق في المحشر.

الصفة الثالثة: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان: ٢٦] أي الملك في ذلك اليوم للَّه الواحد القهار، الذي تخضع له الملوك، وتعنو له الوجوه، وتذل له الجبابرة، لا مالك يومئذ سواه كقوله جل وعلا: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، والمقصود تصور عظمة يوم القيامة وهولها وشدتها، وبيان أن الحاكم فيها والمالك الحق

(١) ذهب الإمام الفخر إلىٰ أن معنىٰ ا ﴿أَن تَأْتِيَهُمُ﴾ي ياتيهم أمره وبأسه؛ فهو علىٰ حذف المضاف، مثل قوله: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾، وهو مجاز مشهور، يقال: ضرب الأمير فلانًا وصلبه وأعطاه، والمراد أنه أمر بذلك. واستدل علىٰ صحة هذا التأويل بالآية الأخرىٰ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾، وما أثبتناه من تفسير ابن كثير هو مذهب السلف، وهو عدم التأويل، وتفويض الآية علىٰ سبيل التفصيل إلىٰ اللَّه تعالىٰ.

هو ملك الملوك جل وعلا، الذي لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه، وهو أحكم الحاكمين.

الصفة الرابعة: قوله تعالىٰ: ﴿**وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا**﴾ [الفرقان: ٢٦] يوم القيامة هذا يوم عسير، صعبًا شديدًا علىٰ الكافرين لما فيه من شدة الهول والبلاء، قال أبو حيان: ودل قوله: ﴿**عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ علىٰ تيسيره علىٰ المؤمنين، وفي الحديث الشريف عن النبي ﷺ: «**إِنَّهُ يَهُونُ حَتَّىٰ يَكُونَ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِ أَخَفَّ عَلَيْهِ مِنْ صَلاةٍ مَكْتُوبَةٍ صَلاهَا فِي الدُّنْيَا**»(١).

الصفة الخامسة: في قوله تعالى: ﴿**وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ**﴾ [الفرقان: ٢٧]، قال ابن كثير: يخبر تعالى عن ندم الظالم الذي فارق طريق الرسول ﷺ وسلك سبيلاً غير سبيل الرسول ﷺ؛ فإذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم، وعض على يديه حسرة وأسفًا، فسواءٌ كان نزول الآية في «عقبة بن أبي معيط»، أو غيره من الأشقياء فإنها عامة في كل ظالم(٢).

هذه الصفات الخمس إنما سيقت لبيان فظاعة هذا اليوم وشدته: فمن تشقق للسماء، إلىٰ نزول الملائكة منها، إلىٰ إثبات الملكية الحقيقية لكل شيء فيه للّه تعالىٰ، وإثبات هول هذا اليوم علىٰ الكافرين، إلىٰ إظهار الحالة التي يكون عليها هذا الكافر، وما يتلفظ به في ساعات هذا اليوم.

وهذه الآيات الثلاث التي ابتدأت بالصفة الخامسة ليوم القيامة هي موضوع بحثنا في هذا المقام، يقول اللّه تعالىٰ في أول هذه الآيات الثلاث: ﴿**وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ**﴾ [الفرقان: ٢٧]، فمن هو هذا الظالم؟!

الراجح أن يكون هذا الظالم معهودًا؛ غير أنه أُختلف في ذلك المعهود إلى قولين:

الرأي الأول: وهو من الضعف بمكان، وهو رأي الرافضة الذين قالوا: إن المقصود من الظالم هو رجل بعينه، غير أن المسلمين بدلوا اسمه وكتموه، وجعلوا فلانًا بدلا من اسمه، وذكروا فاضلين من أصحاب رسول اللّه ﷺ.

إلا أن رأيهم هذا عليل وسقيم وليس له من السند ما يدعمه، بل إن الأدلة العقلية

(١) «البحر»: ٦/ ٤٩٥، والحديث أخرجه أحمد بلفظ: «**والذي نفسي بيده إنه ليُخفف علىٰ المؤمن**» الحديث.
(٢) «تفسير ابن كثير»: ٢/ ٦٣٠.

والنقلية تدحضه، كيف لا وهو يؤدي إلى:

١- سب أصحاب رسول اللَّه ﷺ، وقد نهى رسول اللَّه ﷺ عن ذلك نهيًا قاطعًا، وقرر أن من يفعلون ذلك مستحقون لغضب اللَّه ولعناته؛ ففي الحديث الشريف: «**لا تَسَبُّوا أَصْحَابِي، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ سَبَّ أَصْحَابِي**».

٢- الطعن في آيات القرآن الكريم، ويصف المسلمين أنهم غيروا وبدلوا في القرآن، وهذا هو الكفر بعينه، والافتراء بذاته، ومن افترىٰ علىٰ اللَّه كذب.

الرأي الثاني: وكان ينبغي أن يُعنون بالأول، غير أن طول الحديث عنه اقتضت عنونته بالثاني، وهو الأولىٰ بالقبول، والأرجح عند العقلاء، وصاحبه وراويه حَبْر الأمة ابن عباس رضي اللَّه عنهما، فقد روي عنه كما ورد في أسباب النزول أن المراد بالظالم في هذه الآيات هو: «عقبة بن أبي معيط بن أمية بن عبد شمس»، وكان صديقًا لأبي بن خلف، كان لا يقدم من سفر إلا صنع طعامًا، يدعو إليه جيرته من أهل مكة؛ فصنع وليمة، ودعا إليها رسول اللَّه ﷺ، فلما قُدم الطعام، قال رسول اللَّه ﷺ: ما أنا بآكل طعامك حتىٰ تشهد أني رسول اللَّه ففعل، فأكل رسول اللَّه ﷺ من طعامه، فلما بلغ «أبي بن خلف» ذلك قال لصديقه عقبة: صبأت؟ قال: لا ولكن دخل عليَّ رجل عظيم؛ فأبىٰ أن يأكل من طعامي حتىٰ أشهد له بالرسالة، وإنما ذكرت ذلك ليأكل من طعامي.

فقال له أُبي: وجهي من وجهك حرام حتىٰ تأتيه فتبزق في وجهه، وتطأ علىٰ عنقه، ففعل عدو اللَّه ما أمره به فأنزل اللَّه: ﴿**وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ**﴾ الآية[1].

هذا الظالم ومن كان علىٰ دربه تحكي عنه هذه الآيات الثلاث فعلاً يصدر منه، وخمسة أقوال يتلفظ بها؛ أما الفعل فيصوره قول اللَّه تعالىٰ: ﴿**وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ**﴾

قال الضحاك: يأكل يديه إلىٰ المرفق، ثم تنبت فلا يزال كذلك كلما أكلها نبتت.

وقال أهل التحقيق: هذه اللفظة مُشعرة بالحسرة والندم والغم يُقال: عضَّ أنامله، وعض علىٰ يده دلالة علىٰ الندم...

(١) «التفسير الكبير»: ٢٤/ ٢٥.

أمـا القـول: فـيصـوره القرآن في خـمس جـمل، وهي التي تلفظ بهـا ذلك الظالـم العاضّ علىٰ يديه.

الجملة الأولىٰ: ﴿ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴾.

يتـمنىٰ ذلك الظالـم أن لـو كـان اللَّه هداه في الدنيـا: باتبـاع الرسـول محـمد ﷺ، وسلوك طريقه لكان ذلك خيرًا له.

الجملة الثانية: ينادي هذا الظالم «ويلته وهكلته» قائلاً لها تعالي فهذا أوانك.

الجملة الثالثة: ينادي هذا الظالم خلان السوء ـ خصوصًا من كانوا سببًا في بلائه هذا ـ قائلاً: ليتني لم أتخذ هذا العربيد الضال المُضل صديقًا لي ولا خليلاً.

الجملة الرابعة: يثبت فيها ذلك الظالم أن هذا الصديق قد صرفه عن ذكر اللَّه، وعن تفهم القرآن، وعن الاستفادة بمواعظ الرسول التي جاء بها بشيرًا ونذيرًا.

الجملة الخامسة: هي قوله تعالىٰ: ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴾.

هذه العبارة التي ختم بها أقواله تفيد أنه استيقظ من نومه حتىٰ استطاع أن يدرك ما حدث له، وما خُدِع به، وأن يتصور ذلك الخِلِّ السيئ علىٰ صورته الحقيقية، ومن ثم حكم وأقرَّ بأن من كان علىٰ هذه الصورة من الإنس والجن هو عبدٌ خاذل لنفسه ولغيره، منحرفٌ عن طريق الحق والصواب.

وهذا الذي ظهر من هذا الظالم فعلاً وقولا، وإن يبد في الصورة دعاء صريحًا فهو في الحقيقة دعاء صادر من أعماق القلب ومنابع الوجد؛ لأن المتألم النادم المتحسِّر المتبرم من وضعه، الناقد الحاقد علىٰ من أضله وخذله هو في الحقيقة داع؛ لأن مثل هذا الشعور لا يتأتىٰ إلا من إنسان صحا بعد نوم، واستيقظ بعد غفلة فعرف أنه ضُلِّل وخُدِع؛ فعضَّ بنان الندم، وقال ما قال من قول أدان فيه نفسه، وعاب فيه تصرفه وسلوكه.

فمثل هذا لا يصدر إلا من عبد أحب العودة وتمناها ليُصلح ما أفسده، غير أنه لم يصرح بذلك لتأكده حينئذ بأن الدار الآخرة دار قرار، ولا رجعة بعد الموت، وإنما هي جنة أبدًا، أو نار أبدًا؛ لهذا لم يُجبه اللَّه تعالىٰ لا سلبًا ولا إيجابًا، وإنما اكتفىٰ القرآن بسرد حالته قولاً وعملاً.

الآية الثالثة

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ [سبأ: ٥١ - ٥٤].

نظرات في التفسير:

هذه الآيات مرتبطة بقول اللَّه تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ: ٥٠].

يأمر اللَّه تعالىٰ نبيه محمد ﷺ أن يقول لكفار مكة: إن حصل لي ضلال - كما زعمتم - فإنما إثم ضلالي علىٰ نفسي، لا يضر غيري، وإن اهتديت إلىٰ الحق فبهداية اللَّه وتوفيقه لما أوحاه إليَّ من القرآن والحكمة، وإن ربي سميع لكل شيء، قريبٌ من كل شيء، بالغ في إخفائهما[1]، حتىٰ ولو لم يُعجِّل العذاب للعُصاة، ولو لم يُعنْ صاحب الحق في الحال؛ وذلك لأن هناك يومًا تفزع فيه الخلائق، وهو يوم البعث، وسينال كل إنسان جزاء ما قدّم من خير أو شر، ولا يستطيع أحد أن يفوت أو يهرب من العقاب الذي يستحقه، لأنهم بُعِثوا وأخذوا من الموقف - أرض المحشر - إلىٰ النار.

وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف تقديره: لرأيت أمرًا عظيمًا، وخطبًا جسيمًا ترتعد له الفرائص، ألا وهو عدم تمكن هؤلاء الكفار من الهرب؛ لأن نواصيهم بأيدينا، وما يزيدك عجبًا أنك تراهم يُعلنون الإيمان بما كفروا به في دنياهم، يُعلنون إيمانهم باللَّه ورسوله وبكل ما جاء به ﷺ؛ فهل استجاب اللَّه تعالىٰ لهؤلاء الكفار وقبل منهم إيمانهم؟

كلا، لم يقبل اللَّه منهم هذا الإيمان؛ لأنه إيمان اضطراري، ووضح ذلك في الجمل الثلاث الآتية:

---

(١) «أبو السعود»: ٤/ ٢٣٥.

الجملة الأولىٰ: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾.

أي كيف يتأتىٰ لهم تناولهم للإيمان، وتحقيق طلبهم وقبول توبتهم، والحال أنهم بعيدون كل البعد عن الأوقات التي تقبل فيها التوبة، ويتحقق فيها الإيمان؛ لأنهم اليوم في الآخرة، وزمان قبول التوبة والإيمان إنما هو الدنيا، وقد مضت أيامها، وكل ماضٍ بعيد، وكل بعيد عسير تداركه وتناوله، وكل ما ذهب لن يعود، ولهذا عبر عنه القرآن بقوله: ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾، ولقد ساغ هذا التعبير لجعل الفعل مأخوذًا كالجسم؛ ولهذا جعل الفعل وهو الزمان كظرف الجسم وهو المكان، ويقصد بذلك ما مضىٰ من الدنيا، وقد ذهبت الدنيا فطارت منهم بمكان بعيد، قال ابن حبان: «مثَّل حالهم بحال من يريد أن يتناول الشيء من بُعْد، كما يتناوله الآخر من قُرْب»[1].

الجملة الثانية: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾.

هذه الجملة توضح العلة التي من أجلها لم يقبل اللَّه تعالىٰ توبتهم وإيمانهم الذي أعلنوه عند بعثهم؛ فقد أبانت أن السبب في ذلك كفرهم باللَّه ورسوله، وبما أنزل عليه من القرآن في الدنيا، وأنه لا بعث ولا حساب، ولا جنة ولانار، يقولون ذلك رميًا بالغيب دون سند أو دليل، قال القرطبي: والعرب تقول لكل من تكلم بما لا يعرف هو يقذف ويرجم بالغيب، علىٰ جهة التمثيل لمن يرمي ولا يُصيب»[2]، وهذه الآية بالإضافة إلىٰ ما سبق بيانه تفيد استحالة قبول إيمانهم.

الجملة الثالثة: قوله تعالىٰ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾.

هذه الآية زادتهم ألمًا علىٰ ألمهم، حيث أوضحت أن ما أعلنوه من إيمان، وما

(١) «البحر المحيط»: ٧/٢٩٣.
(٢) «البحر المحيط»: ٧/٢٩٣.

أرادوه من نجاة، لن يحصلوا عليه أبدًا لأنه حيل بينهم وبين قبول إيمانهم، كما حيل بينهم وبين ما يشتهون من نجاة، كما أوضحت الآية أن هذا العقاب، وهذا الإجراء الإلهي ليس خاصًا بهم، وإنما هي قوانين اللَّه العامة، سارية المفعول علىٰ الجميع دون استثناء، أو رعاية لخصوصيات، والدليل علىٰ ذلك ما ذُيلت به هذه الآية، وهو قوله تعالىٰ: ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ**﴾.

أي كانوا في الدنيا في شك وارتياب من أمر الحساب والعذاب، وقوله ﴿**مُّرِيبٍ**﴾ من باب التأكيد كقولهم عجبٌ عجيب.

وهذه الجملة إخبار من اللَّه تعالىٰ بأنه عامل أشباههم هذه المعاملة، هؤلاء الأشباه هم الذين شكوا في دلائل التوحيد، وأنكروا الرسالات في دنياهم، بل حاربوها، وهزأوا بها، فلما دنت آجالهم، وحان وقت فراقهم، أعلنوا إيمانهم الذي اضطروا إليه اضطرارًا، كما وقع لفرعون موسىٰ، الذي قال حينما أدركه الغرق ﴿**آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾ [يونس: ٩٠].

فكما رد اللَّه علىٰ فرعون إيمانه في حال الاحتضار لكفره السابق في حال الصحة والاستقرار، كذلك هنا في هذه الآية، رد اللَّه إيمان من أعلنه عند الفزع الأكبر وهو يوم البعث، ويوم الحشر بعد خروج الخلق من القبر.

❑ ★ ❑ ★ ❑

الآية الرابعة

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ۝٢٠ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [الصافات: ٢٠، ٢١].

نظرات في التفسير:

ابتدأت سورة الصافات بما يدعم قضية التوحيد، ثم عرجت علىٰ ما يدل علىٰ وقوع البعث، وأحوال يوم القيامة، وذكرت له حالتين اثنتين:

١ـ حال بدايته. ٢ـ حال الكفرة فيه.

١ـ أما حال بدايته فيشير إليها قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الصافات: ١٩].

أي وما هي إلا صيحة واحدة ينفخ فيها إسرافيل في الصور للقيام من القبور، فإذا هم قيام في أرض المحشر ينظر بعضهم إلىٰ بعض. قال القرطبي: الزجرة: الصيحة وهي النفخة الثانية، وسُميت زجرة لأن صوتها الزجر، كزجر الإبل والخيل عند السوق[1].

٢ـ وأما حال الكفرة فيه: فيشير إليها قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ أخبر تعالىٰ عن حسرتهم وندامتهم عند معاينتهم أهوال القيامة فقال: أي يا هلاكنا وخسارتنا هذا هو يوم الجزاء والحساب!! فتقول لهم الملائكة علىٰ سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ أي هذا يوم الفصل بين الخلائق الذي كنتم تُنكرون وتُكذِّبون به. قال البيضاوي: الفَصْل: القضاء والتفريق بين المحسن والمسيء[2].

---

(١) «تفسير القرطبي»: ٥/ ٧٢.

(٢) «تفسير البيضاوي»: ٢/ ١٣٨.

فالحالة الأولىٰ: تشير إلىٰ البعث؛ إذ الفاء هنا واقعة في جواب شرط مقدّر، والتقدير هكذا؛ إذا كان الأمر كذلك من بعثنا وآبائنا بعد أن كنا ترابًا وعظامًا فما هذا البعث؟ وما علاماته وأماراته؟

فأجيبوا بأن هذا البعث الذي وُعدتموه إنما هو يبدأ بصيحة قوية، وزجرة تزجر الأموات، فيهبوا من رقادهم، وتزجرهم أن يعودوا إلىٰ القبور مرة ثانية، وهذه الزجرة يوضحها قول اللَّه تعالىٰ: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

فتُبعث الخلائق من قبورها، ناظرة إلىٰ ما يئول إليه أمرها، وإلىٰ أهوال ذلك اليوم الذي أنكروه في حياتهم، كما ينظر بعضهم بعضًا.

والحالة الثانية: هي مقالة الخارجين من قبورهم: ﴿يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الصافات: ٢٠]، يتفوهون بهذه العبارات عقب خروجهم من قبورهم.

والويل كلمة يقولها القائل وقت الهلكة التي تنزل به.

فهؤلاء المنكرون للبعث في الدنيا حينما يشاهدون أهوال القيامة بعد خروجهم من القبور، وبروزهم منها يقولون: يا هلاكنا، ويا خسارتنا؛ فهذا اليوم الذي كذبنا بوقوعه ها هو نراه ماثلاً أمام أعيننا، وسيدركنا الهلاك فيه، لأنه يوم الحساب والجزاء الأوفىٰ، فكم من محسن لم يكافأ في الدنيا علىٰ إحسانه، وكم من مسيء في الدنيا لم يُعاقب علىٰ معاصيه، أما وقد آل أمرنا إلىٰ هذا اليوم؛ فالهلاك كل الهلاك لنا.

وزيادة في النكاية والتنكيل، والإيلام النفسي والاستهزاء بهم، يأمر اللَّه تعالىٰ ملائكته لتقول لهؤلاء الكفرة: هذا هو اليوم الذي تتميز فيه الأمور، ويُفصل فيه بين المُحسن والمُسيء، وقد كنتم من قبل في الدنيا، تُكذبون به، وتنكرونه مستبعدين وقوعه وحدوثه، كما يأمر اللَّه تعالىٰ ملائكته بسوق هؤلاء الكفرة الظلمة إلىٰ مواقف الحساب.

فهذه الآية وإن لم يصرح فيها بالدعاء، غير أنها لا تخلو منه، خصوصًا إذا ضممنا إليها الآيات التي بعدها، ابتداء من قوله تعالىٰ: ﴿ **وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ** ﴾إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ **فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ** ﴾ [الصافات: ٢٧ - ٣٣]، فدل ذلك علىٰ ما نزل بهؤلاء الكفرة من ألم وهم وغم، لأنهم وقفوا علىٰ حقيقة أمرهم ، وتأكدوا أنهم هالكون لا محالة، فدفعهم هذا التهلع إلىٰ التنابذ والتلاوم والتخاصم والتنازع.

وهذا كله دليل علىٰ أنهم لو علموا أن اللَّه تعالىٰ سيتقبل توبتهم إذًا لأعلنوها، ولأسرعوا إليها، ولو علموا منه تعالىٰ استجابة رغبتهم في العودة إلىٰ الدنيا، لحبوا إليها طالبين وقائلين: ﴿ **رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ** ﴾ [فاطر: ٣٧].

وكأنهم بنداداتهم الهلكة ينطقون بلسان حالهم قائلين: لو رجعنا إلىٰ الدنيا لأطعنا ولما عصينا»، وهذا هو الدعاء بذاته وحقيقته، ولما كان الموت والبعث حائلان بين الإنسان ورجوعه إلىٰ الدنيا، وبداية حياة جديدة لا عمل فيها، وإنما الحساب والجزاء، لذا رد اللَّه علىٰ هؤلاء لومهم وحيرتهم وتخاصمهم، بقوله تعالىٰ: ﴿ **فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ** ﴾ [الصافات: ٣٣].

لأن وقت الحسرة والندم قد فات، كما أن وقت قبول التوبة والعودة إلىٰ الدنيا قد ولىٰ الأدبار دون رجعه. أهـ.



الآية الخامسة

قال الله تعالىٰ: ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [الزمر: ٥٥-٥٩].

نظرات في التفسير:

تتصل هذه الآيات بقول الله تعالىٰ: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣] يأمر الله تعالىٰ نبيه محمد ﷺ أن ينهىٰ أُمته عن اليأس، وأن لا يجعلوا له طريقًا إلىٰ قلوبهم، خصوصًا من أسرف منهم في المعاصي، معللاً ذلك النهي بصفتي الغُفران والرحمة المختصان بالله تعالىٰ، قال ابن كثير: هي دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلىٰ التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله تعالىٰ يغفر الذنوب جميعًا لمن تاب منها، ورجع عنها مهما كثرت، وقد تكون هذه المغفرة متوقفة علىٰ التوبة والإنابة إلىٰ الله، فقال الله تعالىٰ: ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ ﴾ [الزمر: ٥٤]: أي ارجعوا إلىٰ الله تعالىٰ، واستسلموا له بالطاعة والخضوع والعمل الصالح من قبل حلول نقمته تعالىٰ بكم، ثم لا تجدون من يمنعكم من عذابه.

ثم أمر الله تعالىٰ باعتناق الإسلام واتباع القرآن، فقال تعالىٰ: ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ : أي اتبعوا القرآن العظيم، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، والزموه وعَضُّوا عليه بالنواجذ، فهو أحسن كتاب للوحي أنزله الله إليكم، فيه سعادتكم وفلاحكم في الدنيا والآخرة، قبل أن

ينزل بكم العذاب فجاة وأنتم غافلون، لا تدرون بمجيئه حتي تتداركوا وتتأهبوا قبل وقوعه.

بعد هذا النهي والأمر والتخويف بالعذاب المباغت لهم دون شعورهم به حكىٰ اللَّه تعالىٰ عن هؤلاء المسرفين في معاصيهم، المنحرفين عن طريق اللَّه قولهم عند معاينتهم العذاب الذي يحيق بهم يوم القيامة جزاء ما اقترفوا من سيئات.

أ) حكىٰ قولهم الأول: ﴿ **أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ** ﴾، نزل هذا القول منزلة المفعول لأجله للآية السابقة؛ إذ التقدير ﴿ **وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ** ﴾ كراهة أن تقول نفس عاصية عند معاينتها العذاب المستحقة له ﴿ **يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ** ﴾، فهذا التعبير يُنْبِئُ عن تمام الحزن، وغاية الأسف، ونهاية الألم، كما يُنْبِئُ أيضًا عن الأسباب التي أدت إلىٰ هذه الحسرة، وهي التي ذكرها في جملتين: الأولىٰ: ﴿ **مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ** ﴾، الثانية: ﴿ **وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ** ﴾.

ففي الأولىٰ يبين سبب حسرته: وهو أنه ارتكب المعاصي والسيئات، وكان مفرطًا في طاعة اللَّه، ولعل هذا هو الأرجح في تفسير الجنب[1]، وجانب الشيء هو طرفه، وما سمي جانب الشيء جنبًا إلا لكونه جانبًا من جوانب ذلك الشيء، والشيء الذي يكون من لوازم الشيء وتوابعه يكون كأنه جند من جنوده، وجانب من جوانبه، فلما حصلت هذه المشابهة بين الجنب ـ الذي هو العضو ـ وبين ما يكون لازمًا للشيء وتابعًا

---

(١) للمفسرين في لفظ جنب اللَّه تعالىٰ عبارات بتفسيرات، أهمها ما يلي:

١ ـ قال ابن عباس: يريد ضيعت من ثواب اللَّه. ٢ ـ قال مقاتل: يريد ضيعت من ذكر اللَّه.

٣ ـ قال مجاهد: في أمر اللَّه. ٤ ـ قال الحسن: في طاعة اللَّه.

٥ ـ قال سعيد بن جبير: في حق اللَّه.

وانظر تفسير القرطبي: ١٥ / ٢٧١، «تفسير ابن كثير»: ٣ / ٢٢٧، و«حاشية الصاوي علىٰ الجلالين»: ٣ / ٣٧٧.

له لا جرم حَسُنَ إطلاق لفظ الجنب علىٰ الحق والأمر والطاعة، يدعم ذلك قول الشاعر:

أما تتقين اللَّــه في جنــب وامــق   لــه كبــد حــرىٰ عليــك تقطــع

وفي الثانية تعترف تلك النفس المتحسرة العاصية أنها ضمت معصية ثانية إلىٰ معصيتها الأولىٰ، ألا وهي الاستهزاء والسخرية بالرسالة المحمدية وصاحبها، والمؤمنين بها، ولقد قال قتادة في شأن هذا الصنف من الناس: لم يكفه أن ضيع طاعة اللَّه حتىٰ سخر من أهلها.

ب) أما قولهم الثاني: ﴿**لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**﴾.

تتعلل تلكم النفس العاصية يوم القيامة بفقدان الهداية، رائية أن اللَّه تعالىٰ لم يوفقها إليها؛ إذ لو وفقها إليها لكانت في زمرة المتقين، المستحقين للثواب، وكأنها تقول لو أن اللَّه كتب لي الهداية لكنت كذلك.

جـ) أما قولهم الثالث: ﴿**لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾.

هذه المقالة توحي بزيادة علىٰ سابقتها، وهذه الزيادة هي استشعارهم بقرب العذاب: أي أن العذاب وشيك الوقوع، وأنه قريب منها، يدعم ذلك صدر هذه الآية ألا وهو: ﴿**أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ**﴾.

فتلكم النفس المتحسرة العاصية حينما ترىٰ العذاب منها قريبًا ترفع أكف الضراعة طالبة من اللَّه تعالىٰ أن يعيدها إلىٰ الدنيا لتستدرك ما فاتها من خير وطاعة، ولتُحسن إلىٰ نفسها وبني جنسها؛ فتُعلن التوبة، وتُقلع عن المعصية، وتلتزم طاعة اللَّه، وتجتنب نواهيه.

فهذا المقصر في جنب اللَّه وطاعته يعلن حسرته علىٰ تفريطه في طاعة اللَّه وأوامره، معللاً ذلك بفقدان الهداية الإلهية، متمنيًا الرجعة إلىٰ الدنيا للإحسان وفعل الطاعات.

و﴿أَوْ﴾ هنا بمعنىٰ الواو، ولما كان هذا الصنف من الخلق صادقًا في قوله الأول والثالث لم تتعرض الآيات التاليات لهما لا سلبًا ولا إيجابًا، ولا تصديقًا ولا تكذيبًا.

أما قولهم الثاني وهو: ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.

فقد تعرضت له هذه الآيات التاليات لأنهم ما صدقوا فيه، حيث نفوا هداية اللَّه تعالىٰ لهم لأن ﴿لَوْ﴾ بمعنىٰ النفي، وهم في ذلك قد كذبوا علىٰ اللَّه؛ لأن هدايته تعالىٰ للبشر هي أصل الأدلة المرشدة إلىٰ طريقه تعالىٰ، وقد فعل جل في علاه بالعباد كل ما يوصلهم إلىٰ أسباب سعادتهم، ولذلك جاء الجواب بـ﴿بَلَىٰ﴾ لأنها لازمة لجواب النفي، والمقام يقتضيه لأن ﴿لَوْ﴾ كما سبق أن ذكرنا ضمنت معنىٰ النفي، وعليه يكون التقدير «ما هداني اللَّه»؛ لأنه لو هداني لكنت من المتقين.

فرد اللَّه تعالىٰ علىٰ قولهم الثاني هذا بقوله: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، ولم يرد جل شأنه علىٰ قولهم الأول؛ لأن حسرتهم واقعة لا محالة، ولا دافع لها.

كما لم يرد جل شأنه علىٰ قولهم الثالث المقيد لتمنيهم العودة لاستحالة وقوعها، ولأن وقوع يوم القيامة مانع من العودة إلىٰ الحياة الدنيا، ولأنه لو تحققت لهم أمنيتهم لكانوا علىٰ الوضع الذي كانوا عليه، قال الصاوي: إن الكافر أولاً يتحسر، ثم يحتج بحجج واهية، ثم يتمنىٰ الرجوع إلىٰ الدنيا[1] ولو رد لعاد إلىٰ ضلاله كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

ويمكن للباحث في القضاء والقدر الاستدلال بهذه الآيات علىٰ صحة وقوعها ومن ثم نذكر لك ما قاله المفسرون في هذا المقام إتمامًا للفائدة؛ فقد ذكروا أن هذه الآيات دالة علىٰ صحة القول بالقضاء والقدر، وعدُّوا في ذلك اثني عشر وجهًا هي ما يلي:

(١) «حاشية الصاوي علىٰ الجلالين»: ٣/ ٣٧٧.

الوجه الأول: لا يقال فلان أسرف علىٰ نفسه إلا لما يكون من قبله؛ وذلك يدل علىٰ أن أفعال العباد تحصل من قبلهم لا من قِبَل اللَّه تعالىٰ.

الوجه الثاني: أن طلب الغفران، والرجاء في ذلك، أو اليأس لا يحسن إلا إذا كان الفعل فعل العبيد.

الوجه الثالث: إضافة الإنابة والإسلام إليه من قبل أن يأتيه العذاب؛ وذلك لا يكون إلا مع تمكنه من محاولتهما قبل نزول العذاب «ومذهبهم أن الكافر لم يتمكن قط من ذلك».

الوجه الرابع: قوله تعالىٰ: ﴿**وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم**﴾؛ وذلك لا يتم إلا بما هو المختار للإتباع.

الوجه الخامس: ذَمٌّ لهم علىٰ أنهم لا يشعرون بما يوجب العذاب، وذلك لا يصح إلا مع التمكن من الفعل.

الوجه السادس: قولهم ﴿**يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ**﴾، ولا يتحسر المرء علىٰ أمر سبق منه إلا وكان يصح منه أن يفعله.

الوجه السابع: قوله تعالىٰ: ﴿**عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ**﴾، ومن لا يقدر علىٰ الإيمان ـ كما يقول القوم ـ ولا يكون الإيمان من فعله لا يكون مفرطًا.

الوجه الثامن: ذم اللَّه لهم بأنهم من الساخرين؛ وذلك لا يتم إلا أن تكون السخرية فعلهم، وكان يصح منهم أن لا يفعلوه.

الوجه التاسع: قوله تعالىٰ: ﴿**لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي**﴾: أي مكنني لكنت من المتقين، وعلىٰ قولهم إذا لم يقدر علىٰ التقوىٰ؛ فكيف يصح ذلك منه؟!

الوجه العاشر: قوله تعالىٰ: ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، وعلىٰ قولهم لو ردَّه اللَّه أبدًا، كرةً بعد كرةٍ، وليس فيه إلا قدرة الكفر لم يصح أن يكون محسنًا.

الوجه الحادي عشر: قوله تعالىٰ موبخًا لهم: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾؛ فبين اللَّه تعالىٰ أن الحُجة عليهم للَّه، لا أن الحجة لهم علىٰ اللَّه، ولو أن الأمر كما قالوا لكان لهم أن يقولوا قد جائتنا الآيات ولكنك خلقت فينا التكذيب بها، ولم تقدرنا علىٰ التصديق بها.

الوجه الثاني عشر: أنه تعالىٰ وصفهم بالتكذيب والاستكبار والكفر علىٰ جهة الذم، ولو لم تكن هذه الأشياء أفعالاً لهم لما صح هذا الكلام. اهـ.

❑ ★ ❑ ★ ❑

الآية السادسة

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٨، ٣٩].

التفسير:

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا﴾: أي حتىٰ إذا جاء الكافر مع قرينه وقد رُبط بسلسلة واحدة ﴿قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ أي قال الكافر لقرينه: ياليت بيني وبينك مثل بُعد ما بين المشرق والمغرب.

قال الطبري: وهذا من باب التغليب كما يُقال: القمران، والعمران، والأبوان، فغلب ههنا المشرق علىٰ المغرب[1] ﴿فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ أي فبئس الصاحب أنت؛ لأنك كنت سببًا في شقائي بتزيينك الباطل لي، قال أبو سعيد الخدري: إذا بُعث الكافر زُوج بقرينه من الشياطين، فلا يفارقه حتىٰ يصيريه إلىٰ النار ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ :أي ولن ينفعكم ويفيدكم اشتراككم في العذاب، ولن يخفف ذلك عنكم شيئًا بسبب ظُلمكم، فإن لكل واحد نصيبه الأوفر منه. قال في التسهيل: المراد أنه لا ينفعهم اشتراكهم في العذاب، ولا يجدون راحة التأسي التي يجدها المكروب في الدنيا إذا رأىٰ غيره قد أصابه مثل ما أصابه؛ لأن المصيبة إذا عمت هانت، فدفع تعالىٰ ذلك التوهم بأن اشتراكهم في العذاب لا يخفف عنهم البلاء[2].

نظرات في التفسير:

تتصل هاتان الآيتان بما قبلها اتصالاً وثيقًا ابتداءً بقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، وانتهاءً بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٧].

---

(١) «تفسير الطبري».

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل»: ٤ / ٢٩.

لقد ظن هؤلاء الكفار أن منصب النبوة لا يُنال إلا بالمال والجاه؛ لهذا اقترحوا أن يكون النبي علىٰ نسج هذين الشرطين؛ فعارضوا نبوة المصطفىٰ ﷺ، وأحبوا أن تكون في إحدىٰ المدينتين: مكة أو الطائف، وأن تكون لأحد الرجلين: «الوليد بن المغيرة» في مكة، أو «عروة بن مسعود الثقفي» في الطائف، وفاتهم أن العظيم هو الذي يكون عند اللَّه تعالىٰ عظيمًا، وهم يعتبرون مقياس العظمة: الجاه والمال، وهذا رأي الجاهلين في كل زمان ومكان، أما مقياس العظمة الحقيقية عند اللَّه تعالىٰ، وعند العقلاء فإنما هو عظمة النفس، وسمو الروح، ومن أعظم نفسًا، وأسمىٰ روحًا من محمد بن عبد اللَّه ﷺ ؟!.

ولكن الآيات تهكمت باقتراحهم؛ إذ كيف يُستساغ فهمه، ويتأتىٰ وقوعه مع العلم بأن ما هو دون النبوة بكثير - كمعيشتهم في الدنيا - لم يكل اللَّه أمرها إليهم، ولا توقفت المشيئة الإلهية علىٰ اقتراحاتهم، بل قسم اللَّه تعالىٰ بينهم معيشتهم في الدنيا، ورفع بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضًا سُخريًا.

قال في التسهيل: كما قسمنا المعايش في الدنيا كذلك قسمنا المواهب الدينية، وإذا كنا لم نهمل الحظوظ الحقيرة الفانية، فأولىٰ وأحرىٰ ألا تُهمل الحظوظ الشريفة الباقية[١].

وقال الصاوي: إن القصد من جعل الناس متفاوتين في الرزق، لينتفع بعضهم ببعض، ولو كانوا سواءً في جميع الأحوال لم يخدم أحدٌ أحدًا، فيفضي إلىٰ خراب العالم وفساد نظامه[٢]، وقال أبو حيان: وقوله تعالىٰ: ﴿سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢] بضم السين من التسخير بمعنىٰ الاستخدام، لا من السخرية بمعنىٰ الهُزء، والحكمة هي أن يرتفق بعضهم ببعض، ويصلوا إلىٰ منافعهم، ولو تولىٰ كل واحد جميع أشغاله بنفسه ما أطاق ذلك، وضاع وهلك، وفي قوله ﴿قَسَمْنَا﴾ [الزخرف: ٣٢] تزهيد في الإكباب علىٰ طلب الدنيا، وعون علىٰ التوكل علىٰ اللَّه[٣] وقال قتادة: تلقىٰ ضعيف القوة،

(١) «التسهيل لعلوم التنزيل»: ٤/ ٢٨.
(٢) «حاشية الصاوي»: ٤/ ٤٨.
(٣) «تفسير البحر المحيط»: ٨/ ١٣.

قليل الحيلة، عييّ اللسان، وهو موسّع عليه في الرزق، وتلقىٰ شديد الحيلة، بسيط اللسان، وهو مُقتر عليه في الرزق، وقال الشافعي رضي اللَّه عنه:

ومن الدليل علىٰ القضاء وكونه بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق(١)

ثم امتدت الآيات لبيان الحكمة من ذلك، فأوضحت أنه لولا أن يرغب الناس في الكفر، ويميلوا إليه إذا رأوا الكافر في سعة من الخير والرزق لأعطاهم اللَّه تعالىٰ أكثر الأسباب المفيدة للتنعيم، ولجعل أبواب بيوتهم وسقفها ومعارجها من فضة وذهب، وذلك لبيان حقارة الدنيا، وقلة شأنها، وفي الحديث «**لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَىٰ كَافِرًا مِنْهَا جَرْعَةَ مَاءَ**»(٢)، قال الزمخشري: فإن قلت: فحين لم يوسع علىٰ الكافرين للفتنة التي كان يؤدي إليها التوسعة عليهم، من إطباق الناس علىٰ الكفر لحبهم الدنيا، وتهالكهم عليها؛ فهلا وسع علىٰ المسلمين ليُطبق الناس علىٰ الإسلام؟ قلت: التوسعة عليهم مفسدة أيضًا لما تؤدي إليه من دخول الناس في الإسلام لأجل الدنيا، وذلك من دين المنافقين، فكانت الحكمة فيما دبر، حيث جعل الفريقين أغنياء وفقراء، وغلب الفقر علىٰ الغنىٰ(٣)، ثم نبه اللَّه تعالىٰ عن سوء حال الكافر في الدنيا والآخرة، فهو في الدنيا يُعرض عن ذكر اللَّه وهو القرآن، ويتعامىٰ عن معرفة الإسلام، ويتغافل عن طاعة اللَّه واتباع أوامره واجتناب نواهيه، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ**﴾ [النمل: ١٤]، فضم إليه شيطانًا، أصبح له قرينًا لا ينفك عن الوسوسة له والإغواء، فهو ملازم ومصاحب له لا يفارقه، يصده عن طريق الهدىٰ والرشاد، ويظن الكافر بإرشاد قرينه له أنه قد اهتدىٰ إلىٰ الرشاد، وهكذا تمتد الحياة بهذا الكافر الضال وقرينه الذي يزين له كل شر، ويبعده عن كل خير، حتىٰ إذا وافاه البعث، ووقف علىٰ حقيقة أمره، وظهر له سوء مصيره وعاقبته، تمنىٰ من اللَّه

---

(١) «البحر المحيط» السابق.

(٢) أخرجه الترمذي، وقال حسن صحيح.

(٣) «تفسير الكشاف»: ٤/ ١٩٧.

تعالىٰ أن لا يرىٰ ذلك القرين الذي أضله، لأن رؤيته له تذكره بماضيه، وتوضح له أنه كان السبب فيما هو فيه من شر وبلاء، ويود ذلك الكافر أن يبعد عن قرينه بُعدًا سحيقًا حيث لا تُدركه أبصاره ولا بصائره، كالبعد الواقع بين المشرقين، ولعله أراد من هذا التمثيل طول البعد وامتداده، وإيثاره لهذا اللفظ وذلك التعبير إما من باب التغليب، والمقصود ما بين المشرق والمغرب، وهذا من عادة العرب في تسمية الشيئين المتقابلين باسم أحدهما: كالعمرين لأبي بكر وعمر - رضي اللَّه عنهما - والعصران للغداة والعصر، والبصرتان وهما الكوفة والبصرة، والأسودان للماء والتمر.

وكقول الفرذدق:

لنا قمراهـا والنجـــوم الطوالـــع

يريد (الشمس والقمر)

أو المراد بالمشرقين مشرق الصيف ومشرق الشتاء، وبينهما بُعد عظيم.

فهذا الكافر يتمنىٰ يوم القيامة أن لا يقابل ذلك القرين الذي أضله، وأن لا يكون علىٰ مقربة منه، بل هو يرجو اللَّه تعالىٰ أن يجعل المسافة بينه وبينه كالمسافة الواقعة بين المشرق والمغرب، ثم يضيف ذلك العاصي إلىٰ تمنيه هذا ذم هذا القرين؛ لأنه الذي سبب له هذا الشقاء فيقول: بئس القرين أنت؛ فقد أفسدت عليَّ حالي في الدنيا والآخرة؛ فهذا التمني ما هو إلا دعاء يرجو اللَّه أن يحققه له، فهذا الكافر يتمنىٰ أن يباعد اللَّه بينه وبين قرينه الذي أضله في الدنيا: سواء كان من الإنس، أو من الجن، كما باعد بين المشرق والمغرب، أو لكون الشمس تتحرك من المشرق إلىٰ المغرب، والقمر علىٰ العكس من ذلك، وعلىٰ هذا فالجانب المسمىٰ بالمشرق هو مشرق الشمس، لكنه مغرب القمر، وكذا الأمر بالنسبة للجانب المسمىٰ بالمغرب فإنه مشرق القمر، لكنه مغرب الشمس، وبهذا التقدير يصح تسمية المشرق والمغرب مشرقين، ولعل هذا الوجه هو أقرب إلىٰ مطابقة اللفظ، ورعاية المقصود من سائر الوجوه.

يقول أهل النجوم: إن الحركة التي تكون من المشرق إلىٰ المغرب هي حركة الفلك الأعظم، والحركة التي هي من المغرب إلىٰ المشرق هي حركة الكواكب الثابتة، وحركة الأفلاك الممثلة التي للسيارات سوىٰ القمر.

وإذا كان الأمر كذلك فالمشرق والمغرب كل واحد منهما مشرق بالنسبة إلىٰ شيء آخر، فثبت أن لفظ المشرق علىٰ كل واحد من الجهتين حقيقة.

فهل استجاب اللَّه له تمنيه هذا؟

كلا: لم يجبه اللَّه تعالىٰ إلىٰ ذلك، بدليل قوله تعالىٰ: ﴿**وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ**﴾ تمثل هذه الآية قمة التهكم والسخرية بذلك الكافر الضال؛ لأنها خالية عن كل ما يُشعر بكرامته، وكأنها تقول: إن كنتما في الدنيا قد شعرتما فيها بلون من ألوان السعادة، وتبادل المسرات والمنافع عند اقترانكما، ففي الآخرة علىٰ العكس من ذلك فاقترانكما في الآخرة ليس علىٰ هذا النمط، ولا علىٰ هذه الصورة التي ألفتموها في دنياكم؛ فلا يسري أحدكما عن الآخر، كما أنه لا يخفف هذا الاقتران العذاب، ولا يكون أيضًا مدعاة للسلوىٰ قياسًا علىٰ الحياة التي عشتموها في الدنيا؛ حيث كان اقترانكما مجلبة للخير الفاني، والشر الباقي؛ لأن اللسان البشري جرىٰ علىٰ القول السائر:

المصيبة إذا عمت خفت أو هانت.

وقول الخنساء في هذا المعنىٰ:

ولولا كثرة الباكين حولي ... علىٰ إخوانهم لقتلت نفسي

ولا يبكون مثل أخي ولكن ... أُعزي النفس عنه بالتأسي

فيبين اللَّه تعالىٰ بهذه الآية أن حصول المشاركة في العذاب يوم القيامة لا يفيد تخفيفه، كما كانت المشاركة تفيد تخفيف المصائب في الدنيا.

ولعل السبب في ذلك يأتي من عدة وجوه:

١ـ لكون ما يصيب كلاً منهما يوم القيامة من العذاب الشديد قد أذهله وأنساه قرينه؛ فلا جرم فالشركة لا تفيد الخفة ولا التخفيف حينئذ.

٢ـ أن ما تشعر به الجماعات الإنسانية من الرغبة المُلِحَّة في بذل التعاون فيما بينها إذا حلَّ بها بلاء في الدنيا لا يُتصور تأتيه منهم يوم القيامة؛ لهول الموقف، وشدة العذاب.

٣ـ كون الشيطان قرين من دفعه إلىٰ المعصية يوم القيامة، لا يسبب هذا القرين له السلوىٰ، وخِفَّة العقوبة، وذلك علىٰ عكس ما قد يكون في الدنيا؛ إذ أصحاب المصيبة يسأل بعضهم بعضًا.

وعلىٰ ضوء هذا يتضح أن ﴿أَنَّكُمْ﴾ في محل رفع علىٰ الفاعلية والتقدير: لن ينفعكم اليوم كونكم مشتركين في العذاب كما هو الحال في الدنيا.

والمقصود من هذا كله تحقير الدنيا، وبيان ما في المال والجاه من المضار العظيمة؛ وذلك لأن كثرتهما تجعل الإنسان كالأعشىٰ المتعامي عن مطالعة ذكر اللَّه تعالىٰ، ومن صار كذلك صار جليسًا للشيطان، ومن صار جليسًا للشيطان ضل عن سبيل الحق والهدىٰ في الدنيا والآخرة؛ حيث يكون ذلك الشيطان قرين الأعشىٰ في الآخرة أيضًا، حتىٰ يقول ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾.

فقد روي أن الكافر إذا بُعث يوم القيامة من قبره أخذ شيطانه بيده فلم يفارقه حتىٰ يصيِّرهما اللَّه إلىٰ النار، عندئذ يقول الكافر يا ليت بيني وبينك بُعدًا علىٰ أعظم الوجوه.

فثبت بهذا أن كثرة المال والجاه توجب كمال النقصان والحرمان في الدين والدنيا، وإذا كان في ذلك قد اتضح فقد بان فساد قول القائلين من الكفرة الطغاة: ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] لقد كان كلامًا فاسدًا، وشُبهةً باطلة.

الآية السابعة

قال اللَّه تعالىٰ : ﴿ إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴾ [النبأ : ٤٠] .

التفسير:

الخطاب لكفار قريش المُنكرين للبعث : أي إنا حذرناكم عذابًا قريبًا وقوعه هو عذاب الآخرة، سمّاه قريبًا، لأن كل آت قريب : أي يوم يرىٰ كل إنسان ما قدم من خير أو شر مُثبتًا في صحيفته كقوله تعالىٰ : ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩]، ﴿ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴾ أي ويتمنىٰ الكافر أنه لم يُخلق، ولم يُكلف، ويقول : يا ليتني كنت ترابًا حتىٰ لا أحاسب ولا أعاقب . قال المفسرون : وذلك حين يحشر اللَّه الحيوانات يوم القيامة فيقتص للجماء من القرناء، وبعد ذلك يُصيرها ترابًا، فيتمنىٰ الكافر لو كان كذلك حتي لا يُعذب .

نظرات في التفسير:

اشتملت سورة النبأ علىٰ عدة مواقف من مشاهد يوم القيامة حتىٰ أصبح متسنيًا للمطلع عليها أن يسميها بذلك، ولعل هذا هو الذي حمل بعض المفسرين علىٰ تسميتها بيوم القيامة قائلين : إن المقصود من النبأ هو يوم القيامة، لا المصطفىٰ، ولا القرآن الكريم؛ لذلك ابتدئت بالتعجب من السائلين عن هذا اليوم، مع العلم أن شواهده ظاهرة بين أيديهم، وذلك ابتداء من قوله تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا ﴾ [النبأ: ٦]، ولعل الهدف من ذلك تخويف الخلق وحملهم علىٰ الطاعة، كما أن هذه الآيات مهدت للإنذار الوارد في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ هذا العذاب الذي سيقع في اليوم الذي ترقبه البشر، ويترقب فيه كل امرئ ثمرة جهده، من أجل هذا كانت عمومية المرء أولىٰ وأرجح من تخصيصها بالكافر، أو المؤمن العاصي، لأن من يرد يوم القيامة لا ينتظر إلا أحد أمرين : الثواب، أو العقاب .

وإن كـان بعض المفسرين والعلماء رجَّحوا أن يكون المراد من المرء هو المؤمن، مستدلين بمقابلته لقوله تعالي : ﴿ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴾ .

فهذه الآية ابتدأت بالإنذار، وثنَّت بترقب ما قدَّمت يداه، وختمت برغبة الكافر أن يكون ترابًا في هذا اليوم، ولعل الختم بهذه الصورة اقتضاه المقام: ألا وهو مقام الإنذار والتخويف؛ ولأنه بدوره مستتبع لبيان صور الخارجين عن طاعة اللَّه، وكيف يتصرفون في هذا اليوم؟ وبم ينطقون؟ وعم يتساءلون؟ وفيم يرغبون؟ لقد أوضح عجز هذه الآية رغبة الكافرين وتمنيهم أن يكونوا ترابًا في هذا اليوم.

ولكن تتساءل النفس البشرية عن عِلَّة هذا التمني وما الوجه من قصده دون غيره، ولماذا لم يتمن هذا الكافر العفو عنه، أو الغفران له، أو الرجعة إلىٰ الدنيا، أو دخول الجنة؟

ولعلنا نجد أن الرد علىٰ هذا سهل ميسور بعون اللَّه،خصوصًا إذا عرفنا أن القرآن قد ذكر عدة صور لمثل هذه التمنيات الصادرة من الكفرة يوم القيامة . . .

وهذه الآية الكريمة تمثل صورة من هذه الأمنيات؛ فهي ليست وحيدة ولا فريدة، بل هي صورة من مجموعة الصور التي أفصحت عما يكون عليه المرء ـ كافرًا أو مسلمًا ـ يوم القيامة من ارتباك واضطراب، حتىٰ إنهم ليتمنون أحيانًا مستحيلات لا يستسيغ العقل قبولها ، ولا يؤمن بوقوعها ، غير أن هذا لا يعفينا من تبيان الأسباب التي دفعت ذلك الكافر أن يطلب تحقيق تمنِّيه هذا؛ لهذا أُوردُ ما ذهب إليه بعض المفسرين في الأسباب التي حملت هذا الكافر علىٰ تمنِّيه هذا:

الرأي الأول: ذهب البعض إلىٰ القول إن القصد من تمنيه هذا كونه غير حي ولا مكلف؛ لأنه لن يتوقع العفو عن إشراكه؛ لقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾ [النساء: ٤٨] الآية.

الرأي الثاني: وذهب البعض الآخر إلىٰ أن قصد الكافر أن يبقىٰ علىٰ الحالة التي كان عليها قبل البعث، وهي الحالة الترابية: يبقىٰ ترابًا كما كان في قبره.

يؤيد هذا قوله تعالىٰ: ﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ [الحاقة: ٢٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢].

الرأي الثالث: وذهب فريق ثالث إلىٰ القول: إن السبب في اختيار الكافر هذا هو مشاهدته البهائم في صيرورتها ترابًا؛ لأن البهائم تحشر يوم القيامة فيقتص للجماء من القرناء، ثم يقال لها بعد المحاسبة كوني ترابًا، فعندئذ يتمنىٰ الكافر أن يكون مثلها تخلصًا من عذاب هذا اليوم وشدائده.

الرأي الرابع: وهو مذهب المتصوفة الذين لا يفسرون هذا المقطع من هذه الآية علىٰ ما يحتمله ظاهر لفظها، بل يقولون: إن مقصود ذلك الكافر أن يكون متواضعًا في حياته الدنيا، وكأنه يقول يا ليتني كنت متواضعًا في طاعة اللَّه، ولم أكن متكبرًا متمردًا.

الرأي الخامس: يقول أصحاب هذا الرأي أن المراد من الكافر في الآية هو إبليس؛ فهو يتمني حينما يرىٰ النعيم الذي يحظىٰ به آدم وأولاده في الجنة أن يكون ذلك الشيء الحقير الذي امتهنه عندما أُمر بالسجود لآدم قائلاً: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

حكىٰ القرآن الكريم تمنِّي هذا الكافر، دون الجواب عليه؛ فلماذا؟!

لعل الحكمة من ذلك أن اللَّه اعتبر تمنيه هذا من باب السفه؛ حيث إنه مُكِّن من العمل الصالح في الدنيا فعزف عنه، بل حارب القيم الأخلاقية؛ فهو حينما يطلب تحقيق رغبته إنما يطلبه للهروب من واقع حاله السيئ الذي أحاط به، وهذا ما جنته يداه؛ لهذا لم يجبه اللَّه تعالىٰ لطلبه تحقيرًا لشأنه، واستخفافًا بشخصه، وزجرًا لمن تسول لهم أنفسهم سلوك طريقه، واقتفاء أثره.

ولإخبار الخلق أيضًا بأن الحياتين تسيران علىٰ نواميس قد أرادها اللَّه، ووضع لها الأسباب لتؤدي دورها؛ فالحياة الآخرة لا قبول لرجاء الكافرين فيها، ولا تحقيق لطلباتهم أو بعضها؛ لأن الآخرة جزاء وثواب وعقاب، وليست دار عمل، أو تحقيق رغبات، خصوصًا للعصاة الكفرة المذنبين.

ما يمكن استنتاجه من الفوائد في الأدعية الواردة من الخلق عند البعث

١ـ طلب الظالمين الرجعة إلىٰ الدنيا لإجابة دعوة اللَّه واتباع الرسل.

٢ـ يعض الظالم بنان الندم لعدم اتخاذه مع الرسول طريق الهداية.

٣ـ رفض توبة التائبين يوم البعث؛ لأن زمنه ليس معدًا لذلك، بل للحساب والجزاء.

٤ـ من شدة ما يلقاه الكافر يوم البعث ينادي هلاكه بنفسه؛ وذلك لإحاطته به من كل جانب.

٥ـ تتحسر النفوس الكافرة الظالمة يوم البعث لتفريطها في دين اللَّه، واستهزائها بالمؤمنين في الدنيا.

٦ـ تبرؤ الكافر من قرين السوء، وكراهية لقائه بسبب ما أورده إلىٰ الهلاك.

٧ـ تمني الكافر أن لم يكن شيئًا مذكورًا، أو ترابًا كسائر العجماوات.

❑ ★ ❑ ★ ❑

الفصل الثالث: آيات الدعاء وفوائدها عند الحشر والحساب

الأدعية الصادرة من الخلق عند الحشر

تقديم

ما المقصود بـ"الحشر"؟

الحشر هو سَوْق العباد بعد البعث من القبور إلى مواقف الحساب.

وفي خلال هذا يكثر اعترافهم بذنوبهم، وإعلان إيمانهم وتوبتهم، واعتذارهم وتأسفهم، وتشتد بينهم الخصومة والجدال، والتوبيخ والتقريع، والتأنيب والتساؤل، حتى يتم حسابهم، ويجدوا أنفسهم قد ضُرب بينهم وبين المتجهين إلى الجنة بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب.

والآيات الواردة في هذا المقام تكاد تكون محصورة في سور: الأنعام والسجدة والصافات والقصص وغافر.

❏ ★ ❏ ★ ❏

الآية الأولى

إنكارهم الإشراك وتكذيبهم لما نسب إليهم

قال الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٢ - ٢٤].

التفسير:

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾: أي اذكر يا محمد لأهل مكة يوم نحشرهم جميعًا للحساب، ونقول لهم على رءوس الأشهاد ﴿ أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾: أي أين آلهتكم التي جعلتموها شركاء لله؟ قال البيضاوي: والمراد من الاستفهام التوبيخ و﴿ تَزْعُمُونَ ﴾: أي تزعمونهم آلهة وشركاء مع الله فحذف المفعولان، ولعله يُحال بينهم وبين آلهتهم حينئذ ليفقدوها في الساعة التي علقوا بها الرجاء فيها[1]، قال ابن عباس: كل زعم في القرآن فهو كذب[2] ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ ﴾: أي لم يكن جوابهم حين اختُبروا بهذا السؤال ورأوا الحقائق ﴿ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾: أي أقسموا كاذبين بقولهم والله يا ربنا ما كنا مشركين. قال القرطبي: تبرؤوا من الشرك، وانتفوا منه لما رؤوا من تجاوزه ومغفرته للمؤمنين. قال ابن عباس: يغفر الله لأهل الإخلاص ذنوبهم، فإذا رأى المشركون ذلك قالوا تعالوا نقول: إنا كنا أهل ذنوب ولم نكن مشركين، فيختم على أفواههم، وتنطق أيديهم، وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون[3] ﴿ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ﴾: أي انظر يا محمد كيف كذبوا على أنفسهم بنفي الإشراك عنها أمام علام الغيوب، وهذا للتعجب من كذبهم الصريح ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾: أي تلاشى وبطل ما كانوا يظنونه من شفاعة آلهتهم، وغاب عنهم ما كانوا يفترونه على الله من الشركاء.

(١) «البيضاوي» ص١٦٩.
(٢، ٣) «القرطبي»: ٦/٤٠١.

صلة الآيات بما قبلها:

للآيات اتصال وثيق بالآيتين قبلهما.

الآية الأولى:

ضمير الغائبين في الآية إلى المعنيين في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ [الأنعام: ٢٠].

يحكي القرآن الكريم في هذه الآية أن أهل الكتاب يعرفون الإسلام ونبي الإسلام عليه الصلاة والسلام كما يعرفون أبناءهم الذين من أصلابهم دون شك أو التباس، يعرفون ذلك عن طريق الكتب التي نزلت عليهم وهي التوراة والإنجيل، قال الزمخشري: وهذا استشهاد لأهل مكة بمعرفة أهل الكتاب وبصحة نبوته ﷺ[1] ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٢٠]، غير أنهم مع وضوح الآيات وظهور هذه المعرفة جليًا إلا أنهم أنكروا وعاندوا، ولم يؤمنوا بمحمد ﷺ؛ لذلك خسروا أنفسهم.

الثانية:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١]

توضح الآية الثانية أسباب نكرانهم وجحودهم بأنهم افتروا على اللَّه كذبًا؛ حيث نسبوا إليه تعالى ما لا يليق به، كما كذبوا برسله ولم يعترفوا بكتبه.

والاستفهام إنكاري معناه النفي.

وقال أبو السعود: كلمة ﴿أَوْ﴾ للإيذان بأن كلاً من الافتراء والتكذيب وجه بالغ غاية الإفراط في الظلم، فكيف وهم قد جمعوا بينهما، فأثبتوا ما نفاه اللَّه، ونفوا ما أثبته! ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠][1].

---

(١) «الكشاف»: ٢/ ٩.

﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ : أي لا يفلح المفتري، ولا المكذب، وفيه إشارة إلى أن مدعي الرسالة لو كان كاذبًا لكان مفتريًا على اللَّه؛ فلا يكون محلاً لظهور المعجزات.

نظرات في التفسير:

في هذا الصنف من الخلق تحدثت عنهم آيات بحثنا هذا عند حشرهم وسوقهم إلى مواقف الحساب، عندئذ يسألون مشافهة - أو بالواسطة - أين شركاؤكم الذين زعمتموهم آلهة فعبدتموهم من دون اللَّه؟!

أين هم اليوم؟ وما مدى استفادتكم من هذه العبادة؟ وهل نفعوكم بشيء في مثل هذه المواقف التي يحتاج فيها العابد لعون معبوده؛ فيحملهم افتتانهم بهم في الآخرة على الكذب على اللَّه، كما فُتنوا بهم في الدنيا؛ فيكذبون على اللَّه قائلين: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾؛ فكذبهم هذا على اللَّه في الآخرة ما هو إلا هروب مما ارتكبوه، وفي ذلك اعتراف بخطئهم، وإظهار لندمهم، وإعلان لتوبتهم؛ فهم في تلبسهم بهذا الكذب كالإنسان الذي يكتشف أمره بعد معصية ارتكبها يحاول وقتها جاهدًا بذل الأيمان المغلَّظة، والعهود الموثقة كبرهان له على أنه ما ارتكب ما نُسب إليه من المعاصي، وتلكم السيئات، وهو بتصرفه هذا يُشْعر من رآه وسمعه أنه نادم كل الندم، ومتأسف كل التأسف علىٰ كل ما نُسب إليه، معلنًا توبته وتَضَرُّعه وإنابته إلى اللَّه تعالىٰ، ورغبته في عدم مؤاخذة اللَّه له علىٰ ذلك، وليس الدعاء في الحقيقة إلا هذه الصورة من حياة المرء؛ فلهذا يطلب العفو والصفح.

لكن هل استجاب اللَّه رغبتهم، وحقق لهم مبتغاهم؟ لا.

لم يستجب اللَّه تعالىٰ لهم؛ لأنهم كذبوا عليه، كما لم يستجب لبواعث هذا الكذب وأهدافه، لم يستجب لهم في أي من ذلك، ولم يعف عنهم، ولم يحقق لهم هدفًا، بل سجَّل عليهم كذبهم علىٰ أنفسهم، وأخبر أنه قد غاب عنهم ما كانوا يزعمونهم شركاء له تعالىٰ افتراء وكذبًا، كما ردَّ عليهم قسمهم الكاذب مخاطبًا

(١) «أبو السعود»: ٢/٨٨.

الرسول، وكل من تتأتىٰ منه العظة والاعتبار قائلاً: ﴿ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾؛ لأن كذبهم لا تعود نتائجه علىٰ غيرهم، وإنما تعود علىٰ أنفسهم فقط، وتأمل أيها المخاطب كيف ضل عنهم وغابت آلهتهم التي عبدوها من دون اللَّه زورًا وافتراءً؛ فلم تدفع عنهم شرًا، كما لم ترفع عنهم ألمًا، ويتساءل المرء في هذا المقام عن حقيقة هذا الكذب: هل سيقع فعلاً منه في الآخرة عند حشر الخلائق، وهل الكذب في مراحل يوم القيامة جائز وقوعه أم لا؟ خصوصًا وقد حكىٰ القرآن عنهم ذلك، وهو صادق: رأيان للعلماء في ذلك ذكرهما الإمام الرازي لبيان جواز وقوع الكذب من الخلق يوم القيامة، وعدم جوازه.

الرأي الأول: هو لأبي علي الجبائي والقاضي، وبدأت به لقلة أدلته وضعفها، وملخصه أن أهل القيامة لا يجوز إقدامهم علىٰ الكذب، واستدلوا علىٰ ذلك بعدة أدلة أقواها ما يلي:

أ ـ أن أهل القيامة يعرفون اللَّه تعالىٰ بالاضطرار؛ إذ لو عرفوه بالاستدلال لصار موقف يوم القيامة دار التكليف، وذلك باطل.

وإذا كانوا عارفين باللَّه علىٰ سبيل الاضطرار وجب أن يكونوا ملجئين إلىٰ ألا يفعلوا القبيح، بمعنىٰ أنهم يعلمون أنهم لو راموا فعل القبيح لمنعهم اللَّه منه؛ لأن مع زوال التكليف لو لم يحصل هذا المعنىٰ لكان ذلك إطلاقًا لهم في فعل القبيح، وأنه لا يجوز؛ فثبت أن أهل القيامة يعلمون اللَّه بالاضطرار، وثبت أنه متىٰ كان كذلك كانوا مُلْجَئِين إلىٰ ترك القبيح، وذلك يقتضي أنه لا يقدم أحد من أهل القيامة علىٰ فعل القبيح.

ب ـ أن القوم الذين أقدموا على ذلك الكذب:

إما أن يقال أنهم ما كانوا عقلاء:

فهم يعلمون أن اللَّه تعالى عالم بأحوالهم، مُطَّلِعٌ علىٰ أفعالهم، ويعلمون أن تجويز الكذب علىٰ اللَّه محال، وأنهم لا يستفيدون بذلك الكذب إلا بزيادة في المقت والغضب، وإذا كان الأمر كذلك امتنع إقدامهم في مثل هذه الحالة علىٰ الكذب.

جـ- أنهم لو كذبوا في مواقف القيامة، ثم حلفوا علىٰ ذلك الكذب لكانوا قد أقدموا علىٰ هذين النوعين من القبح والذنب، وذلك يوجب العقاب؛ فتصير الدار الآخرة دار التكليف، وقد أجمعوا علىٰ أنه ليس الأمر كذلك، وأما إن قيل أنهم لا يستحقون علىٰ ذلك الكذب، وعلىٰ ذلك الحلف الكاذب عقابًا وذمًا؛ فهذا يقتضي حصول الإذن من اللَّه تعالىٰ في ارتكاب القبائح والذنوب، وأنه باطل.

فثبت بهذه الوجوه أنه لا يجوز إقدام أهل القيامة علىٰ القبيح والكذب.

وإذا ثبت هذا فعند ذلك قالوا يُحْمل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾: أي ما كنا مشركين في اعتقادنا وظنوننا؛ وذلك لأن القوم كانوا يعتقدون في أنفسهم أنهم كانوا موحدين، متباعدين عن الشرك: ﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ خاص بحال الدنيا، وكذبهم في يمينهم كان في الآخرة؛ فهذا اختلاف الحالين: ففي الدنيا كانوا يكذبون، وفي الآخرة احترزوا عن الكذب؛ فلتعلق أحد الأمرين بالآخر عند الاعتذار مع أنهم كانوا في الدنيا يكذبون علىٰ أنفسهم، ويزعمون أنهم علىٰ صواب.

هذا جملة كلام القاضي في تقرير القول، والذي اختاره أبو علي الجبائي.

الرأي الثاني: وهو الذي ذهب إليه جمهور المفسرين: وملخصه أنهم يجيزون الكذب علىٰ الكفار يوم القيامة، وذكروا من الأدلة العقلية والنقلية والردود علىٰ أصحاب الرأي الثاني ما تجب الاحاطة به، وها هي أهم أدلتهم:

أ- أنه تعالىٰ حكىٰ عنهم أنهم يقولون ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٧]، مع أن اللَّه تعالى أخبر عنهم بقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

ب- قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨]، وذلك بعد قوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة: ١٤]؛ فشبه كذبهم في الآخرة بكذبهم في الدنيا.

جـ- قوله تعالىٰ حكاية عنهم حينما سئلوا: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾

قالوا: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾ [المؤمنون: ١١٢، ١١٣]، وكل ذلك يدل علىٰ إقدامهم في بعض الأوقات علىٰ الكذب.

د ـ قوله تعالىٰ حكاية عنهم : ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧] وقد علموا أنه تعالى لا يقضي عليهم بالخلاص.

هـ) أنه تعالىٰ في هذه الآية حكىٰ عنهم أنهم قالوا: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ وحمل هذا على أن المراد ما كنا مشركين في ظنوننا مخالف لظاهر الآية.

ردود أصحاب الرأي الثاني على أدلة أصحاب الرأي الأول

أولاً: ردوا علىٰ قولهم: «إما أن يكونوا كذبوا حال كمال العقل أو نقصانه» بقولهم: لا يبعد أن يقال أنهم حال ما عاينوا أهوال يوم القيامة، وشاهدوا موجبات الخوف الشديد اختلَّت عقولهم؛ فذكروا هذا الكلام في ذلك الوقت.

ثانيًا: ردوا على قولهم: «كيف يليق بحكمة اللَّه أن يحكي عنهم ما ذكروه في حال اضطراب العقول» بقولهم: ذلك ـ أي اضطرابهم ـ يوجب الخوف الشديد عند سماع الكلام حال كونهم في الدنيا، وهذا هو المقصود من تنزيل الآيات.

ثالثًا: ردوا علىٰ قولهم: «أن المكلفين لابد أن يكونوا عقلاء يوم القيامة» بقولهم: أن اختلال عقولهم ساعة واحدة حال ما يتكلمون بهذا الكلام لا يمنع من كمال عقولهم في سائر الأوقات.

رابعًا: ردوا علىٰ قولهم: «أن حمل كذبهم الوارد في قوله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ «علىٰ الكذب في الدنيا» بقولهم: إن هذا الحمل يوجب فك نظم الآية، وصرف أولها إلىٰ أحوال يوم القيامة، وصرف آخرها إلىٰ أحوال الدنيا، وهذا في غاية البعد.

خامسًا: ردوا على قولهم: «أن المراد من قولهم: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ في ظنوننا وعقائدنا» بقولهم: هذا مخالف لظاهر الآية.



الآية الثانية

قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

التفسير:

أخبر اللَّه تعالى بحال المجرمين يوم القيامة، وما هم فيه من الذل والهوان فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾: أي وهم مطرقون رءوسهم أمام ربهم من الخجل والحياء، ولو رأيتهم لرأيت العُجاب، قال ابن مسعود: وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف تقديره لرأيت أمرًا فظيعًا، لا يقادر قدره من هوله وفظاعته[1] ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾: أي يقولون ربنا أبصرنا حقيقة الأمر وسمعنا ما كنا ننكر من أمر الرسل، وكنا عُميًا وصُمًا؛ ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾: أي فردنا إلىٰ دار الدنيا لنعمل صالحًا، ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾: أي فنحن الأن مصدقون تصديقًا جازمًا، وموقنون أن وعدك حق، ولقاؤك حق، قال الطبري: أي أيقنا الآن بوحدانيتك، وأنه لا يصلح أن يُعبد سواك، ولا ينبغي أن يكون رب سواك، وأنك تحيي وتميت وتفعل ما تشاء[2].

نظرات في التفسير:

هذه الآية الكريمة تبين علىٰ سبيل الإجمال ما سوف يكون عليه المجرمون الكافرون يوم القيامة: نفسيًا، وجسديًا، وقوليًا، لقد سُبقَت بآيات وضحت موقف هؤلاء من قضية البعث، وبماذا أجيبوا علىٰ استبعادهم له، وبأن اللَّه وكل بهم ملائكة يتوفونهم.

فهم سيلقون الموت لا محالة، وكذلك البعث لا مفر منه، وسيرىٰ كل من تتأتىٰ منه الرؤية السليمة أحوالهم المتعددة، وكلها دالة علىٰ ما سيكونون فيه من ذل وهوان من يوم بعثهم حتي استقرارهم في النار؛ فهذه الآية علىٰ حالتين مسبوقة بحالة نفسية: أما الحالتان فهما الجسدية والقولية:

(١) «أبو السعود»: ٤/١٩٧.

(٢) «الطبري»: ٢١/٦٢.

فالحالة الجسدية: هي تجسيد لما هو داخل النفس من تفاعلات؛ فإن تنكيس رءوسهم، وطأطأة هاماتهم ما هو إلا انعكاس لما يضطرم في نفوسهم حياءً وخجلاً؛ لأن المربوب إذا ما وقف بين يدي من رباه وأحسن إليه يكون في منتهىٰ الخجل، وغاية الحياء والاستحياء.

أما حالتهم القولية: فهي نتيجة لما يعتمل في النفس، وينعكس علىٰ الجسد؛ فهي مسببة عن الانعكاسات الجسدية، والجسدية بدورها مسببة عن الانفعالات النفسية، التي بسبب قوتها أظهرتهم في حالتيهم الجسدية والقولية، حتىٰ أنطقتهم فقالوا: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾، وهذه المقالة اشتملت علىٰ مقدمة وأربع جمل، بيانها فيما يلي:

فالمقدمة هي: ﴿رَبَّنَا﴾؛ فهم ينادون الخالق باللفظ المنبئ عن تربيته لهم، واستعطافهم له، واستنجادهم به.

والجملة الأولي هي قولهم: ﴿أَبْصَرْنَا﴾ فهم يعترفون بهذا التعبير أنهم أبصروا الحشر وأهواله، وكانوا في دنياهم منكرين له، ومستبعدين وقوعه.

والجملة الثانية هي قولهم: ﴿وَسَمِعْنَا﴾: أي سمعنا سماع طاعة بأن ما جاء به محمد من عندك يا اللَّه حق وصدق.

والجملة الثالثة هي قولهم: ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾، هم بهذه الجملة يرفعون التماسهم ورجائهم إلىٰ اللَّه في أن يعيدهم إلىٰ الدنيا ليعملوا الصالحات، وليتداركوا ما فات من صدق القول، وحسن العمل.

والجملة الرابعة: هي قولهم: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾.

وهذه جملة اسمية مؤكدة جاءت علىٰ خلاف ما جرىٰ عليه أسلوب الجمل السابقة؛ فهم فيها يعلنون اعترافهم وتصديقهم بربوبية اللَّه ووحدانيته، ويوقنون بنبوة محمد، ويؤمنون برسالته، وبكل ما جاء به من قِبَلِ ربه.

فهم بهذا التذييل، وتلكم الجمل السابقة قد أعلنوا إيمانهم، وأشهروا إسلامهم.

وهذا لابد وأن يكون مسبوقًا بندمهم وتوبتهم واستغفارهم، ورجوعهم إلىٰ الحق، كما أنهم كذلك يطلبون العودة إلىٰ دار العمل؛ حيث يلتزمون الطاعات، ويفعلون المأمورات، فهل أجابهم اللَّه تعالىٰ إلىٰ طلبهم؟ وهل حقق لهم أملهم؟ لا.

إنه لم يجبهم إلىٰ ما رغبوا فيه، بل لم يرد عليهم ردًا صريحًا؛ لأنهم ليسوا له أهلاً؛ فاكتفىٰ في إجابتهم بأن عرفهم أنهم لم يكونوا علىٰ استعداد لقبول هدايته؛ لذا لم يهدهم، كما أحاطهم علمًا بأن ما هم فيه تحقيق لقوله تعالى: ﴿ **لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ** ﴾ [السجدة: ١٣]، صور اللَّه تعالىٰ كل هذا في قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ** ﴾ [السجدة: ١٣]

وفي هذه إشارة إلىٰ قول اللَّه تعالىٰ لإبليس: ﴿ **لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ [ص: ٨٥]، وفي ذلك من التهكم والإيلام والسخرية ما فيه؛ لأن معناها لو شئنا لخلصنا الخير من الشر، لكن لا يكون اللَّه تعالى خلق الخير الكثير المشوب بالشر القليل، وهو قسم معقول؛ فما كان يجوز تركه للشر القليل، وهو لا يناسب الحكمة؛ لأن ترك الخير الكثير للشر القليل غير مناسب للحكمة، وإن كان لا كذلك فلا مانع من خلقه؛ فيخلقه لما فيه من الخير الكثير، وهذا الكلام يُعَبِّرُ عنه من يقول برعاية المصالح: «إن الخير في القضاء ،والشر في القدر؛ فاللَّه قضىٰ بالخير، ووقع الشر في القدر بفعله المنزَّه عن القبح والجهل.

ثم يضيف اللَّه لهم إلىٰ ما سبق قوله تعالى: ﴿ **فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ [السجدة: ١٤]. أي فذوقوا هذا العذاب بسبب تجاهلكم لقاء هذا اليوم وما فيه من عذاب، وفي هذا اليوم سنعاملكم معاملة الناسين جزاء نسيانكم، ونترككم في العذاب كما تركتم الإيمان.

ثم يقال لهم مرة ثانية: «وذوقوا العذاب الخالد المستقر بسبب عملكم الذي اكتسبتموه».

❑ ★ ❑ ★ ❑

الآية الثالثة

قال اللَّه تعالى: ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ [الصافات: ٢٢ - ٣٤]

التفسير:

﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾: أي اجمعوا الظالمين وأشباههم من العُصاة والمجرمين، كل إنسان مع نظرائه، قال القرطبي: «الزاني مع الزاني، وشارب الخمر مع شارب الخمر، والسارق مع السارق»[1]، وقال ابن عباس: اجمعوا الظالمين ونساءهم الكافرات، وعنه المراد به أشباههم من العصاة[2]، ﴿ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾: أي وما كانوا يعبدون من الأوثان والأصنام، وذلك زيادة في تحسيرهم وتخجيلهم؛ ﴿ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾: أي فعرفوهم طريق الجحيم، ووجهوهم إليها، وفي لفظ ﴿ فَاهْدُوهُمْ ﴾ تهكم وسخرية، فإذا لم يهتدوا في الدنيا إلىٰ الصراط المستقيم، فيهتدوا اليوم إلىٰ صراط الجحيم، ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ احبسوهم عند الصراط لأنهم سيُسألون عن جميع أقوالهم وأفعالهم، ثم يُقال لهم علىٰ سبيل التقريع والتوبيخ، ﴿ مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ ﴾: أي ما لكم لا ينصر بعضكم بعضًا وأنتم هنا جميعًا؟ وكلكم في حاجة إلىٰ الناصر والمُعين؟ قال المفسرون: هذا إشارة إلىٰ قول أبي جهل يوم بدر: ﴿ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾ [القمر: ٤٤][3]، وأصل ﴿ تَنَاصَرُونَ ﴾ تتناصرون، حُذفت إحدىٰ التاءين تخفيفًا، قال تعالى: ﴿ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ

(١) «تفسير القرطبي»: ١٥ / ٧٣، وعزاه إلىٰ عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه.
(٢) نقلهما عنه صاحب «البحر المحيط» ٧ / ٣٥٦.
(٣) «تفسير القرطبي»: ١٥ / ٧٤.

مُسْتَسْلِمُونَ ﴾: أي بل هم اليوم أذلاء منقادون، عاجزون عن الانتظار: سواء منهم العابدون والمعبودون ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾: أي أقبل الرؤساء والأتباع يتلاومون ويتخاصمون، قال أبو السعود: وسؤالهم إنما هو سؤال توبيخ بطريق الخصومة والجدال[1] ﴿ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴾: أي قال الأتباع منهم للمتبوعين: إنكم كنتم تأتوننا من قبل الحق، وتزينون لنا الباطل، وتصدوننا عن اتباع طريق الهدى[2]، قال الطبري: أي كنتم تأتوننا من قبل الدين والحق، فتخدعوننا بأقوى الوجوه، قال: واليمين في كلام العرب: القوة والقدرة، كقول الشاعر:

إذا ما رايةٌ رُفعت لمجدٍ تلقاها عرابة باليمين[3]

وقيل: المراد تأتوننا بطريق الوسوسة عن يميننا كما، و المعتاد في حالة الوسوسة بالأسرار غالبًا، ﴿ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾: أي يقول لهم الرؤساء: لم نحملكم نحن علىٰ الضلال، ولم نمنعكم من الإيمان، بل كفرتم ولم تؤمنوا باختياركم، قال ابن كثير: أي ليس الأمر كما تزعمون، بل كانت قلوبكم مُنكرة للإيمان، قابلةً للكفر والعصيان[4] ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ﴾: أي ما كان لنا عليكم من قوة وقدرة نقهركم بها علىٰ متابعتنا، ﴿ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴾: أي بل كان فيكم فجور وطغيان واستعداد للعصيان، فلذلك استجبتم لنا واتبعتمونا، ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا ﴾: أي فوجب علينا جميعًا وعيد اللّه لنا بالعذاب، ﴿ إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴾: أي فإنا لذائقو هذا العذاب لا محالة، ﴿ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴾: أي فزينا لكم الباطل، ودعوناكم إلىٰ الغي لأننا كنا علىٰ غيّ وضلال، قال تعالىٰ مُخبرًا عن حالهم: ﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾: أي فإنهم يوم القيامة مشتركون في العذاب كما كانوا مشتركين في الغواية، ولكن كما

---

(١) «تفسير أبي السعود»: ٤/٢٦٨.

(٢) هذا القول حكاه ابن كثير عن السدي، وهو الأظهر.

(٣) «تفسير الطبري»: ٢٣/٣٢.

(٤) «مختصر ابن كثير»: ٣/١٧٧.

قال اللَّه تعالى: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٩]، ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾: أي مثل هذا الفعل بهؤلاء نفعل بالأشقياء المجرمين.

نظرات في التفسير:

يحكي القرآن في هذه الآيات حال السادة والعبيد يوم القيامة، كما يلفت الأنظار إلىٰ ما سيكون عليه أهل الكفر في ذلك اليوم من تساؤلات تهكمية بين الأتباع والمتبوعين، وهذا لا يكون صادرًا إلا ممن خُدعوا وضلوا في حياتهم الدنيا: بأن زخرف لهم الرؤساء القادة الفساد فارتكبوه، وزينوا لهم الشر فاتبعوه، فلما بعث هؤلاء جميعًا من قبورهم، وحشروا لمواقف الحساب، ورأوا ما رأوا من هول ذلك اليوم ندموا علىٰ ما صدر منهم، وتباكوا علىٰ حظهم، وتهكموا بمن كانوا السبب في ذلك، وإن هذا لدليل الاعتراف بالخطأ، والرغبة منهم في المغفرة، والأمل الصادق في العفو الإلهي .

تفيد هذه الآيات الكريمة أن اللَّه بعد أن يبعث من في القبور يأمر تعالىٰ ملائكته أن يحشروا الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والعصيان، ومعهم صنفان من الخلق: هم الأشباه والأنداد من الإنس والجن، أو نساؤهم الذين علىٰ دينهم، ومن عبدوهم من دون اللَّه: من حيوانات ناطقة وغير ناطقة، ومن جمادات، أو نباتات.

يسوق الملائكة بأمر اللَّه هذه الأصناف الثلاثة إلىٰ موقف الحساب: قائلين لهم تهكمًا: ما لنا لا نرىٰ اليوم التناصر الذي كان بينكم في الدنيا واقعًا الآن بينكم؟! لماذا لا ينصر بعضكم بعضًا كما كنتم في الدنيا؟! وما بال من عبدتموهم لا يدفعون عنكم العذاب اليوم؟ ولا يمنعونكم منه؟!

ثم يضرب اللَّه عن كل ذلك صفحًا قائلاً: ﴿ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾: أي هم في هذا اليوم ينقادون للَّه تعالىٰ، مستسلمين خاضعين، يطلبون السلامة، تاركين الخصومة والمنازعة؛ حيث لا حيلة لهم في دفع ما أحاط بهم من شدائد وأهوال.

ثم يحكي القرآن تساؤلاتهم؛ حيث يقبل بعضهم علىٰ بعض متسائلاً في تهكم وسخرية ملقيًا التبعة علي الغير، باذلاً جهده في إلصاق التهمة به، منتزعًا منه اعترافه بكونه

السبب الرئيسي فيما هو فيه الآن من عذاب وآلام؛ فيقول الخدم والأتباع للسادة والرؤساء:

لقد كنتم في الدنيا تقنعوننا بأنكم علىٰ الحق والصواب، وتزينون لنا الباطل حتىٰ قبلناه، وارتضيناه لأنفسنا عقيدة وسلوكًا؛ فحملتمونا عليه تارة بأيمانكم المغلظة، وتارة أخرىٰ بالترغيب، وثالثة بالترهيب.

فيرد عليهم السادة الرؤساء قائلين لهم:

أنتم لم تكونوا مؤمنين حتىٰ تزعموا أنا أزلناكم عن الإيمان، بل كنتم في حقيقة أمركم قومًا ضالين، غالين في المعصية، كما أنه لا سلطان لنا عليكم؛ لأنكم كنتم مجاوزين حد الاعتدال.

ثم اعترفوا بأنهم ذائقو العذاب جميعًا، ثم قالوا لهم:

إن اعتقدتم أن غوايتكم بسبب إغوائنا لكم؛ فغوايتنا نحن من تسبب فيها؟ لا نرىٰ السبب في ذلك إلا صدق الله في قوله لإبليس: ﴿**لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ [ص: ٨٥]، ثم ختم الله جدالهم هذا وحجاجهم بقوله تعالى: ﴿**فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ**﴾: أي لا جدوىٰ من هذا اللوم والعتاب والخصام؛ فالكل من الأتباع والمتبوعين مشتركون في العذاب، كما كانوا في الدنيا مشتركين في الغواية والضلال، ثم علل القرآن ذلك بقوله ﴿**إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ**﴾.

ففي هذا الختام أبلغ جواب علىٰ ما طلبوا: أي إنكم بتخاصمكم هذا تدفعون اللوم عن أنفسكم، وتعلنون التوبة، وترجون المغفرة، غير أن هذا كان يجوز لو كان في الدنيا، أما وقد وقع هذا منكم في الآخرة التي فيها الحساب لا العمل فلا جواب لكم عندي إلا اشتراككم في العذاب؛ لأنكم جميعًا فيه بسبب سوائيتكم واشتراككم في أسبابه؛ لأنكم مجرمون، وكذلك نفعل بالمجرمين.



الآية الرابعة

قال اللّه تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ [القصص: ٦٢، ٦٣].

التفسير:

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾: أي واذكر يا محمد حال المشركين يوم يناديهم اللّه فيقول لهم على سبيل التوبيخ والتقريع: أين هؤلاء الشركاء والآلهة من الأصنام والأنداد الذين عبدتموهم من دوني؟ وزعمتم أنهم ينصرونكم ويشفعون لكم؟ ﴿ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾: أي قال رؤساؤهم وكبراؤهم الذين وجب عليهم العذاب لضلالهم وطغيانهم: ﴿ رَبَّنَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا ﴾: أي هؤلاء أتباعنا الذين أضللناهم عن سبيلك، ﴿ أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ﴾: أي أضللناهم كما ضللنا، لا بالقسر والإكراه ولكن بطريق الوسوسة وتزيين القبيح؛ فضلوا كما ضللنا نحن ﴿ تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾: أي تبرأنا إليك يا اللّه من عبادتهم إيانا، فما كانوا يعبدوننا، وإنما كانوا يعبدون أهواءهم وشهواتهم.

نظرات في التفسير:

يسأل اللّه تعالى الكفار يوم القيامة عن ثلاثة أمور:

١ - عن آلهتهم التي عبدوها من دون اللّه وجعلوها للّه شركاء.

٢- وعن شفاعة آلهتهم لهم وهل استطاعت تخليصهم من العذاب، أو دفعه عنهم.

٣- وعما أجابوا به المرسلين في دعوتهم إلى توحيد اللّه وطاعته.

فماذا كان جواب هؤلاء الكفرة على هذه الأسئلة؟

حكىٰ اللَّه إجابتهم في قوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا﴾ الآية، والمراد بـ ﴿الَّذِينَ﴾ هم الرؤساء والدعاة إلىٰ الضلال من الإنس، أو هم شياطين الجن، والمراد بالقول الذي حق عليهم: هو قوله تعالى: ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥]، والمراد بعبارتهم: ﴿رَبَّنَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا﴾ الآية: أي غيُّنا كان باختيارنا، وكذلك غيُّهم كان باختيارهم، يعني أن إغوائنا لهم ما ألجأهم إلىٰ الغواية، بل كانوا مختارين بالإقدام علىٰ تلك العقائد والأعمال، وهذا المعنىٰ هو ما حكاه اللَّه تعالىٰ عن الشيطان حيث قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾ الآية [إبراهيم: ٢٢]، وقول اللَّه تعالىٰ أيضًا لإبليس: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

ثم يعلن هؤلاء السادة تبرؤهم إلى اللَّه تعالىٰ ممن عبدوهم، ومن عقائدهم الزائفة، وأعمالهم السيئة قائلين: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ إنما كانوا يعبدون أهواءهم، وذلك كقول اللَّه تعالى: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ فتبرؤهم هذا ما هو إلا اعتراف بالخطأ، وإقرار بالذنب، ورغبة في التوبة، وأمل في النجاة، وما ذاك إلا الدعاء.



الآية الخامسة

قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ⑩ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ⑪ ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١٠-١٢].

التفسير:

تحدثت الآيات السابقة لهذه الآيات عن أحوال المؤمنين، وفي هذه الآيات ذكر شيئًا من أحوال الكافرين؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾: أي تناديهم الملائكة يوم القيامة علىٰ جهة التوبيخ والتقريع: لَبُغض اللَّه الشديد لكم في الدنيا أعظم من بُغضكم اليوم لأنفسكم، ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾: أي حين كنتم تُدعون إلىٰ الإيمان فتكفرون كبرًا وعتوًا، قال قتادة: بُغْضُ اللَّه لأهل الضلالة حين عرض عليهم الإيمان في الدنيا فأبوا أن يقبلوه أكبر مما مقتوا أنفسهم حين عاينوا عذاب اللَّه[1].

﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾: أي قال الكفار لما رأوا الشدائد والأهوال ربنا أمتنا مرتين وأحييتنا مرتين، ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾: أي فاعترفنا بما جنيناه من الذنوب في الدنيا، ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾: أي فهل تردنا إلىٰ الدنيا لنعمل بطاعتك؟ وهل تُخرجنا من النار لنسلك طريق الأبرار؟ قال المفسرون: الموتة الأولىٰ حين كانوا في العدم، والموتة الثانية حين ماتوا في الدنيا، والحياة الأولىٰ حياة الدنيا، والحياة الثانية حياة البعث يوم القيامة، فهاتان موتتان وحياتان[2]، وإنما قالوا ذلك علىٰ سبيل

---

(١) «تفسير ابن كثير»: ٣/ ٢٣٧.

(٢) هذا قول ابن مسعود وابن عباس وقتادة: قالوا: وهذه مثل قوله تعالىٰ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] الآية.

التعطف والتوسل إلىٰ رضىٰ اللَّه بعد أن عاينوا العذاب، وقد كانوا يكفرون ويُنكرون، ولهذا جاء الجواب ﴿ **ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ** ﴾: أي ذلكم العذاب والخلود في جهنم بسبب كفركم، وعدم إيمانكم باللَّه، فإذا دُعيتم إلىٰ التوحيد كفرتم ﴿ **وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا** ﴾، وإن دُعيتم إلىٰ اللات والعُزىٰ وأمثالهما من الأصنام آمنتم وصدقتم بألوهيتها، ﴿ **فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ** ﴾: أي فالقضاء للَّه وحده لا للأوثان والأصنام، ولا سبيل إلىٰ نجاتكم؛ لأن اللَّه هو المتعالي علىٰ خلقه، العظيم في ملكه، الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

نظرات في التفسير:

هذه الآيات امتداد لشرح حال الكافرين الجاحدين المجادلين المذكورين في قوله تعالى: ﴿ **مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ** ﴾ [غافر: ٤]، ثم يبين اللَّه تعالىٰ بعد ذلك في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ** ﴾ عدة أمور:

أولها: أنهم يمقتون أنفسهم مقتًا عظيمًا، ويكرهونها كراهية فظيعة؛ بدليل أن الملائكة تناديهم قائلة لهم: إنكم تمقتون أنفسكم ظانين أن ذلك يكفي، بل اعلموا أن مقت اللَّه لكم أكبر وأعظم وأشد وأعنف من مقتكم لأنفسكم.

ثانيها: اعتراف بالإماتتين والإحيائتين.

ثالثها: مشاهدة هؤلاء الكفار لإماتتيهم وإحيائتيهم دفعتهم لاعترافهم بذنوبهم.

رابعًا: ما كرهوا أنفسهم واعترفوا بذنوبهم لمشاهدتهم للإماتتين والإحيائتين، لما حصل منهم هذا، ودب فيهم اليأس، وبلغ منهم مبلغًا: استفسروا هل آن الأوان لأن نجد طريقًا للخروج مما نحن فيه؟ وتفاديًا مما حل بنا، فهم بذلك يسألون الرجعة إلىٰ الدنيا ليتلافوا ما فرط منهم، فهم يطلبونها علىٰ صورة الاستفهام: أي هل لنا إلىٰ نوع

من الخروج: سواء كان سريعًا، أو بطيئًا؟ أم اليأس وقع فلا خروج ولا سبيل؟! وهذا الكلام إنما يصدر ممن غلب عليه اليأس والقنوط.

فهل استجاب اللَّه لدعائهم بالخروج إلىٰ سبيل؟ وهل قبل منهم اعترافهم بذنوبهم، وعفا عنهم وتاب؟ كلا لم يجبهم اللَّه تعالىٰ إلىٰ هدفهم، ولم يفدهم بما يستروحون به، بل قال لهم: ﴿**ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا**﴾.

أي ذلكم الذي أنتم فيه ـ وهو أنه لا سبيل لكم إلىٰ خروج قط ـ إنما حصل لكم بسبب كفركم بتوحيد اللَّه تعالىٰ، وإشراككم فالحكم للَّه تعالىٰ؛ حيث حكم عليكم بالعذاب السرمدي؛ لأنه العلي الكبير، وهاتان الصفتان للدلالة علىٰ الكبرياء والعظمة، كما أنهما للدلالة أيضًا علىٰ أن عقابه لا يكون إلا كذلك.



ما يمكن استنتاجه من الفوائد في آيات الدعاء الصادرة من الخلق عند الحشر الحساب

١ـ الطبع غالب علىٰ التطبع.

٢ـ تَنَكُّر العاصي لمعاصيه عند المسألة لون من ألوان التوبة.

٣ـ كما أن الإعراض عن الإجابة الصريحة لون من ألوان الاستهزاء والسخرية.

٤ـ يُرىٰ المجرمون يوم الحشر في صور لا إنسانية.

٥ـ رغبات الكفار للعودة إلىٰ الدنيا لاستدراك ما فات من الصالحات لا تستجاب لهم.

٦ـ خلق اللّه خلقًا لكل من الجنة والنار أَهَّلَهُم لها استعدادهم.

٧ـ يُحشر الناس مع خِلانهم، ومع من عبدوهم من دون اللّه.

٨ـ يوم القيامة تسخر الملائكة بمن عصوا اللّه ورسله، وأنكروا كتبه.

٩ـ في الحشر تقع المجادلة والمخاصمة بين السادة والعبيد.

١٠ـ الكل يعترف بأن كلمة اللّه حقَّت عليهم.

١١ـ لا نفع في إلقاء التبعات علىٰ الغير حتىٰ ولو كان مضلاً حقيقة لقوله تعالى: ﴿ **فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ** ﴾ [الصافات: ٣٣].

❑ ★ ❑ ★ ❑

الفصل الرابع: آيات الدعاء وفوائدها عند تسلم الصحف وبعد الحساب

الأدعية القرآنية الصادرة على لسان بعض الخلق عند تسلم الصحف

هذا اللون من الدعاء ورد في القرآن الكريم مرتين، في سورتي الكهف والانشقاق.

الآية الأولى

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿ **وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا** ﴾ [الكهف: ٤٩].

التفسير:

﴿ **وَوُضِعَ الْكِتَابُ** ﴾: أي وضعت صحائف أعمال البشر، وعرضت عليهم، ﴿ **فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ** ﴾: أي فترىٰ المجرمين خائفين مما فيه من الجرائم والذنوب، ﴿ **وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا** ﴾: أي يا حسرتنا ويا هلاكنا علىٰ ما فرطنا في حياتنا الدنيا، ﴿ **مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا** ﴾: أي ما شأن هذا الكتاب لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا ضبطها، وأحاط بها؟ قال تعالىٰ: ﴿ **وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا** ﴾: أي مكتوبًا مثبتًا في الكتاب، ﴿ **وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا** ﴾: أي لا يعاقب إنسانًا بغير جرم، ولا ينتقص من ثواب المحسن.

نظرات في التفسير:

لما بين اللَّه تعالىٰ خساسة الدنيا، وشرف الآخرة في قوله تعالىٰ: ﴿ **وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾ [الكهف: ٤٥] الآية.

وقوله تعالىٰ: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦] الآية.

أردفه ببيان يوم القيامة ببعض أوصافه في قوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾ [الكهف: ٤٧] الآية.

ثم تلت بالسخرية والتهكم لمنكري البعث في قوله تعالىٰ: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ [الكهف: ٤٨].

ثم أوضح حال الخلائق عند تسلمهم صحائف أعمالهم بقوله تعالىٰ: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾: أي وضع كتاب كل امرئ: المؤمن في يمينه، والكافر في يساره، ثم كشفت هذه الآية الكريمة حال هؤلاء الكافرين عند تسلمهم صحائف أعمالهم بشمائلهم؛ حينئذ ترتعد فرائصهم من هول ما حرر في هذا الكتاب من أعمالهم وأقوالهم الخبيثة خوف الفضيحة والعقاب قائلين ويلتنا، وهذه الكلمة مصدر لا فعل له من لفظه، أي ينادون هلكة خاصة من بين هلكاتهم التي هلكوها متعجبين أيضًا من شأن هذا الكتاب الذي لم يترك صغيرة ولم يغادر كبيرة من معاصيهم إلا دوَّنها؛ وكيف لا يكون ذلك كذلك والحال أن الخالق لا يظلم أحدًا من خلقه: آدميًا أو غيره؟!

فنداء هؤلاء المجرمين هلكتهم التي هلكوها بسبب معاصيهم عند تسلمهم لصحائفهم ما هو إلا دليل حسرتهم وندمهم وألمهم، وهذه الصفات كلها دليل علىٰ اعترافهم بذنوبهم، ورغبتهم في أن يغفر اللَّه تعالىٰ لهم، وما ذلك إلا الدعاء بعينه.

هذه الآية الكريمة كانت مثار بحث بين السادة العلماء، وفيما يلي أهم نقاط هذا البحث:

١ـ الكتاب دوَّن كل صغيرة وكبيرة من معاصي هؤلاء الكفار، فماذا تكون إذًا الصغيرة والكبيرة؟

٢ـ أن هؤلاء المجرمين وجدوا كل ما عملوه حاضرًا؛ فهذا يثبت لهم الكسب والاختيار.

٣ـ قول اللَّه تعالىٰ في الآية: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ تنفي الجبر في أفعال العباد.

لهذه الأمور الثلاثة أبدىٰ العلماء آراءهم باستنتاجاتهم، وفيما يلي أهمها:

١ـ استدل الجبائي بهذه الآية علىٰ فساد المجبرة من جهتين وهما:

أ ـ لو عذَّب اللَّه عباده من غير فعل صدر منهم لكان ظالمًا، وحاشا لله أن يفعل ذلك.

ب ـ اللَّه لا يعذب الأطفال من غير ذنب.

ج ـ بطلان قولهم: لله أن يفعل ما يشاء، ويعذب من غير جرم؛ لأن الخلق خلقه.

إذ لو كان كذلك لما كان لنفي الظلم عنه معنىٰ؛ لأنه بتقدير أنه إذا فعل أي شيء أراد لم يكن ظلمًا منه، لم يكن لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَظْلِمُ﴾ فائدة، ولكن الفخر الرازي رد علىٰ الجبائي استدلالاته هذه بقوله:

أما الجواب عن الأولين فهو المعارضة بالعلم والداعي.

وأما الجواب عن الثالث فهو أنه تعالىٰ قال: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ ولم يدل هذا علىٰ أن اتخاذ الولد صحيح عليه؛ فكذا هاهنا.

٢ـ ذهب العلماء إلىٰ القول بأن الذنوب صغائر وكبائر، وهذا أمر متفق عليه بين المسلمين، إلا أن الخلاف في تحديد كل منهما:

أ ـ فقال المعتزلة: المعصية الكبيرة هي التي يزيد عقابها علىٰ ثوابها، والمعصية الصغيرة هي التي ينقص عقابها عن ثوابها.

ب ـ وقال أهل السُّنة إن الطاعة محصورة في نوعين:

١ ـ تعظيم أمر اللَّه تعالىٰ.

٢ ـ الشفقة علىٰ خلق اللَّه تعالى.

فكل ما كان أقوىٰ في كونه جهلاً باللَّه كان أعظم في كونه كبيرة، وكل ما كان أقوىٰ في كونه إضرارًا بالغير كان أكثر من كونه ذنبًا ومعصية؛ فهذا هو الضابط.

ثم تعقَّب أهل السنة المعتزلة فيما سبق لهم من تحديد للصغيرة والكبيرة قائلين:

إن هذا الحد إنما يصح لو ثبت أن الفعل يوجب ثوابًا وعقابًا، وذلك عندنا باطل لوجوه كثيرة، ذكرها الرازي في سورة البقرة في إبطال القول بالإحباط والتكفير.

٣ـ ذهب بعض العلماء إلىٰ تهويل الصغائر من الذنوب، وأنه ينبغي ألا يُستهان بها قائلين: إن هؤلاء المجرمين ما ضجوا من الصَّغائر قبل الكبائر إلا لأنها جرتهم إلىٰ الكبائر.

❑ ★ ❑ ★ ❑

الآية الثانية

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ⑩ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ⑪ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ⑫ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ⑬ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ⑭ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴾ [الانشقاق: ١٠ـ١٥].

التفسير:

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴾: أي وأما من أُعطي كتاب أعماله بشماله من وراء ظهره، وهذه علامة الشقاوة، ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴾: أي يصيح بالويل والثبور، ويتمنىٰ الهلاك والموت، ﴿ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴾: أي ويدخل نارًا مستعرة يقاسي عذابها وحرها، ﴿ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾: أي لأنه كان في الدنيا مسرورًا مع أهله، غافلاً لاهيًا، لا يفكر في العواقب، ولا تخطر بباله الآخرة.

قال ابن زيد: وصف اللَّه أهل الجنة بالمخافة والحزن والبكاء في الدنيا، فأعقبهم به النعيم والسرور في الآخرة، ووصف أهل النار بالسرور في الدنيا والضحك فيها، فأعقبهم به الحزن الطويل، ﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾: أي إنه ظن أنه لن يرجع إلىٰ ربه، ولن يحييه اللَّه بعد موته للحساب والجزاء؛ فلذلك كفر وفجر، ﴿ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴾: أي بلىٰ سيعيده اللَّه بعد موته، ويجازيه علي أعماله كلها: خيرها وشرها، فإنه تعالىٰ مطلع علىٰ العباد، لا تخفىٰ عليه خافية من شئونهم.

نظرات في التفسير:

ابتدئت سورة الانشقاق بسمة من سمات يوم القيامة، ثم امتدت الآيات لتوضح أن كدح الإنسان في الدنيا ما هو إلا دليل علىٰ حقيقة هذا اليوم ووجوده مستقبلاً؛ لأن هذا الكدح ما هو إلا سبب في وصوله إليه، ثم عرجت الآيات إلىٰ آية أخرىٰ لتعطينا المقابل.

فقال اللَّه تعالىٰ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ⑦ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ⑧ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾ [الانشقاق: ٨ـ٩]، والحساب اليسير في هذه الآية ما هو إلا عرض لأعمال الإنسان ليراها: فيعرف الطاعة وجزاء ثوابها، والمعصية والتجاوز عنها؛ فلا مساءلة ولا مناقشة؛ لأن من نوقش الحساب عذب، ثم يرجع هذا الصنف من الخلق إلىٰ أهله منقلبًا مسرورًا: يرجع إلىٰ زوجاته وأولاده إن كانوا مؤمنين معه، وكذا الحور العين.

وأما الذي يتناول كتابه وراء ظهره ـ أو بشماله ـ فهو الكافر قطعًا؛ ولذلك حينما يتسلمون صحائف أعمالهم علي هذه الصورة يعلمون أنهم من أصحاب النار؛

فيتضرعون إلىٰ اللَّه، ويستغيثون ويصرخون قائلين: واثبوراه ويا هلاكاه.

والثبور: هو الهلاك، إلا أن القفال فرق بينهما فقال: الثبور مشتق من المثابرة، فالثبور هو المثابرة علىٰ الشيء، والمواظبة عليه.

فهذا الكافر حينما يتسلم صحائفه يضطرب متشائمًا مناديًا هلكته التي تنتظره بعد مواقف الحساب، والتي تأكدها من خلال صحفه التي تناولها بيسراه.

فهذا النداء لهلكته، والتحسر والندم والخوف من مآل ما دُوِّنَ له في تلك الصحف، وهذا الاستشعار بالتأسف والألم، وطلب الرحمة والعفو والمغفرة ما هو إلا الدعاء بعينه، فهل استجاب اللَّه له ما تمنىٰ ورغب فيه، وأزال عنه أسباب حسرته؟ لا.

فاللَّه تعالىٰ لم يستجب له بدليل أنه ما أجابه إلىٰ ذلك: لا صراحة، ولا ضمنًا، بل عرَّض به بما يفهم أنه سينال جزاءه كاملاً لما ارتكب من سيِّئ الفعل والقول في الدنيا، بطريقة فيها استخفاف به ،واستهزاء بشأنه، وسخرية بآلامه ورجاءاته قال تعالىٰ: ﴿ **إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ (١٤) بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً** ﴾.

لهذه الجمل الثلاث لم يجبه اللَّه إلىٰ طلبه، بل سيصليه سعيرًا، حيث أوضحت له أنه ما صار إلىٰ هذا البؤس والعذاب إلا لكونه كان متعاليًا علىٰ اللَّه ودينه ومعتنقيه؛ حيث كان في حياته الدنيا منعَّمًا؛ فحمله هذا التنعيم علىٰ الاستهزاء بالرسالات والقيم الأخلاقية، كما أنه كان معتقدًا أنه لن يرجع إلينا، أو أنه كان معتقدًا أنه في الآخرة لن يكون علىٰ حالة تخالف ما كان عليه في الدنيا من السرور والنعيم؛ إذ الحوار في الآية يشمل المعنيين.

ولكن لعل المرء يتساءل لماذا يتسلم الكافر كتابه وراء ظهره أو بيساره؟

للعلماء آراء في ذلك نورد أهمها:

قال الكلبي: لأن يمينه مغلولة إلىٰ عنقه، ويده اليسرىٰ خلف ظهره.

قال مجاهد: تُخلع يده اليسرىٰ فتُجعل من وراء ظهره.

وقال قوم: يتحول وجهه في قفاه فيقرأ كتابه كذلك.

وقيل: يحتمل أن يُؤتىٰ البعض بشماله، والبعض الآخر بشماله من وراء ظهره.

وقيل: يُؤتىٰ كتابه بشماله من وراء ظهره لأنه إذا حاول أخذه بيمينه كالمؤمنين يُمنع من ذلك، وأوتي من وراء ظهره بشماله.

الدعاء القرآني الصادر من بعض الخلق بعد الحساب

هذا اللون من الدعاء ورد في القرآن الكريم مرة واحدة في سورة الحديد .

قال اللَّه تعالىٰ : ﴿ **يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ** ﴾ [الحديد : ١٣] .

التفسير:

لما شرح اللَّه حال المؤمنين يوم القيامة في الآيات السابقة، أتبع ذلك بشرح حال المنافقين فقال : ﴿ **يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ** ﴾ : أي انتظرونا لنستضيء من نوركم، قال المفسرون : إن اللَّه تعالىٰ يعطي المؤمنين نورًا يوم القيامة علىٰ قدر أعمالهم يمشون به علىٰ الصراط، ويترك الكافرين والمنافقين بلا نور، فيستضيء المنافقون بنور المؤمنين، فبينما هم يمشون إذ بعث اللَّه فيهم ريحًا وظُلمة، فبقوا في الظلمة لا يبصرون مواضع أقدامهم؛ فيقولون للمؤمنين: انتظروا لنستضيء بنوركم، ﴿ **قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا** ﴾ : أي فيقول لهم المؤمنون سخرية واستهزاءً بهم : ارجعوا إلىٰ الدنيا فالتمسوا هذه الأنوار هناك، قال أبو حيان : وقد علموا أن لا نور وراءهم، وإنما هو إقناطٌ لهم[1]، ﴿ **فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ** ﴾ : أي فضُرب بين المؤمنين والمنافقين بحاجز له باب، يحجز بين أهل الجنة وأهل النار، ﴿ **بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ** ﴾ : أي في باطن السور الذي هو جهة المؤمنين الرحمة وهي الجنة، وفي ظاهره وهو جهة الكافرين العذاب وهو النار، قال ابن كثير : هو سور

(١) «البحر المحيط» : ٢٢١٨ .

يُضرب يوم القيامة ليحجز بين المؤمنين والمنافقين، فإذا انتهىٰ إليه المؤمنون دخلوه من بابه، فإذا استكملوا دخولهم أُغلق الباب، وبقي المنافقون من ورائه في الحيرة والظلمة والعذاب[١].

نظرات في التفسير:

بتفهمنا للكلمات الآتية يتضح لنا معنىٰ الآية الكريمة:

﴿يَوْمَ﴾، ﴿الْمُنَافِقُونَ﴾، ﴿انظُرُونَا﴾، ﴿نَقْتَبِسْ﴾، ﴿نُورِكُمْ﴾، ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ﴾، فالمراد باليوم: هو يوم القيامة، وهو الذي سبق ذكره في الآية السابقة عند قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الحديد: ١٢]، وهذا وجه الربط بينهما؛ فبعد أن بين حال المؤمنين في هذا اليوم بيَّن حال المنافقين فيه ليظهر جزاء المحسنين والجاحدين.

واليوم منصوب بـ(اذْكُر)، المحذوف تعظيمًا لذلك اليوم، أو هو ظرف لقوله تعالىٰ: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [الحديد: ١١].

والمراد بالمنافقين هم الذين أضمروا الكفر وستروه بإظهار إيمانهم حجبًا لحقيقة نفاقهم، أما قولهم ﴿انظُرُونَا﴾ إما أن يكون بمعنىٰ الانتظار: أي انتظرونا وتمهلوا في سيركم لنلحق بكم فننجوا بمصاحبتكم، وإما أن يراد به الرؤية أي اقلبوا حدقات عيونكم نحونا لتروا ما نحن فيه من تخبط في الظلام، ولا يتم ذلك إلا إذا استداروا إليهم ليستضيئوا بنور وجوههم، وإما أن يكونوا قاصدين من ذلك مجرد إظهار تحسُّرهم وندمهم لما حلَ بهم.

ومعنىٰ ﴿نَقْتَبِسْ﴾: أي ننال منكم، ونستفيد من بعض نوركم حتىٰ نسلك الطريق معكم إلىٰ حيث تريدون من النجاة والفوز، والقَبَس ـ بفتحتين ـ شعلة من النار؛ ولذلك قال اليزيدي: أقبسه علمًا وقبسه نارًا.

---

(١) «تفسير ابن كثير»: ٣ / ٤٥٠.

أما النور الوارد في الآيتين - وهو من الروابط بينهما - فللعلماء فيه ثلاثة آراء:

الرأي الأول: يرىٰ أن المقصود منه هو النور الحقيقي الذي نشاهده في دنيانا، مستدلين علىٰ ذلك بما روي عن ابن مسعود وقتادة وغيرهما منسوبًا إلي المصطفىٰ قوله: «**أن كل مثاب فإنه يحصل له النور علىٰ قدر عمله وثوابه في العظم والصغر**» فعلىٰ هذا مراتب الأنوار مختلفة، فمنهم من يضيء له نوره كما بين عدن وصنعاء، ومنهم من نوره مثل الجبل، ومنهم من لا يضيء له نوره إلا موضع قدميه، وأدناهم نورًا من يكون نوره علىٰ إبهامه ينطفئ مرة، ويتقد أخرى.

وقال مجاهد: ما من عبد إلا وينادي يوم القيامة يا فلان هاك نورك، ويا فلان لا نور لك. نعوذ باللَّه منه.

الرأي الثاني: يرىٰ المقصود منه كل ما يؤدي إلىٰ النجاة؛ و فالإيمان نور، ومعرفة اللَّه نور، وأداء الواجبات الإسلامية نور؛ لأن كل ذلك يؤدي إلي النجاة من النار، والنجاة من النار تؤدىٰ بدورها إلىٰ الدخول في رحاب اللَّه تعالىٰ ومرضاته وجناته.

الرأي الثالث: يرىٰ أن المقصود منه هنا الهداية التي تؤدي إلىٰ الجنة؛ وذلك كما يقال هذا الأمر له نور ورونق إذا كان المقصود حاصلاً، وهذا الأمر لا نور له إذا لم يكن المقصود حاصلاً، ويرىٰ أصحاب هذا الرأي أن النور علىٰ مراتب ثلاث:

أ) النور الحقيقي وهو اللَّه تعالىٰ لقوله: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [النور: ٣٥].

ب) يليه نور البصيرة وهو المشار إليه بقوله تعالىٰ: ﴿**وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾ [الحج: ٤٦].

جـ) يليه أدون الأنوار وهو نور البصر، بعد أن يتم الحساب، ويتحرك الخلق لينال كل جزاء ما قدَم يتقدم الركب صفوفًا صفوفًا، وفي مقدمتهم المؤمنون، نورهم يسعىٰ بين أيديهم وبأيمانهم، ثم يتحرك خلفهم ركب المنافقين والظلام من خلفهم

وبشمائلهم، مضطربين في سيرتهم، متشائمين، ينادون المؤمنين بقولهم: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾؛ فماذا كان رد المؤمنين عليهم؟

أجابوهم بقولهم: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ للعلماء في هذا الرد ثلاثة وجوه:

الوجه الأول: قد يكون قصدهم من ذلك العودة إلىٰ دار الدنيا؛ لأن هذه الأنوار إنما تتولد من اكتساب المعارف الإلهية، والأخلاق الفاضلة، والتنزه عن الجهل والرذائل، ولا يكون ذلك إلا في الدنيا.

الوجه الثاني: وقد يكون قصدهم من هذه المقالة الخداع؛ فقد قال أبو أمامة رضي اللَّه عنه: الناس يكونون في ظُلْمة شديدة، ثم المؤمنون يُعطون الأنوار؛ فإذا أسرع المؤمن في الذهاب قال المنافق ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾؛ فيقال لهم ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾.

قال: وهي خدعة خدع بها المنافقون كما قال تعالىٰ: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]؛ فيرجعون إلىٰ المكان الذي قسم فيه النور؛ فلا يجدون شيئًا؛ فينظرون إليهم فيجدون السور مضروبًا بينهم وبين المؤمنين.

الوجه الثالث: وقد يكون قصدهم من ردهم هذا هو منع المنافقين من الاستضاءة، وذلك كقول الرجل لمن يريد القرب منه وراءك أوسع لك، وهو ما ذهب إليه أبو مسلم، فعلىٰ هذا يكون قصدهم الإخبار بأنه لا سبيل لهم البتة في وجدان هذا المطلب، لا أنه أمر بالرجوع.

وبينما الجميع علىٰ هذه الحال من الاستغاثة والاستنجاد والرد إذا باللَّه تعالىٰ قد ضرب بينهما ﴿بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ ﴾ وللعلماء في حقيقة هذا السور ثلاثة آراء:

١- قال مجاهد: هو سور الأعراف.

٢ـ وقال قتادة: هو حائطين بين الجنة والنار.

٣ـ وقال آخرون: الحقيقة أنه لا سور، وإنما قُصد بهذا التعبير منع المنافقين من اللحاق بالمؤمنين والحيلولة بينهم، وفي رأيي أنه لا داعي لهذا التكلف.

فماذا كان موقف المنافقين بعد أن ضُرب بينهم وبين المؤمنين هذا السور؟

نادوهم واستغاثوا بهم، واستفهموا منهم، ورجوهم، يوضح ذلك كله قوله تعالىٰ: ﴿ **أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ** ﴾ [الحديد: ١٤].

﴿ **أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ** ﴾ استفهام تقريري: أي أقروا بأننا كنا معكم في الدنيا في العبادات والصلوات والغزوات؛ فأجابوهم بالإيجاب المقيد بالاستثناء: ﴿ **بَلَىٰ** ﴾ لقد كنتم معنا فيما ذكرتم، غير أنكم كنتم بهذه العبادات معنا ظاهرًا، أما في الحقيقة فكنتم منافقين تبطنون الكفر ﴿ **وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ** ﴾ بالكفر والمعاصي، ﴿ **وَتَرَبَّصْتُمْ** ﴾ بالتوبة كما قال ابن عباس، أو بموت محمد كما قال مقاتل، وقلتم يوشك أن يموت فنستريح منه، أو كنتم تتربصون دائرة السوء لتلتحقوا بالكفار، وتتخلصوا من النفاق، ﴿ **وَارْتَبْتُمْ** ﴾: أي شككتم في وعيد اللَّه ،وفي نبوة محمد، وفي البعث، ﴿ **وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ** ﴾ قال ابن عباس: يريدون الباطل، وهو ما كانوا يتمنونه من نزول الدوائر بالمؤمنين، حتىٰ جاء الموت، وهو أمر اللَّه.

والمعنىٰ مازالوا في خدع الشيطان وغروره حتىٰ أماتهم اللَّه وألقاهم في النار، ﴿ **وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ** ﴾: أي غركم باللَّه الشيطان لإلقائه إليكم أن لا خوف عليكم من محاسبة ومجازاة.

وكما وفق اللَّه المؤمنين في ردهم هذا علىٰ المنافقين زادهم حزنًا وألماً بقوله تعالىٰ: ﴿ **فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ** ﴾ [الحديد: ١٥]: أي في هذا اليوم لا يقبل من غير المؤمنين عدلاً وصرفًا؛ لأن النار أولىٰ

بهم، وسيصيرون إليها، وللعلماء ثلاثة آراء في قوله تعالىٰ: ﴿ **هِيَ مَوْلاكُمْ** ﴾، ذهب ابن عباس إلي أن معناها مصيركم، وتحقيقه أن المولىٰ موضع الولي، وهو القرب؛ فالمعنىٰ أن النار هي موضعكم الذي تقتربون منه، وتصلون إليه، وذهب الكلبي إلىٰ أن المعنىٰ هو أن النار هي أولىٰ بكم، وهو قول الزجاج والفراء وأبوعبيدة، وقيل المعنىٰ لا مولىٰ لكم في الحقيقة وواقع الأمر؛ لأن من كانت النار مولاه فلا مولىٰ له حقيقة؛ وذلك كما يقال ناصره الخذلان، ومعينه البكاء: أي لا ناصر له ولا معين، وهذا الرأي يدعمه قوله تعالي: ﴿ **وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ** ﴾ [محمد: ١١].

فالآية الكريمة تفيد أن المنافقين بعد مواقف الحساب في الآخرة يطلبون من المؤمنين ألا يحرموهم من السير معهم، والانتفاع بنورهم يقولون: ﴿ **انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ** ﴾ يقولون ذلك ندمًا وتحسرًا وتضرعًا واستنجادًا، وكأنهم بهذا كله يدعون اللَّه تعالىٰ أن يوفق المؤمنين لإجابتهم إلىٰ ما طلبوا؛ فهل أجيبوا إلي ذلك؟ كلا.

حيث تكفل اللَّه بالرد عليهم عملاً؛ حيث قال: ﴿ **فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ** ﴾، وقولاً حيث قال: ﴿ **فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ** ﴾، كما وفق المؤمنين بالرد عليهم عملاً؛ حيث قالوا: ﴿ **ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا** ﴾، وقولاً حيث قالوا: ﴿ **بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ** ﴾.



الدعاء القرآني لأهل الأعراف

دعاء واحد يصوره قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٧].

هذه الآية ذات صلة وثيقة بقوله تعالىٰ: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ الآية، ويمكن تحديد نقاط البحث في الآيتين فيما يلي:

١ـ البينية. ٢ـ الحجاب. ٣ـ الأعراف وعلة التسمية.

٤ـ أهله. ٥ـ أعمالهم

١ـ المراد من «البينية» إما: ما بين الجنة والنار، أو ما بين أصحاب الجنة والنار.

٢ـ والمراد من «الحجاب»: إما السور المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾ الحديد ـ وهو الراجح ـ وإما سور الأعراف.

٣ـ والمراد من «الأعراف»: أعالي السور المضروب بين الجنة والنار، أو شرف الصراط، روي ذلك عن ابن عباس رضي اللّه عنه، وذهب قوم إلىٰ أن الأعراف ليس بسور، وإنما أقوام سموا بذلك لأنهم يعرفون أهل الجنة والنار، وهذا القول ـ وإن لم يكن مستبعدًا ـ إلا أنه لا دليل عليه، ومما يُرجِّح ضعفه ما يلي:

أ) لابد لهؤلاء القوم من مكان مرتفع ليعرفوا بواسطته أهل الجنة والنار، وأصحاب هذا القول لم يقولوا به، ولم ينكروه.

ب) أصحاب هذا الرأي لم يوضِّحوا من هم هؤلاء الأعراف الذين يعرفون أهل الجنة والنار.

جـ) كما أنهم لم يوضّحوا مصير هؤلاء الأعراف الذين يعرفون أهل الجنة والنار.

أما عِلَّة تسميتهم بذلك؛ فهي ترجع إلىٰ أن الأعراف جمع، والعرف كل مكان عال مرتفع، ومنه عُرْف الفرس والديك، وكذلك كل مرتفع من الأرض عرف، وذلك لأنه بسبب ارتفاعه يصير أعرف مما انخفض عنه.

٤ـ أهل الأعراف: ذهب المفسرون في معرفة حقيقتهم إلىٰ آراء شتىٰ، أذكر فيما يلي أهمها:

١ـ هم الأشراف من أهل الجنة والنار غير أنهم تفاوتوا في تعيينهم إلىٰ ما يلي:

(١) قال مجاهد: هم الملائكة يعرفون أهل الجنة والنار.

(٢) قال البعض: هم الشهداء.

(٣) وقال غيرهم: هم الأنبياء أجلسهم اللَّه علىٰ أعالي ذلك السور إظهارًا لشرفهم، وليكونوا مشرفين علىٰ أهل الجنة والنار.

وقال الحسن: مبررًا لهذا الرأي الأول: ولا ينبغي أن يعترض علىٰ هذا الرأي بأن الأنبياء والملائكة والشهداء لا يليق وصفهم بأنهم يطمعون في دخول الجنة؛ لأنا نقول هذا الطمع علىٰ صورة اليقين، لقوله تعالىٰ في حق ابراهيم: ﴿ **وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ** ﴾ [الشعراء: ٨٢]، كما أن وقوفهم علىٰ أعراف هذا السور يسبب لهم المسرة؛ وذلك بمشاهدتهم أحوال أهل الجنة والنار، حتىٰ إذا ما استقر كل فريق في داره توجهوا أخيرًا إلىٰ الجنة، واستقروا فيها؛ فلم يكن تأخيرهم في الدخول إلا للمسرة والانشراح، ولكن أقول أن الرأي الأول بنقاطه الثلاث لا دليل ولا سند له ينهض به من نص أو غيره.

٢ـ قال عبد اللَّه بن الحرث إنهم مساكين أهل الجنة، ولا دليل عليه أيضًا من نص أو غيره.

٣ـ ذهب قوم إلىٰ القول إنهم قوم خرجوا إلىٰ الغزو بغير إذن آبائهم فاستشهدوا فحبسوا بين الجنة والنار علىٰ هذا السور.

وهذا الرأي كسابقيه غير أنه يمكن إدراجه في الرأي الخامس الآتي:

٤- ذهب البعض إلىٰ القول بأنهم الفساق من أهل الصلاة، وإنما سكناهم الأعراف، وهذا الرأي لا سند له، كما أن سياق الآية غير متجاوب لهذا المعنىٰ، وبخاصة مع قوله تعالىٰ: ﴿**ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ**﴾، كما أن هذا لون من ألوان التكريم، ولا يكون للفُسَّاق.

٥- يرىٰ حذيفة وابن مسعود رضي اللَّه عنهما أنهم أقوام في الدرجة النازلة من أهل الثواب، ولكنهم تفاوتوا في المراد منهم إلىٰ آراء: يمكن تلخيصها في أنهم أقوام تساوت حسناتهم بسيئاتهم؛ فلا جرم ما كانوا من أهل الجنة ولا النار؛ فأوقفهم اللَّه تعالىٰ علىٰ هذه الأعراف لكونها درجة متوسطة بينهما، ثم يدخلهم الجنة بفضله ورحمته، وهم بهذا يكونون آخر قوم يدخلون الجنة.

ولكن طعن الحسن والجبائي والقاضي في هذا الرأي:

فقال الحسن: حينما قيل له هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم بعد أن ضرب علىٰ فخذيه: هم قوم جعلهم اللَّه تعالىٰ علىٰ تعرف أهل الجنة والنار يميزون البعض من البعض واللَّه لا أدري لعل بعضهم الآن معنا.

وذهب الجبائي والقاضي إلىٰ فساد هذا الرأي الخامس، وساقا دليلين علىٰ ذلك:

أ) قال اللَّه تعالىٰ: ﴿**وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [الأعراف: ٤٣] قالا: إن هذه الفقرة من الآية تدل علىٰ أن كل من دخل الجنة فإنه لابد أن يكون مستحقًا لدخولها، وذلك يمنع من القول بوجود أقوام لا يستحقون الجنة يدخلون الجنة بمحض الفضل، لا بسبب الاستحقاق.

ولكن أصحاب الرأي الخامس رَدُّوا هذا الاعتراض بقولهم: إن الآية التي استشهدتم بها لا يلزم أن تكون خطابًا لكل المؤمنين، بل يجوز أن تكون لقوم معينين منهم.

ب) قالا : إن جلوس أصحاب الأعراف في المجالس العالية المشرفة على أهل الجنة والنار دليل التشريف الذي لا يليق إلا بالأشراف، ولا شك أن الذين تساوت حسناتهم وسيئاتهم درجاتهم قاصرة؛ فلا يليق بهم ذلك التشريف .

ورد أصحاب الرأي الخامس اعتراضهما هذا بقولهم : لا نسلم بأن اللّه تعالىٰ أجلسهم علىٰ تلك المجالس علىٰ سبيل التخصيص بمزيد من التشريف والإكرام، وإنما أجلسهم عليها لأنها كالمرتبة المتوسطة بين الجنة والنار، ثم قالوا : وهل النزاع إلا في ذلك؟ فثبت أن الحجة التي عَوَّلوا عليها في إبطال هذا الوجه ضعيفة .

كما ضعفت الآراء الأربعة السابقة، وهذا ما يشجعني علىٰ اختيار الرأي الخامس : وهو أن أهل الأعراف هم من تساوت حسناتهم وسيئاتهم، ويكونون آخر القوم دخولاً إلىٰ الجنة بفضل اللّه ورحمته، وهذا ما قال به حذيفة وابن مسعود .

وهذا الرأي الخامس يتفق معه الرأي الثالث لأن الذين خرجوا للغزو دون إذن آبائهم عصاة؛ فلعلهم بهذه المعصية تساوت حسناتهم وسيئاتهم؛ فأصبحوا للأعراف أهلاً بمعصية آبائهم وطاعة ربهم في الجهاد، لهذا لا داعي لإفرادهم برأي خاص .

٦- أعمال أهل الأعراف : علمية وقولية ونفسية .

فالعلمية : هي معرفتهم لأهل الجنة والنار، وتمييزهم عن غيرهم بعلامات هي وليدة دخولهم الجنة أو النار، أو بما عرفوهم به في الدنيا : فالأولىٰ كابيضاض وجوههم، وكونها مُسْفِرة ضاحكة مستبشرة، وكون كل واحد من المؤمنين أغر محجلاً من آثار الوضوء، والكفار علىٰ العكس من ذلك .

وهذا الرأي لابن عباس، والثانية كعلامات الإيمان والطاعة، والكفر والفسق، وهذا قبل برجحانه .

والقولية : وهي مناداة المؤمنين وتحيتهم بقولهم : ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ : أي سلمتم من كل آفة وشر .

والنفسية: هي طمعهم في دخولهم الجنة مع الداخلين، وطمعهم هذا عمل نفسي لم يطلع عليه أحد سوىٰ اللَّه تعالىٰ؛ لذلك أخبر به، والطمع ما هو إلا الرغبة في تحقيق الشيء المحبوب، كما أنه ينبئ عن التضرُّع والدعاء رجاء تحقيقه، وهذه الجزئية من الآية استدل بها علىٰ أن أهل الأعراف ليسوا أشراف أهل الجنة، بل هم أدونهم.

وهذا العمل القولي والنفسي المتضمن للدعاء الضمني يحدد موقف أهل الأعراف من أهل الجنة، ولما صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار دعوا اللَّه صراحة قائلين: ﴿ **رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾؛ وذلك حينما شاهدوهم في عذابهم وشقائهم، كما أضافوا إلىٰ استعاذتهم هذه تأنيب هؤلاء الوافدين علىٰ النار بقولهم: ﴿ **مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ** ﴾، ويوبخونهم مشيرين إلىٰ اهل الجنة ﴿ **أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ** ﴾ فطمع أهل الأعراف في ان يدخلوا الجنة، بالإضافة إلىٰ رجائهم في ألا يكونوا مع الظالمين في دخولهم النار ما هو إلا تضرُّع ودعاء في أن يكونوا مع الذين قالوا لهم: ﴿ **سَلامٌ عَلَيْكُمْ** ﴾ فهل استجاب اللَّه لأهل الأعراف طمعهم هذا ورجائهم؟

نعم: لقد استجاب اللَّه كل ما املوا فيه؛ فامر ملائكته ان يقولوا لهم: ﴿ **ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ** ﴾، وذهب البعض إلىٰ القول بان اللَّه هو الذي سيجيبهم بنفسه تكريمًا لهم، وجاز ان يكون ذلك القول متبادلاً بينهم بأمر اللَّه تعالىٰ، أي ادخلوا الجنة التي لا يخاف أحد فيها ولا يحزن؛ إذ لا خوف فيها ولا سبب البتة للأحزان.



نتائج وفوائد آيات الدعاء التي وردت في يوم القيامة ومشتملاته

١ـ طلب العودة إلىٰ الدنيا لكسب الخير قولاً وعملا، ولاجتناب الشر.

٢ـ إظهار الندم والتأسف لاتخاذ أصحاب السوء في الدنيا أصدقاء.

٣ـ إعلان الإيمان عند مواجهة العذاب.

٤ـ الاعتراف بالانحراف والخسران.

٥ـ التبرؤ يوم القيامة من قرين السوء، والرغبة الشديدة في عدم رؤيته.

٦ـ تمني الكفار أن يكونوا ترابًا؛ وذلك من شدة الموقف، وسوء المصير.

٧ـ إنكار الإشراك وتكذيب ما نُسب إليهم عند المواجهة.

٨ـ إظهار التحسُّر لدىٰ الكفرة حتىٰ تبدو واضحة في حالتهم النفسية والجسدية والقولية.

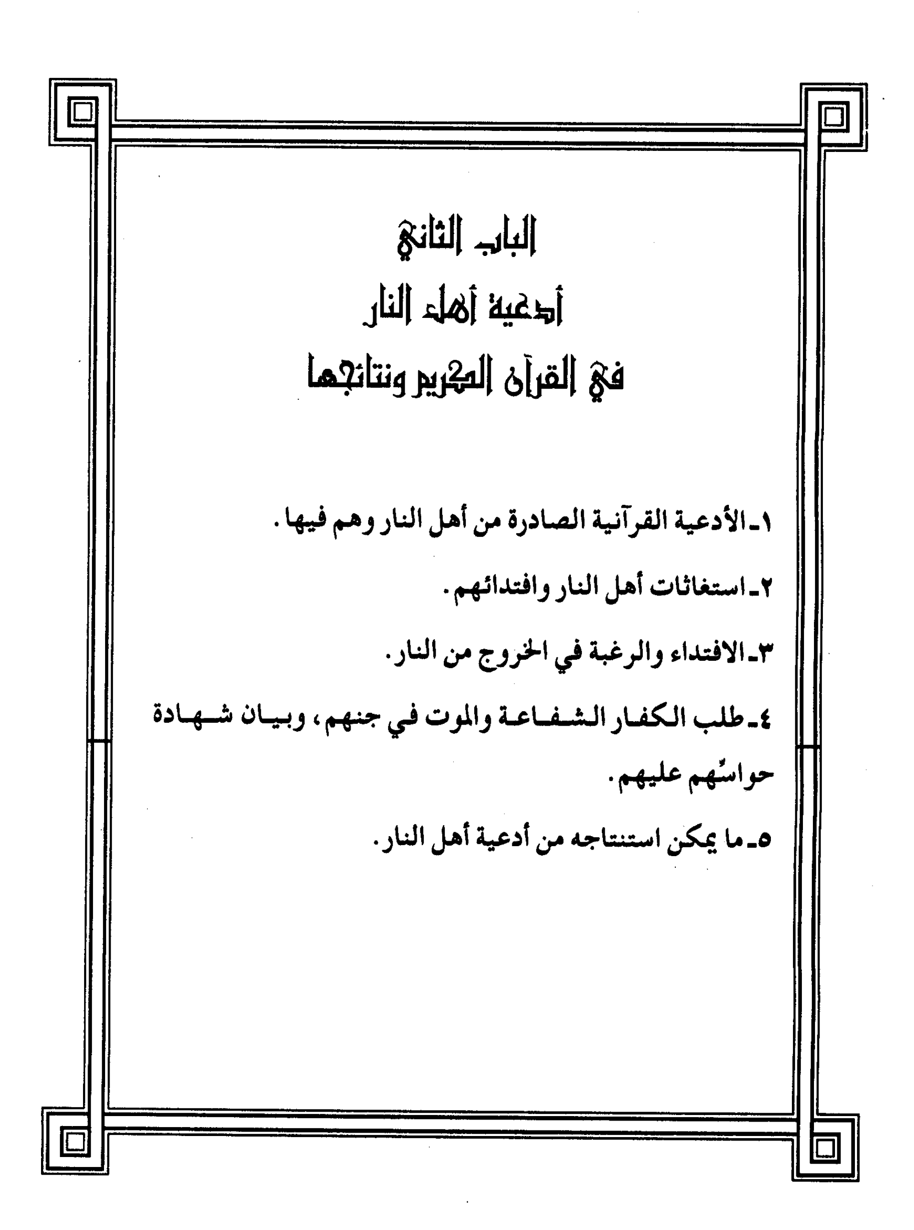
٩ـ صور من الجدال الواقع بين الأتباع والمتبوعين؛ وذلك حينما يُواجه كل منهم بعمله وسوء عاقبته.

١٠ـ تضرُّع المنافقين والتجاؤهم إلىٰ المؤمنين، والرغبة في أن يكونوا في ركاب نورهم لينجوا من العذاب.

١١ـ دعاء الكفرة علىٰ أنفسهم؛ وذلك حينما يتسلَّمون صحائف أعمالهم.

١٢ـ رغبة أهل الأعراف في أن يكونوا مع المؤمنين في الجنة، وأن لا يدخلوا النار مع الكافرين.

❑ ★ ❑ ★ ❑



الباب الثاني
أدعية أهل النار
في القرآن الكريم ونتائجها

١ـ الأدعية القرآنية الصادرة من أهل النار وهم فيها.

٢ـ استغاثات أهل النار وافتدائهم.

٣ـ الافتداء والرغبة في الخروج من النار.

٤ـ طلب الكفار الشفاعة والموت في جنهم، وبيان شهادة حواسِّهم عليهم.

٥ـ ما يمكن استنتاجه من أدعية أهل النار.

الفصل الأول
الأدعية القرآنية الصادرة من أهل النار وهم فيها
تقديم

هذا اللون من الدعاء كثير جدًا لأن أسبابه متعددة، وأهدافه متباينة، فعند معاينة نزلاء جهنم لها يستشعرون خطأهم في حياتهم الدنيا، فيدفعهم هذا الإحساس إلىٰ الندم والحسرة، والتخاصم والتلاعن، والاستغاثة والفداء، وتمني الموت والهرب من النار، والرغبة في العودة إلىٰ الدنيا لعمل الصالح من القول والفعل، لكنهم لا يُجابون إلىٰ شيء من ذلك، بل يجدون الأبواب كلها أمامهم موصدة، كما يُخبرون أنه لا خروج ولا عودة ولا موت.

لهذا قسَّمنا هذه الأدعية إلىٰ ست مجموعات تحمل كل منها معنىٰ من المعاني سالفة الذكر، كما تشتمل علىٰ بعض الآيات، ورتبناها حسبما تحمل من معنى، ووزعناها في أربعة فصول ليسهل التعرف عليها، وأتبعناها بالنتائج.

غير أن الفخر الرازي[1] ذكر عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿**رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ**﴾ [المؤمنون: ١٠٦].

أن أدعية أهل النار تنحصر في ست آيات هي:

١- ﴿**رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا**﴾ [السجدة: ١٢]، فيُجابون: ﴿**وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي**﴾ [السجدة: ١٣]

(١) «التفسير الكبير»: ٦/ ٢١٠.

٢- ﴿ رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ﴾[غافر: ١١]، فيُجابون: ﴿ ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ﴾ [غافر: ١٢].

٣- ﴿ يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ [الزخرف: ٧٧]، فيُجابون: ﴿ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٧]

٤- ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا ﴾ [المؤمنون: ١٠٧]، فيُجابون: ﴿ أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ [إبراهيم: ٤٤].

٥- ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا ﴾ [فاطر: ٣٧]، فيُجابون: ﴿ وَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ [فاطر: ٣٧].

٦- ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ [المؤمنون: ٩٩]، فيُجابون: ﴿ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المومنون: ١٠٨]

أقول لعل الإمام الرازي اكتفىٰ من كل مجموعة بدعاء واحد، أو اكتفىٰ بالأدعية الصريحة دون غيرها، وإلا فأدعية أهل النار كثيرة كما نشاهدها في الفصول التالية.



أدعية المجموعة الأولى

وهي الحاملة لمعاني الندم والحسرة والاعتراف بالخطأ؛ وهي في سورتي غافر والمدثر.

الآية الأولى

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [غافر: ٦٩-٧٩].

التفسير:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ الاستفهام للتعجب: أي ألا ترىٰ أيها السامع، وتعجب من حال هؤلاء المكابرين الذين يجادلون في آيات اللَّه الواضحة، كيف تصرف عقولهم عن الهدىٰ إلىٰ الضلال، ثم بَيَّنَهُم بقوله: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾: أي الذين كذبوا بالقرآن وبسائر الكتب والشرائع السماوية، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وعيد وتهديد: أي فسوف يعلمون عاقبة تكذيبهم، ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ﴾: أي حين يدخلون النار وتربط أيديهم إلىٰ أعناقهم بالأغلال والسلاسل، ﴿يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾: أي يسحبون بتلك السلاسل في الماء الحار المسخن بنار جنهم، ثم يوقدون ويحرقون فيها، قال ابن كثير: ومعنىٰ الآية أن السلاسل متصلة بالأغلال، وهي بأيدي الزبانية،

يسحبون علىٰ وجوههم تارة إلىٰ الحميم، وتارة إلىٰ الجحيم كما قال تعالىٰ: ﴿ **يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ** ﴾ [الرحمن: ٤٤][(١)]، ﴿ **ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ** ﴾: أي ثم قيل لهم تبكيتًا: أين هي الأوثان والأصنام التي كنتم تعبدونها وتجعلونها شركاء لله؟

﴿ **قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا** ﴾: أي فيقولون غابوا عن عيوننا فلا نراهم، ولا نستشفع بهم، ﴿ **بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا** ﴾: أي بل لم نكن نعبد شيئًا، قال المفسرون جحدوا عبادتهم، وإنما فعلوا ذلك لحيرتهم واضطرابهم، ﴿ **كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ** ﴾: أي مثل إضلال هؤلاء المكذبين يضل اللَّه كل كافر، ﴿ **ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ** ﴾: أي ذلكم العذاب بما كنتم تُظهرونه في الدنيا من السرور بالمعصية، وكثرة المال وإنفاقه في المحرمات، ﴿ **وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ** ﴾: أي وبسبب بطركم وأشركم وخيلائكم، قال الصاوي: وهذا وإن كان ذمًا في الكفار، إلا أنه يجر بذيله علىٰ كل من توسع في معاصي اللَّه؛ فله من هذا نصيب[(٢)]، ﴿ **ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا** ﴾: أي ادخلوا أبواب جهنم السبعة المقسومة لكم ماكثين فيها أبدًا، ﴿ **فَبِئْسَ مَثْوَىٰ الْمُتَكَبِّرِينَ** ﴾: أي بئست جهنم مقرًا وسكنًا للمستكبرين عن آيات اللَّه، المُعرضين عن دلائل الإيمان والتوحيد، وإنما قال: ﴿ **مَثْوَىٰ الْمُتَكَبِّرِينَ** ﴾، ولم يقل فبئس مدخل المتكبرين وهو مقتضىٰ النظم؛ لأن الدخول لا يدوم، وإنما يدوم المثوىٰ ولذا خصه بالذم.

نظرات في التفسير:

تحكي هذه الآيات جدال الكافرين في القرآن، وتتعجب من تصرفهم هذا، كما تذمهم قائلة لهم إلىٰ أي طريق تتجهون بجدالكم، ثم تصفهم بتكذيبهم للقرآن في نزوله وقضاياه، كما كذبوا الكتب الإلهية السابقة التي أنزلها اللَّه علىٰ رسله، ثم هددتهم بأنهم سوف يعلمون يقينًا عاقبة تكذيبهم، وذلك حينما توضع الأغلال في

(١) «تفسير ابن كثير»: ٣/ ٢٣٢.

(٢) «حاشية الصاوي علىٰ الجلالين»: ٤/ ١٤.

أعناقهم، ويُسحبون بالسلاسل الموقدة، ويُطرح بهم في جهنم ليصبحوا لها وقودًا؛ فهي محيطة بهم إحاطة السوار بالمعصم، ثم تمتد بهم الآيات ساخرة مستهزئة في بيانها اللاذع قائلة لهم: ﴿**أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِن دُونِ اللَّهِ**﴾.

أين الذين اتخذتموهم لله شركاء؟ أين هم اليوم؟ هل نصروكم ودفعوا عنكم ما أنتم فيه من عذاب؟ فما كان جوابهم إلا أن قالوا ضلوا عنا وغابوا فلم نرهم، ولم نستطع الاستفادة منهم، والنصرة بهم، بل أضربوا عن هذا، وأوغلوا في السخرية بأنفسهم، وتسفيه أحلامهم قائلين ﴿**بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا**﴾: أي لم نكن في الحقيقة نعبد شيئًا جديرًا بالعبادة، وإنما هو خيال وأوهام، ولقد عرفنا حقيقة ذلك عند معايننا هذا العذاب؛ فهم يسوقون هذا الأسلوب في منتهىٰ الندم والحسرة والذِّلة، والاعتراف بالخطأ والإثم، وكأنهم بهذا يعلنون التوبة والاستغفار والعفو، وما هذا إلا الدعاء بعينه، غير أنه لم يكن منهم صريحًا.

فهل بقولهم هذا وتأسفهم عفا اللَّه عنهم أو غفر؟! كلا.

لم يجبهم اللَّه إلىٰ مضمون مقولهم، بل زادهم تعنيفًا بقوله: ﴿**ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ**﴾: أي ذلكم الذي أنتم فيه من العذاب بسبب فرحكم بمتع الدنيا التي أبطرتكم، وباعدتكم عن العقيدة الحقة، والسلوك القويم.

ثم يخرسهم اللَّه تعالىٰ قائلاً لهم: ﴿**ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ**﴾ أمثالكم.

❑ ★ ❑ ★ ❑

الآية الثانية

قال الله تعالىٰ: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧) فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ [المدثر: ٣٨-٤٨].

التفسير:

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾: أي كل نفس محبوسة بعملها، مرهونة عند الله بكسبها، ولا تنفك حتىٰ تؤدي ما عليها من الحقوق والعقوبات، ﴿ إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴾: أي إلا فريق السعداء المؤمنين، فإنهم فكوا رقابهم وخلصوها من السجن والعذاب، بالإيمان وطاعة الرحمن، ﴿ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ أي هم في جنات وبساتين لا يُدرك وصفها يسأل بعضهم بعضًا عن حال المجرمين وتوبيخهم، ولإدخال الألم والحسرة علىٰ نفوسهم يقولون لهم: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴾: أي ما الذي أدخلكم جنهم؟ وجعلكم تذوقون سعيرها؟ قال في البحر: وسؤالهم سؤال توبيخ لهم وتحقير، وإلا فهم عالمون ما الذي أدخلهم النار[(١)]؟

﴿ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴾: أي قال المجرمون مُجيبين للسائلين: لم نكن من المصلين في الدنيا لرب العالمين، ﴿ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴾: أي ولم نكن نتصدق ونحسن إلىٰ الفقراء والمساكين، قال ابن كثير: مرادهم في الآيتين: ما عبدنا ربنا، ولا أحسنا إلىٰ خلقه من جنسنا[(٢)]، ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴾: أي وكنا نتحدث بالباطل مع أهل الغواية والضلالة، ونقع معهم فيما لا ينبغي من الأباطيل، قال في التسهيل: والخوض هو كثرة الكلام بما لا ينبغي من الباطل وشبهه[(٣)]، ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾: أي نكذب بيوم القيامة وبالجزاء والمعاد، وإنما أخر التكذيب بيوم الدين تعظيمًا له لأنه أعظم جرائمهم وأفحشها، ﴿ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴾: أي حتىٰ جاءنا الموت ونحن في تلك المنكرات والضلالات،

---

(١) «البحر المحيط»: ٨/ ٣٨٠.   (٢) «تفسير ابن كثير»: ٣/ ٥٧٣.

(٣) «التسهيل لعلوم التنزيل»: ٤/ ٢١٢.

قال تعالىٰ معقبًا علىٰ اعترافهم بتلك الجرائم: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾: أي ليس لهم شافع ينقذهم من عذاب اللَّه، ولو شفع لهم أهل الأرض ما قُبلت شفاعتهم فيهم، قال ابن كثير: من كان متصفًا بمثل هذه الصفات، فإنه لا تنفعه يوم القيامة شفاعة شافع فيه، لأن الشفاعة إنما تنجح إذا كان المحل قابلاً، فأما من وافىٰ اللَّه كافرًا فإنه مُخلد في النار أبدًا[1].

نظرات في التفسير:

يعلن صدر هذه الآيات أن كل نفس رهن بعملها إلا أصحاب اليمين وهم أصحاب الطاعات؛ فإنهم قد فكوا رقاب أنفسهم بسبب أعمالهم الصالحة التي عملوها في الدنيا، وذلك كما يخلص الراهن رهنه بأداء الحق ثم يسأل أصحاب اليمين رفاقهم أو الملائكة عن المجرمين ولكن من أصحاب اليمين هؤلاء؟

فإن كان السائلون هم أطفال المسلمين فيكون السؤال واردًا علىٰ حقيقته؛ لأنهم لم يرتكبوا إثمًا، ولم يعرفوا العذاب والعقاب، ولهذا لم تكن نفوسهم رهن أعمالهم؛ فكان سؤالهم واردًا علىٰ الفطرة والطبيعة، وإن كان السائلون هم المؤمنون الذين أعطوا كتبهم بأيمانهم فيكون سؤالهم هذا من باب التوبيخ والتخجيل، والاستهزاء بهؤلاء المجرمين.

وعلىٰ كل فالسؤال الوارد من المؤمنين للمجرمين هو: ما سلككم أيها المجرمون في سقر؟

أجابوا علىٰ هذا السؤال بأربع جمل:

الجملة الأولىٰ والثانية دللوا بها علىٰ أنهم ما امتثلوا أمر اللَّه تعالىٰ وما أطاعوه؛ فهذا اعتراف منهم بالتقصير، وهاتان الجملتان هما: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾: أي لم يصلوا الصلاة المفروضة مع المصلين، ولم يدفعوا الزكاة الواجبة عليهم لمصارفها.

أما الجملة الثالثة وهي قولهم: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ هو اعتراف منهم صريح بأنها أفعالهم؛ أو أعمالهم الصالحة التي ضيعوها في الدنيا: وهذا رأي السُّدي.

أو ثواب أعمالهم الصالحة التي أحبطوها: وهذا رأي الأصم.

(١) «مختصر تفسير ابن كثير»: ٣/ ٥٧٣.

أو أعمالهم التي تبعوا فيها السادة وهي أعمال الكفر والمعاصي.

والمراد بالحسرة شدة الندامة حتىٰ تبقي النادم كالحسير من الدواب، وهو الذي لا منفعة فيه: وهذا قول الزجاج[1].

أي يريهم اللَّه أعمالهم لإنزال الندامة في قلوبهم، ولتمزق الحسرة نياط أفئدتهم، ثم ذيل اللَّه الآية بأشد أنواع الإيلام النفسي حيث يأس هؤلاء وهؤلاء مما رغبوا فيه؛ فقال جل شأنه: ﴿ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ فهؤلاء المتبرئون ما دفعهم إلىٰ هذا إلا شعورهم بالتفريط في الحقوق الإلهية والواجبات الدينية، وبالواقع المُر الذي عاشوه في الدنيا ولا قوة في الآخرة، والذي يدفع إلىٰ التحسر والندم والرغبة فيما عند اللَّه تعالىٰ من العفو والمغفرة، وما ذاك إلا الدعاء غير أن اللَّه لم يجبهم إلىٰ طلبهم، ولم يحقق لهم هدفهم، بل زادهم إيلامًا إلىٰ إيلامهم حيث عمل فيهم الإيمان بقوته الكاملة وشدة عقابه، وتقطع أسباب النجاة عنهم، وخلودهم في جهنم هذا الإيمان الذي لم يصادف زمنه، ولم يوافق وقته ولم يوائم طلبه مردود علىٰ أصحابه وغير مقبول.

واستدل بقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ علىٰ أصحاب الكبائر من القبلة يخرجون من النار؛ لأن قوله تعالىٰ: ﴿ مَا هُم ﴾ تخصيص لهؤلاء الكفار بعدم الخروج علىٰ سبيل الحصر، كما أنها تبين أن المراد من الفجار هم الكفار في قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾، [الانفطار: ١٤-١٦] الآية الواحدة والستون من سورة (ص) يطلب الأتباع فيها مضاعفة العذاب للسادة، قال تعالىٰ: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴾ [ص: ٦١] يصف اللَّه تعالىٰ حال الطغاة الظلمة في الآيات السابقة حينما يكونون في جهنم بأن مرجعهم شر مآب، وأن فراشهم الذي ينامون عليه بئس المهاد، وأن طعامهم وشرابهم هو الحميم

---

(١) قال الزجاج: الحسرة شدة الندامة حتىٰ يبقي كحسير من الدواب، وهو الذي لا منفعة فيه، وأصل الحسر: الكشف، يقال: حسر عن ذراعيه: أي كشف، والحسرة انكشاف عن حال الندامة، والمحسرة: المكنسة لأنها تكشف عن الأرض، والطير تنحسر لأنها تنكشف بذهاب الريش، يقال حسر فلان يحسر حسرة وحسرىٰ إذا اشتد ندمه علىٰ أمر فاته، والمحسرة: الإعياء لأنه انكشاف الحال عما أوجبه طول السفر، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٩].

الحار والغساق، ثم يخبر أن لهؤلاء الطاغين مزوقات أخر من شكل هذا الحميم الغساق: أي مثله في الشدة والفظاعة والحرارة والبرودة والنتن، ثم تمضي الآيات مخبرة عنهم حينما يزج بهم في النار أن خزنة جهنم تقول لهم مشيرين إلىٰ الأتباع هذا فوج مقتحم مراكب الشدة، وداخل معكم النار لما لم يكن هذا اللقاء علىٰ نمط اللقاءات الدنيوية من حيث النعمة والمتعة والجاه، بل هو لقاء الأذلاء التعساء، قال السادة لا رحبت النار بهؤلاء الأتباع، ولا أتعست بهم، ثم ذكروا أسباب دعائهم هذا قائلين: ﴿**إِنَّهُمْ صَالُواْ النَّارِ**﴾ [ص: ٥٩] فمن أجل حلولهم في النار واصطلائهم بها ضاقت بهم.

أما الأتباع فردوا علىٰ سادتهم بردين اثنين فقط:

الرد الأول: هو دعائهم عليهم ما دعوا به عليهم بأن تضيق عليهم النار ولا تتسع.

الرد الثاني: هو طلبهم من اللَّه تعالىٰ أن يضاعف لسادتهم العذاب في جهنم، معللين هذا الدعاء بأنهم يستحقونه لأنهم هم الذين مهدوا لهم هذا العذاب: بأن زينوا لهم أسبابه، وحرَّضوهم علىٰ مقدماته.

وجاء طلبهم هذا في مضاعفة العذاب لرؤسائهم موافقًا لقوله تعالىٰ: ﴿**وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ ۝٦٧ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا**﴾ [الأحزاب: ٦٧ ـ ٦٨] وهذا من باب قول الرسول ﷺ: «**من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلىٰ يوم القيامة**» وعليه فيكون أحد قسمي العذاب مقابل للضلال، والقسم الثاني مقابلاً للإضلال.

فالرؤساء يدعون علىٰ الأتباع بأن تضيق بهم النار ولا تتسع بهم، وفي الضيق يكثر الكرب والشدة والمعاناة.

والأتباع يدعون علىٰ السادة بمثل ما دعوا به عليهم، ويزيدون علىٰ ذلك بأن يطلبوا من اللَّه تعالىٰ أن يضاعف لهم العذاب لأنهم أضلوهم؛ فهل استجاب اللَّه لهؤلاء وهؤلاء؟ نعم حيث ضيق النار عليهم لكثرة روادها، وجعلها حارة شديدة، كما أنه ضاعف للطرفين العذاب ،كما سبق بيان ذلك عند قوله تعالىٰ: ﴿**لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ**﴾ [الأعراف: ٣٨].

الفصل الثاني: استغاثات أهل النار وافتدائهم
استغاثات أهل النار

الآية الأولى

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ۝٥٠ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾

[الأعراف: ٥٠ - ٥١]

التفسير:

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ يخبر اللَّه تعالىٰ عن المحاورة بين أهل النار وأهل الجنة بعد أن استقر بكل من الفريقين واطمأنت به الدار، وعن استغاثتهم بهم عند نزول عظيم البلاء من شدة العطش والجوع، والمعنىٰ ينادونهم يوم القيامة أغيثونا بشيء من الماء لنُسكن به حرارة النار والعطش، أو مما رزقكم اللَّه من غيره من الأشربة؛ فقد قتلنا العطش، ﴿ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾: أي منع الكافرين شراب الجنة وطعامها، قال ابن عباس: ينادي الرجل أخاه وأباه فيقول: قد احترقت فأفض عليّ من الماء! فيقال لهم: أجيبوهم؛ فيقولون: إن اللَّه حرمها علىٰ الكافرين[1]، ثم وصف تعالىٰ الكافرين بقوله: ﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا ﴾: أي هزأوا من دين اللَّه وجعلوا الدين سخرية ولعبًا، ﴿ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾: أي خدعتهم بزخارفها العاجلة، وشهواتها القاتلة، وهذا

(١) «الطبري»: ١٢/ ٤٧٣.

شأنها مع أهلها تعر وتضر، وتخدع ثم تصرع، ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾: أي ففي هذا اليوم نتركهم في العذاب كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا؛ فلم يخطر ببالهم، ولم يهتموا له، قال الألوسي: الكلام خارج مخرج التمثيل: أي نتركهم في النار وننساهم مثل نسيانهم لقاء هذا اليوم العظيم الذي ينبغي ألا يُنسىٰ[1]، وقال ابن كثير: أي يعاملهم معاملة من نسيهم لأنه تعالىٰ لا يشذ عن علمه شيء، ولا ينساه[2]، ﴿وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾: أي وكما كانوا مُنكرين لآيات اللَّه في الدنيا، يكذبون بها ويستهزءون، ننساهم في العذاب.

نظرات في التفسير:

يصور لنا ابن عباس رضي اللَّه عنه طلب نزلاء النار بقوله: لما صار أصحاب الأعراف إلىٰ الجنة طمع أهل النار بفرج بعد اليأس؛ فقالوا يا رب إن لنا قرابات من أهل الجنة؛ فائذن لنا حتىٰ نراهم ونكلمهم؛ فأمر اللَّه الجنة فتزخرفت، ثم نظر أهل جهنم إلىٰ قراباتهم في الجنة، وما هم فيه من النعيم فعرفوهم، ونظر أهل الجنة إلىٰ قراباتهم من أهل جهنم فلم يعرفوهم، وقد اسودت وجوههم، وصاروا خلقًا آخر فنادىٰ أصحاب النار أصحاب الجنة بأسمائهم، وقالوا أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم اللَّه، طلبوا الماء نصًا، والطعام ضمنًا لأن بهما الحياة، وذكروا الماء لأهميته كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، ولشدة حاجتهم إليه، ولأنه لا يستغنىٰ عنه مدة طويلة كالطعام، ثم أرادوا أن يضيفوا شيئًا معه مما رزقهم اللَّه تعالىٰ من مأكولات الجنة لا من سوائلها؛ إذ اكتفوا عنها بالماء، وصيغة طلبهم تدل أولاً: على أنهم أسفل أهل الجنة؛ لأن الإفاضة لا تكون إلا من أعلى كما قال تعالى: ﴿إِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٩٨] ولتأكيد هذا العلو والسمو ذكروا كلمة ﴿عَلَيْنَا﴾.

---

(١) «روح المعاني»: ٨/١٢٧.

(٢) «تفسير ابن كثير»: ٢/٢٤.

وثانيًا: علىٰ طلبهم الماء الكثير؛ لأنهم يطلبونه علىٰ صورة الإفاضة والفيضان لشدة عطشهم.

وثالثًا: علىٰ أنهم خماص البطون، شديدو الجوع، ومما يوضح ذلك قول أبي الدرداء: أن اللّه تعالى يرسل علىٰ أهل النار الجوع حتىٰ يزداد عذابهم؛ فيستغيثون فيغاثون بالضريع الذي لا يسمن ولا يغنىٰ من جوع، ثم يستغيثون فيغاثون بطعام ذي غصة، ثم يذكرون الشراب ويستغيثون فيدفع إليهم الحميم والصديد بكلاليب الحديد فيقطع ما في قلوبهم، ويستغيثون إلىٰ أهل الجنة ـ كما في آيتنا هذه ـ ولكن سؤالهم هذا: هل نتج عن اعتقادهم بجواز حصوله أم لا وإنما هو اليأس؟

ولكن يتساءل الإنسان هل طلبهم هذا حقيقة يريدونها، أم أنه تعبير صادر عنهم للدلالة علىٰ يأسهم؟ فإن كان الأول فدليله ما روي عن ابن عباس رضي اللّه عنهما سابقًا، وإن كان الثاني فدليله ما ذهب إليه القاضي حيث قال: إن طلبهم هذا مع اعتقادهم بدوام عقابهم يدل علىٰ أنهم طلبوه مع يأسهم، غير أن الآيس من الشيء قد يطلبه كما يقال في المثل: «الغريق يتعلق بالزَّبَد» وإن علم أنه لا يغيثه.

كما يمكن القول إنهم لم يطلبوا الماء والطعام لشدة حاجتهم إليها فحسب، بل تلك عادتهم وطبيعتهم التي ألفوها في الدنيا؛ فكأنهم ما كانوا في الدنيا إلا لأجل الماء والطعام؛ لذلك يقول الإمام الرازي في تفسيره: لقد رأيت في بعض الكتب أن قارئًا قرأ قوله تعالىٰ حكاية عن الكفار: ﴿**أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ**﴾ في تذكرة الأستاذ أبي على الدقاق فقال الأستاذ هؤلاء كانت رغبتهم وشهوتهم في الدنيا في الشراب والأكل، وفي الآخرة بقوا علىٰ هذه الحالة، وذلك يدل علىٰ أن الرجل يموت علىٰ ما عاش عليه، ويحشر علىٰ ما مات عليه، كما يدل هذا أيضًا علىٰ أن حب الدنيا مبدأ كل آفة، كما قال عليه الصلاة والسلام: «**حب الدنيا رأس كل خطيئة**»، هذا الصنف من الناس يطلبون من أقربائهم في الجنة أن يمدوهم بالماء والطعام ولو للحظات

إذ ملوا الضريع والغسلين؛ فهل استجيب لهم طلبهم، وحققت لهم رغبتهم، وأنجز لهم دعاؤهم؟ كلا بل أنطق اللَّه أقربائهم الذين في الجنة أن يقولوا لهم لا ماء لكم عندنا، ولا طعام؛ لأن اللَّه حرمهما علىٰ الكافرين، وقد كفرتم بوجود اللَّه وكتبه ورسالاته، واتخذتموها لعبًا ولهوًا، وعبدتم غيره عبثًا وزورًا، واتخدتم اللَّهو واللعب معتقدًا لكم، وحصل لكم الغرور بلذة الحياة الدنيا التي عشتموها طمعًا في طول العمر ورغد العيش، وكثرة المال وقوة الجاه، حتىٰ حجبتكم هذه المتع عن حقيقة الدين السماوي وأتباعه، وفي هذا من السخرية بهم ما فيه وزيادة إيلامهم يقولون لهم، أو تقول لهم الملائكة بأمر اللَّه، أو القائل لهم هو اللَّه تعالىٰ: إنكم لن تجابوا إلىٰ طلبكم فحسب، بل سننساكم، ولن نقيم لوجودكم وزنًا جزاء نسيانكم لآيات اللَّه في الدنيا جحودًا وإنكارًا، فقال جل شأنه: ﴿ **فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ** ﴾؛ فآثر ضمير الغائب تحقيرًا لهم؛ فاستغاثة أصحاب النار بأصحاب الجنة ما هي إلا اعتراف وإقرار بالذنب، وندم وتوبة، ورغبة في العفو، وما ذاك إلا الدعاء، وهم وإن كانوا قد طلبوا من البشر ففي الحقيقة الطلب موجه منهم إلىٰ اللَّه؛ إذ لا يقدر أقرباؤهم في الجنة أن يمدوا إليهم يد العون والمساعدة بالماء والطعام إلا إذا أقدرهم اللَّه، وأجاز ذلك لهم، ولا يجيز اللَّه ذلك إلا إذا غفر وعفا، ولا يكون ذلك إلا لتضمن طلبهم هذا معنىٰ الدعاء إلىٰ اللَّه تعالىٰ.



الآية الثانية

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

التفسير:

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ ظاهره أمر وحقيقته وعيد وإنذار، أي قل يا محمد لهؤلاء الغافلين لقد وضح الحق، وبان بتوضيح الرحمن، فإن شئتم فآمنوا وإن شئتم فاكفروا كقوله تعالىٰ: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]، ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾: أي هيأنا للكافرين باللَّه ورسوله نارًا حامية شديدة أحاط بهم سورها كإحاطة السوار بالمعصم، ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾: أي وإن استغاثوا من شدة العطش فطلبوا الماء أُغيثوا بماء شديد الحرارة كالنحاس المذاب، أو كعكر الزيت المُحمىٰ يشوي وجوههم إذا قرب منهم من شدة حره، وفي الحديث: «مَاءٌ كَعَكَرِ الزَّيْتِ فَإِذَا قُرِّبَ إِلَيْهِ سَقَطَتْ فَرْوَةُ وَجْهِهِ فِيهِ»[1]: أي سقطت جلدة وجهه فيه أعاذنا اللَّه من جهنم، ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾: أي بئس ذلك الشراب الذي يُغاثون به، وساءت جهنم منزلاً ومقيلاً يرتفق به أهل النار.

نظرات في التفسير:

تتصل هذه الآية بقوله تعالىٰ: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الكهف: ٢٨]، فهي في عداد الأوامر الإلهية ونواهيها؛ فقد أمر اللَّه تعالىٰ فيها نبيه محمدًا ﷺ بأن يصدع بالحق، ويعلن للخلق جميعًا أن طاعتهم لا تنفع اللَّه، كما أن معصيتهم لا تضره تعالىٰ؛ فقال جل شانه: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾، ثم فسر الحق بقوله تعالىٰ: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن﴾.

(١) الحديث أخرجه أحمد والترمذي.

واستدل المعتزلة بهذه الفقرة وما بعدها علىٰ صحة مذهبهم: وهو أن الإيمان والكفر أمرهما مفوض لإرادة الإنسان ومشيئته.

كما استدل أيضًا أهل السنة علىٰ صحة مذهبهم بهذه الفقرة وما بعدها قائلين: إن صريح العقل يدل علىٰ ذلك لأن الفعل الاختياري يمتنع حصوله بدون القصد إليه، وبدون الاختيار له، فإن كان حصول ذلك القصد والاختيار موقوفًا علىٰ قصد آخر، واختيار آخر يتقدمه لزمه الدور والتسلسل، وكلاهما باطل؛ فوجب أن تنتهي هذه القصود وتلك الاختيارات إلىٰ قصد واختيار يخلقه اللَّه تعالىٰ في العبد علىٰ سبيل الضرورة عند حصول ذلك القصد الضروري والاختيار الضروري يوجب الفعل، فالإنسان شاء أو لم يشأ إن لم تحصل في قلبه تلك المشيئة الجازمة الخالية من المعارض لم يترتب الفعل، وإذا حصلت تلك المشيئة الجازمة شاء أو لم يشأ يجب ترتيب النص عليه، فلا حصول المشيئة مترتب علىٰ حصول الفعل، ولا حصول الفعل مترتب علىٰ المشيئة؛ فالإنسان مضطر في صورة مختار.

وقد قرر الشيخ أبو حامد الغزالي رحمه اللَّه تعالىٰ هذا المعنىٰ في باب التوكل من مؤلفه «إحياء علوم الدين».

وأدلة أهل السُّنة في ذلك قوله تعالىٰ: ﴿**وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ**﴾ [الإنسان: ٣٠] وقول المصطفىٰ ﷺ: «**مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ**» ثم أخبر اللَّه تعالىٰ أن من رجح الكفر علىٰ الإيمان كان ظالمًا، ولهذا فقد أعد اللَّه له ولمن هم علىٰ شاكلته نارًا أحاط سرادقها بهم؛ فلا يستطيعون النجاة ولا يتمكنون من الهروب والفرار، فقال تعالىٰ: ﴿**إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا**﴾.

والأرجح في حقيقة السرادق أنه هو الحجزة التي تكون حول الفسطاط؛ فأثبت القرآن للنار شيئًا شبيهًا بذلك يحيط بهم من جميع الجهات، والمقصود من هذا التعبير، أن هؤلاء الظالمين الكافرين لا مخلص لهم من النار، كما أنه لا فرجة يتفرجون منها

ما وراءها من غير النار، بل هي محيطة بهم من كل جانب إحاطة السوار بالمعصم.

وقد ذهب البعض إلىٰ أن المراد من هذا السرادق هو «الدخان» الذي وصفه اللَّه تعالىٰ في قوله: ﴿ انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ ۝ لا ظَلِيلٍ وَلا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴾ [المرسلات: ٣٠ - ٣١]، غير أن هذا الرأي مختلف مع سياق هذه الآية لأن فقراتها تدل علىٰ أن هذا السرادق إنما هو في جهنم بدليل استغاثتهم، وغوثهم بماء كالمهل يشوي الوجوه، وهذا لا يكون إلا في النار، أما آية الظل والظليل إنما يكون تحقيقها قبل دخول جنهم.

بعد أن وصف القرآن الكريم النار بأنها محيطة بالكفار والظالمين ذكر حالتهم التي يكونون عليها؛ فقال تعالىٰ: ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾.

فهم عند إحاطتهم بالنار يستغيثون ويصرخون ويطلبون النجدة من هذا العذاب: سواء من اللَّه أو من خزنة جهنم؛ فهل استجاب اللَّه لهم وكشف عنهم بعض ما هم فيه من الضرر والسوء؟ لا لأن الدار ليست دار تكليف، كما أنها لم تعد للعمل، وإنما هي دار جزاء: ثوابًا كان هذا الجزاء أو عقابًا؛ لهذا كان الرد الإلهي عليهم شديدًا؛ حيث لم يغثهم اللَّه، بل زاد في تعذيبهم فقال: ﴿ يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ ﴾ وهذا التعبير القرآني علىٰ سبيل التهكم والاستهزاء كقولهم: «تحيتهم بينهم ضرب وجيع»؛ فهي مشاكلة بلاغية، ولكن ما المهل؟ ولِمَ لمْ يغاثوا بغيره؟

تعددت آراء العلماء فيه وفيما يلي أهمها:

١) ففي حديث مرفوع إلىٰ النبي ﷺ أنه دردي الزيت.

٢) وعن ابن مسعود رضي اللَّه عنه أنه دخل بيت المال وأخرج نفاثة كانت فيه وأوقد عليها النار حتىٰ تلألأت، ثم قال هذا هو المهل.

٣) وقال أبو عبيدة والأخفش كل شيء أذبته من ذهب أو نحاس أو فضة فهو المهل.

٤) وقيل هو الصديد والقيح.

٥) وقيل هو ضرب من القطران.

ولعل الحكمة من إغاثتهم بهذا المهل دون غيره لأنهم طعموا في النار كثيرًا فاشتدت الحرارة في بطونهم أو جلودهم أو حلوقهم؛ فطلبوا الماء لإطفاء هذه الحرارة، ولدفع الظمأ الذي أصابهم وأحرق جسدهم؛ فطلبوا الماء مستغيثين فأغيثوا بالمهل؛ لأنه يشبه الماء سيولة، ولم يردِ اللَّه بالمهل تخفيف آلامهم، بل أراد هذا الإيلام بهم، لذلك قال تعالىٰ: ﴿ **يَشْوِي الْوُجُوهَ** ﴾ وذكر الوجوه إما من ذكر البعض وإرادة الكل، وإما للدلالة علىٰ أن هذا الذي كالمهل لم يحرق حلوقهم وبطونهم فحسب، بل تجاوز ذلك إلىٰ الوجوه، وهي بعيدة عن مجراه الطبيعي، وما ذاك إلا لشدة أثره حيث انعكست آثاره علىٰ الوجه، ثم ذيلت الآية بما يفيد ذم هذا الشراب؛ فقالت ﴿ **بِئْسَ الشَّرَابُ** ﴾؛ لأن المقصود من الشراب تسكين الحرارة، وهذا يزيدها ويبلغ منتهاها، كما ذمت النار فقالت: ﴿ **وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا** ﴾: أي ساءت النار منزلاً ومجتمعًا للرفقة، وهم الكفار والشياطين، والمعنىٰ بئس الرفقاء هؤلاء، وبئس موضع الترافق النار.

وذهب آخرون إلىٰ القول بأن المراد من «المرتفق» هو المتكأ؛ ولذا سمي المرتفق مرتفقًا لأنه يتكأ عليه، فالاتكاء إنما يكون للاستراحة، والمرتفق موضع استراحة.

فكانت إجابة استغاثتهم من جنس ما قدموه من عمل في الدنيا، فاستغاثتهم من العذاب: إما أن يكونوا قد طلبوا النجدة من اللَّه، أو من خزنة جهنم، أو هي صرخات جوفاء، وعلىٰ كل فاستغاثة مترتبة علىٰ هذا الألم، ومؤذنة باعترافهم بالخطأ، ورغبتهم في العفو؛ فهي لو لم تكن دعاء صريحًا فلا أقل من أن تكون دعاء ضمنيًا؛ لأن المستغيث يطلب النجدة، والنجدة لا تكون إلا ممن هو أهل لها، ولا يستجيب من كان أهلاً لها إلا إذا حملت الاستغاثة التضرع والتذلل والتوبة، وما ذاك إلا الدعاء.

❑ ★ ❑ ★ ❑

افتداء أهل النار

قال اللّه تعالىٰ: ﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴾: [المعارج: ١١-١٨]

التفسير:

﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾: أي يرونهم ويعرفونهم حتىٰ يرىٰ الرجل أباه وأخاه وقرابته وعشيرته فلا يسأله ولا يكلمه، بل يفر منه، كقوله تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧]، قال ابن عباس: ﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾: أي يعرف بعضهم بعضًا، ويتعارفون بينهم، ثم يفر بعضهم من بعض[(١)].

﴿ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴾: أي يتمنىٰ الكافر - مرتكب جريمة الجحود والتكذيب - لو يفدي نفسه من عذاب اللّه بأعز من كان عليه في الدنيا: من ابن وزوجة وأخ، ﴿ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴾: أي عشيرته التي كانت تضمه إليها، ويتكل في نوائبه عليها، وليس هذا فحسب، بل يتمنىٰ لو يفتدي بجميع أهل الأرض.

﴿ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴾: أي وبجميع من في الأرض من البشر وغيرهم، ثم ينجو من عذاب اللّه، ولكن هيهات أن ينجو المجرم من العذاب، أو ينقذه ذلك من شدة الكرب، وفادح الخطب، قال الإمام الفخر: و﴿ ثُمَّ ﴾ لاستبعاد الإنجاز، يعني يتمنىٰ لو كان هؤلاء جميعًا تحت يده، وبذلهم في فداء نفسه، ثم ينجيه ذلك، وهيهات أن ينجيه[(٢)].

---

(١) «تفسير الطبري»: ٢٩/ ٤٦.

(٢) «التفسير الكبير»: ٣٠/ ١٢٧.

﴿كَلاَّ إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ : ﴿كَلاَّ﴾ أداة زجر وتعنيف، أي لينزجر هذا الكافر الأثيم، وليرتدع عن هذه الأماني؛ فليس ينجيه من عذاب اللَّه فداء، بل أمامه جهنم تتلظىٰ نيرانها وتلتهب، ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ : أي تنزع بشدة حرها جلدة الرأس[1] من الإنسان كلما قُطعت عادت كما كانت زيادة في التنكيل والعذاب، وخصها بالذكر لأنها أشد أجزاءٔ الجسم حساسية وتأثرًا بالنار.

﴿تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ : أي تنادي جهنم وتهتف بمن كذب بالرحمن، وأعرض عن الإيمان، قال ابن عباس: تدعو الكافرين والمنافقين بأسمائهم بلسان فصيح تقول إليّ يا كافر، إليّ يا منافق، ثم تلتقطهم كما يلتقط الطير الحَبّ.

﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ﴾ : أي وتدعو من جمع المال وخبأه وكنزه في الخزائن والصناديق، ولم يؤد منه حق اللَّه وحق المساكين، قال المفسرون: والآية وعيد شديد لمن يبخل بالمال ويحرص علىٰ جمعه فلا ينفقه في سبيل الخير، ولا يخرج منه حق اللَّه وحق المسكين، وقد كان الحسن البصري يقول: يا ابن آدم: سمعت وعيد اللَّه ثم أوعيت الدنيا، أي جمعتها من حلال وحرام!

نظرات في التفسير:

في مستهل هذه السورة يقول اللَّه تعالىٰ: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١]، قال المفسرون هو النضر بن الحارث يسأل عن العذاب بقوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] وكأنهم قالوا أين هذا العذاب الذي تزعمون وقوعه فأنزل اللَّه تعالىٰ: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ : أي ما تسألون وقوعه، وتستعجلون نزوله واقع لا محالة في يوم القيامة، الذي يعدل مقداره عند الكفار خمسين ألف سنة مما يعدون، أما عند المؤمنين

(١) هذا قول ابن عباس، وقال مقاتل: تنزع النار الهامة والأطراف فلا تترك لحمًا ولا جلدًا إلا أحرقته.

فيكون أخف من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا، كما جاء في الحديث.

إنهم يا محمد يرون هذا العذاب بعيد الوقوع، ونراه نحن قريبًا، ومن سمات هذا اليوم أن تكون السماء كذائب الفضة، والجبال كالصوف خفة وطيرانًا، ومن صفاته أيضًا أنه لا يسأل حميمٌ حميمًا، ولا يناجي قريبٌ قريبًا، ولا يساعد صديق صديقًا.

يومئذ يبصر هؤلاء الأحباء بعضهم بعضًا، ويتعارفون، غير أنهم لا يشفعون، ولا يتكلمون، ومن سماته أيضًا أن الكفار يتمنون في جهنم - وهم يصلون نارها - أن يفتدوا هذا العذاب بأعز ما لديهم، وبأقرب الناس إليهم: بأبنائهم الذين هم أعز ما لديهم، وزوجاتهم وأشقائهم الذين هم أيمانهم وسواعدهم، وفصائلهم التي انفصلوا منها؛ وهي قبيلته وأسرته التي آوته منذ أن كان صغيرًا، وحمته ودافعت عنه بعد أن صار كبيرًا.

يود هذا الكافر أن يفتدي هذا العذاب بكل ما سلف بيانه، بل وبمن في الأرض جميعًا، كما جاء ذلك في آية أخرى، والتمني مستتبع للرغبة المستتبعة للأمل والرجاء والاسترحام والاستغفار، وما هو إلا توبة، والتوبة ما هي إلا الدعاء، فهل يستجيب اللَّه يوم القيامة هذا التمني من هؤلاء الكفار؟!

كلا لن يستجيب تمنيهم هذا ولا تضرعهم، بل يرد عليهم بما يفيد ردعهم وزجرهم بأبلغ صورة، وأكمل بيان فيقول: ﴿**كَلَّآ**﴾: أي لا يقبل منكم فداء لأن جهنم تتلظى وتلتهب على الكفار، ومن قوتها أنها تنزع الشوى: أي جلدة الرأس حال كونها منادية لمن أدبر عن الإيمان، وتولى عن الإسلام، وجمع المال فأمسكه في وعائه، ولم يؤد حق اللَّه تعالى منه، هذه النار تقول لمن هؤلاء صفتهم: «إليَّ»، ويوم يناديها اللَّه تعالى قائلا: ﴿**هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ**﴾ [ق: ٣٠] اهـ.



الفصل الثالث: الافتداء والرغبة في الخروج من النار

الآية الأولى

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٣ - ١٠٩].

التفسير:

﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾: أي زادت سيئاته علىٰ حسناته، ﴿ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ ﴾: أي فهم الأشقياء الذين خسروا سعادتهم الأبدية بتضييع أنفسهم وتدنيسها بالكفر والمعاصي، ﴿ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾: أي هم مقيمون في جهنم لا يخرجون منها أبدًا، ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾: أي تحرقها بشدة حرها، وتخصيص الوجوه بالذكر لأنها أشرف الأعضاء، ﴿ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾: أي وهم في جهنم عابسون مشوهو المنظر، قال ابن مسعود: قد بدت أسنانهم، وتقلصت شفاههم كالرأس المشيط بالنار، وفي الحديث: «تَشْوِيهِ النَّارُ فَتَقَلَّصُ شَفَتَهُ العُلْيَا حَتَّىٰ تَبْلُغَ وَسْطَ رَأْسِهِ، وَتَسْتَرْخِي شَفَتَهُ السُّفْلَىٰ حَتَّىٰ تَبْلُغَ سُرَّتَهُ»[1]، ﴿ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾: أي يقال لهم: ألم تكن آيات القرآن الساطع تُقرأ عليكم في الدنيا، ﴿ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾: أي فكنتم لا تصدقون بها مع وضوحها، ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا ﴾: أي غلبت علينا شقاوتنا، ﴿ وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴾: أي وكنا ضالين عن الهدىٰ بسبب اتباعنا للملذات والأهواء،

(١) أخرجه أحمد والترمذي، وقال: حسن غريب.

﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا ﴾ : أى أخرجنا من النار ورُدَّنا إلىٰ الدنيا ﴿ فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ : أى فإن رجعنا إلىٰ الكفر والمعاصي بعد ذلك نكون قد تجاوزنا الحد في الظلم والعدوان، أقروا أولا بالإجرام، ثم تدرجوا من الإقرار إلىٰ الرغبة والتضرع؛ فجاء الجواب بالتيئيس والزجر.

﴿ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ ﴾ : أى ذلوا في النار وانزجروا كما تنزجر الكلاب، ولا تكلموني في رفع العذاب، قال في التسهيل: ﴿ اخْسَئُوا ﴾ كلمة تستعمل في زجر الكلاب؛ ففيها إهانة وإبعاد[١]، ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ : قال مجاهد: هم بلال وخباب وصُهيب، وغيرهم من ضعفاء المسلمين، وكان أبو جهل وأصحابه يهزأون بهم[٢].

نظرات في التفسير:

بعد أن تكلمت الآيات السابقة عن حال الخلق يوم النفخ الأعظم، وأن الأنساب بينهم لا تفيد، والسؤال بينهم لا يجدي، وأوضحت من هم المفلحون الفائزون بالجنة، وهم من ثقلت موازين أعمالهم الصالحة، وأوضحت بعد ذلك من خفت موازين أعمالهم الفاسدة حيث وصفهم اللَّه تعالىٰ بأربع صفات:

١ - ﴿ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ قال ابن عباس: غبنوها: أي حرموها ما كانت تستحقه من النعيم لو أطاعت ربها، وذلك بأن سلموا منازلهم من الجنة إلىٰ المؤمنين بسبب عصيانهم اللَّه تعالىٰ وتعاليمه.

٢ - ﴿ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ : أي باقون فيها علىٰ الدوام، لا يخرجون منها أبدًا.

٣ - ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ : واللفح أقل تأثيرًا من النفح، وإن كان الزَّجَّاج يقول: إنهما واحد.

٤ - ﴿ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾ : الكلوح هو تقلص الشفتين، وتباعدهما عن الأسنان، وذلك كما ترىٰ الرءوس المشوية.

---

(١) «التسهيل»: ٣/٥٧.
(٢) «القرطبي»: ١٢/١٥٤.

قـال النبي ﷺ: «تَشْوِيهِ النَّارُ فَتَقْلِصُ شَفَتَهُ العُلْيَا حَتَّىٰ تَبْلُغَ وَسْطَ رَأْسِهِ، وَتَسْتَرْخِي شَفَتَهُ السُّفْلَىٰ حَتَّىٰ تَبْلُغَ سُرَّتَهُ».

بعد هذا الوصف الإلهي لنزلاء جهنم يسألهم اللَّه تعالىٰ سؤال توبيخ وتهكم قائلا: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ فماذا كان جوابهم؟ في الحقيقة لا رد ولا جواب، وإنه ندم واعتراف بالذنب، تجلىٰ ذلك في جملهم الأربع التي بدأوها بقولهم:

١ ـ ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾: وهي سوء العاقبة ـ قرئ شقوتنا وشقاوتنا بفتح الشين وكسرها فيهما ـ قال الكشاف: أي ملكتنا من قولك غلبني فلان علىٰ كذا إذا أخذه منك. قال مسلم: المراد من الشقوة: حال الشقاء، وقد يجيء لفظ فُعلىٰ ويراد به الهيئة والحال. قال الجبالي: المراد أن طلبنا اللذات المحرمة، وحرصنا علىٰ العمل القبيح ساقنا إلىٰ هذه الشقاوة، من باب إطلاق المسبب علىٰ السبب، وعلىٰ كل ليس هذا باعتذار منهم لعلمهم بأنه لا عذر لهم فيه، لكنه اعتراف بقيام حجة اللَّه تعالىٰ عليهم في سوء صنيعهم.

٢ ـ ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾: أي انحرفنا انحرافًا تامًا عن الطريق السوي، ولم نهتد إلىٰ الصواب؛ ففي هاتين الجملتين اعتراف منهم صريح أن جريهم وراء الملذات المحرمة، وحرصهم علىٰ عمل القبيح هو الذي أدىٰ بهم إلىٰ سوء العاقبة والوقوع في هذه الشقاوة التي ملكت عليهم كل تصرفاتهم، وهذا الاعتراف ما هو إلا ندم مستتبع للتوبة التي هي بدورها مستتبعة للتضرع والدعاء، غير أن هؤلاء الكفار لم يكتفوا بهذا الدعاء الضمني في مقام الشدة والألم، بل دفعهم العذاب إلىٰ التضرع بالدعاء قائلين:

٣ ـ ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾: طلبوا الخروج من النار إلىٰ دار الدنيا ليتمكنوا من الصالحات قولا وعملا، واعتبروا هذا الطلب فديته مسلمة بدليل.

٤ ـ وهي: ﴿فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾: أي فإن أخرجتنا من خلقتنا وربيتنا وتكفلت بكل أمرنا من النار، وأرجعتنا إلىٰ الدنيا ثم عدنا بعد هذا الإكرام فإنا لظالمون لأنفسنا حيث أَوْرَدَتْنَا موارد الهلاك.

فهذه الجمل الأربع كلها اعتراف منهم بكفرهم ومعاصيهم، كما أنها اعتذار عما بدر منهم، ودعاء أيضًا مرفوع للَّه رجاء أن يتفضل مشكورًا في إعادتهم إلىٰ الدنيا لفعل الصالحات.

لكن كيف تأتىٰ لهم جواز هذا الطلب عقلا مع علمهم الموثق بدوام عقابهم؟

الجواب أحد أمرين:

١ ـ إما أنهم قالوا ذلك من باب الغوث والاسترواح.

٢ ـ وإما أن السهو قد يلحقهم في بعض الأحوال لشدة العذاب؛ فهل استجيب لطلبهم؟ نعم أجيبوا بقوله تعالىٰ: ﴿ **اخْسَئُوا** ﴾ وهي كلمة زجر للكلاب، يقال خسأ الكلب، والمعنىٰ ذلوا فيها وانزجروا كما تنزجر الكلاب إذا أُزجرت.

٢ ـ ﴿ **وَلا تُكَلِّمُونِ** ﴾: لا يفهم من هذه الجملة نهيهم عن الكلام لأن دار الآخرة لا تكليف فيها، بل المراد من هذا النهي هو زجرهم عن الكلام في رفع العذاب فإنه لا يرفع ولا يخفف.

هذا هو آخر كلام يتكلمون به، ثم لا كلام لهم بعد ذلك إلا الشهيق والزفير، والعواء كعواء الكلاب، لا يَفْهمون ولا يُفهمون.

ثم بين اللَّه تعالىٰ أحد الأسباب التي دفعت بهم إلىٰ هذا العذاب فقال تعالى: ﴿ **إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا**[1] **حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ** ﴾ [المؤمنون: ١٠٩، ١١٠].

فسبب سخريتكم منهم بسبب مقالتهم هذه كنتم أحقاء لدخول جهنم والاصطلاء بنارها، ثم زاد اللَّه تعالىٰ هؤلاء المستهزئين غمًا وألمًا، وذلك بتوضيح نعم اللَّه علىٰ هؤلاء المؤمنين فقال جل شانه: ﴿ **إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ** ﴾ [المؤمنون: ١١١] اهـ.

❑ ★ ❑ ★ ❑

(١) قال الفراء والكسائي: ﴿ **سِخْرِيًّا** ﴾ بكسر السين بمعنىٰ الاستهزاء، بضم السين بمعنىٰ السخرية.

الآية الثانية

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [السجدة: ٢٠، ٢١].

التفسير:

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ﴾: أي وأما الذين خرجوا عن طاعة اللَّه فملجؤهم ومنزلهم نار جهنم ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ﴾: أي إذا دفعهم لهب النار إلىٰ أعلاها رُدُّوا إلىٰ مَوْضعهم فيها. قال الفضيل بن عياض: واللَّه إن الأيدي لَمُوثقة، وإن الأرجل لَمُقيدة، وإن اللهب ليرفعهم، وإن الملائكة لتقمعهم[1]. ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾: أي وتقول لهم خزنة جهنم تقريعًا وتوبيخًا: ذوقوا عذاب النار المخزي الذي كنتم تكذبون به في الدنيا، وتهزأون منه، ثم توعدهم بعذاب عاجل في الدنيا فقال: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ ﴾: أي ولنذيقنهم من العذاب الأقرب وهو عذاب الدنيا: من القتل والأسر والبلايا والمحن. قال الحسن: العذاب الأدنىٰ مصائب الدنيا وأسقامها مما يبتلىٰ به العبيد حتىٰ يتوبوا. وقال مجاهد: القتل والجوع[2]. ﴿ دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ ﴾: أي قبل العذاب الأكبر الذي ينتظرهم، وهو عذاب الآخرة. ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾: أي لعلهم يرجعون عن الكفر والمعاصي.

نظرات في التفسير:

لما بيَّن اللَّه تعالىٰ في الآيات السابقة حال المجرم والمؤمن مخبرًا العقلاء في صورة ستفهام أنهما لا يستويان وأن المؤمنين العاملين للصالحات لهم عند اللَّه جنات المأوىٰ نزلا بما كانوا يعملون، أوضح في هذه الآية الطرف المقابل فقال: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا

---

(١) «تفسير ابن كثير»: ٣/ ٧٦.

(٢) قال المفسرون: أصاب أهل مكة القحط والجدب سبع سنين، حتىٰ أكلوا فيها الجيف والعظام والكلاب.

﴿فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾: والمراد بالفسق مطلق الخروج عن طاعة اللَّه تعالىٰ، وذلك يشمل الكفر والتكذيب وعمل السيئات، والدال علىٰ ذلك جواب الشرط وما اتصل به، وهو قوله تعالىٰ: ﴿فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ إذ المعاصي قد لا تستوجب الخلود في النار، وهذا ما استفيد من مدخول الفاء؛ لذا أطلق الفسق، وأريد به العموم من العقيدة والعمل.

ولعل الحكمة من عدول القرآن الكريم عن ذكر الكفر وتوابعه إلىٰ لفظ الفسق لتحاشي أن يفهم البعض أن ما ذكر من عقوبة في الآية إنما هو مقابل لكفرهم وتكذيبهم دون معاصيهم، أو خشية أن يفهم البعض أن عقابهم مقابل لمعاصيهم، أما الفسق وهو الكفر فلا مقابل له في العقاب، مع العلم أن الفسق وهو الكفر مقابل لعقابهم؛ لأنه لا يلتفت إلىٰ أعمالهم لقول اللَّه تعالىٰ: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، أولئك القوم وصفهم اللَّه بثلاث صفات:

الصفة الأولىٰ: هي كون النار مستقرهم ومأواهم لقوله تعالىٰ: ﴿فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾

الصفة الثانية: هي محاولتهم الهم بالخروج من جهنم فرارًا من عذابها لقوله تعالىٰ: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ حيث رُوِيَ أن النار تدفعهم بلهيبها إلىٰ أبوابها فيظنون القدرة علىٰ ولوجها فيهمون بالحركة خارجين فإذا باللهب المقابل يردهم إليها أذلاء خاسئين، وهذه الصفة جيء بها لدفع ما يقال أن العذاب المستمر يفقد الشعور به؛ فعودتهم إلىٰ النار إشارة إلىٰ أن الألم لايسكن عنهم، أما همُّهم بالخروج فمرجعه أحد سببين:

أ ـ إما أن يكون سبب الفرار من العذاب إلىٰ منطقة خارجة عن حدود النار ليسترد السلامة والراحة، وهذا غير جائز بالنسبة لهذا الفاسق؛ لأن الدار الآخرة: إما إلىٰ جنة فلم يستحقها، وإمَا إلىٰ نار وقد استحقها.

ب ـ وإما أن يكون مبعثه الاعتراف بالخطأ والإقرار بالذنب، والرغبة في العودة إلىٰ

الدنيا لإثبات صدق نيته في عمل الصالحات؛ لهذا لما وجد نفسه قد اقترب من باب جهنم همَّ بالخروج لإصلاح ما أفسده في دنياه عسىٰ أن تتاح له الفرصة لاستدراك ما فاته من خير؛ فإن كانت هذه فهي التوبة بعينها المستتبعة للتضرع والابتهال والدعاء؛ إذ القرآن أثبت إرادتهم للخروج من جهنم، والإرادة هي تخصيص الممكن ببعض ما يجوز عليه، ولا يكون ذلك التخصيص إلا للأمر المحبوب المرغوب فيه؛ فإن كان عسير الحصول كما هنا تُعلق بالتضرع والدعاء للَّه الذي بيده مقاليد كل شيء.

الصفة الثالثة: هي كونهم مكذبين بعذاب الآخرة لقوله تعالىٰ: ﴿**الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ**﴾ حيث قالوا في الدنيا لا عذاب في الآخرة، وقالوا في الآخرة: لا عذاب فوق ما نحن فيه؛ فهل حقق اللَّه لهم إرادتهم هذه؟ كلا.. لم يجبهم اللَّه، بل عمق الألم في نفوسهم، وسخر منهم، وزادهم عذابًا، وأوضح ذلك في جمل ثلاث:

الجملة الأولىٰ: ﴿**أُعِيدُوا فِيهَا**﴾: أى كلما أردوا الخروج من جهنم رُدوا إلىٰ ما أعد لهم فيها من عذاب.

الجملة الثانية: ﴿**وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ**﴾ علىٰ سبيل السخرية والاستهزاء معللا ذلك بقوله: ﴿**الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ**﴾.

الجملة الثالثة: ﴿**وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾ يبين اللَّه تعالىٰ أنه سيذيقهم العذاب الأدنىٰ والأقل في الدنيا لعلهم يرجعون في الدنيا إلىٰ صوابهم، ويعودون إلىٰ رشدهم؛ فيقدسون اللَّه كما يليق بعظيم جاهه وسلطانه، والمراد من ﴿**الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ**﴾ هو عذاب الدنيا، ولم يقل الأصغر مقابل الأكبر للتخويف، وعدم الاستخفاف به، والمراد من ﴿**الْعَذَابِ الأَكْبَرِ**﴾ هو عذاب الآخرة، وأوثر علىٰ المقابل للأدنىٰ - وهو الآخر - للتخويف ودفع اللامبالاة.

وذيلت الآية بقوله تعالىٰ: ﴿**لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾: أي هذه الإذاقة نذيقها لهم إذاقة الراجين، أي علىٰ الوجه الذي يفعله الراجي من التدريج، أو إذاقة يقول القائل عند رؤيتها لعلهم يرجعون إلىٰ صوابهم بسببها.

و في هذه الجزئية من الآية فلسفة للإمام الرازي نذكرها للفائدة، قال رحمه الله: في كل سورة [(١)] قال الله تعالىٰ: ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ فإن نظرنا إلىٰ الفعل لا يلزم الجزم فإن من التعذيب لا يلزم الرجوع لزومًا بينًا؛ فصح قولنا يرجون، وإن كان علمه حاصلا بما يكون. .اهـ.

وقال رحمه الله تعالىٰ: ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ فإن نظرنا إلىٰ الفعل لا يلزم الجزم، غاية ما في الباب أن الرجاء في أكثر الأمر استعمل فيما لا يكون الأمر معلومًا فأوهم أن لا يجوز الإطلاق في حق الله تعالىٰ، وليس كذلك.

بل الترجي يجوز في حق الله تعالىٰ، ولا يلزم منه عدم العلم، وإنما يلزم عدم الجزم بناء علىٰ ذلك الفعل، وعلم الله ليس مستفادًا من الفعل؛ فيصح حقيقة الترجي في حقه تعالىٰ علىٰ ما ذكرنا من المعنى [(٢)] .اهـ

وعلىٰ كل فهذه الآية تخص رغبة وفرصة سنحت لهؤلاء الكفار فانتهزوها، وهموا بالهروب من العذاب والخروج من النار، وفي حالة هذا الهم بالهروب تضرع ودعاء كي يمكنهم الله من هذا.



---

(١) تكرر ذلك في أكثر من سورة من سور القرآن الكريم، وهي تصور حال هؤلاء الكافرين، وما كانوا عليه من العناد، والخروج عن طاعة الله تعالىٰ، وما يتعرضون له من البلايا والمصائب في الدنيا علهم يتعظون فيرجعون عن الكفر والمعاصي، تكرر ذلك في سورة: آل عمران: ٧٢، والأعراف: ١٦٨، ١٧٤، والروم: ٤١، والسجدة: ٢١، والزخرف: ١٨، والأحقاف: ٢٧.

(٢) «التفسير الكبير»: ٦/ ٥٦٤.

الآية الثالثة

قال الله تعالىٰ: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر: ٣٦، ٣٧].

التفسير:

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾: أى والذين جحدوا بآيات اللَّه وكذبوا رسله فإن لهم نار جهنم المستعرة جزاءً وفاقًا علىٰ كفرهم، وهذا حال الأشقياء الفجار، ﴿ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ﴾: أى لا يُحكم عليهم بالموت فيها حتىٰ يستريحوا من عذاب النار، ﴿ وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾: أى ولا يُخفف عنهم شيء من العذاب، بل هم في عذاب دائم مستمر، لا ينقطع كقوله تعالىٰ: ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩٧]، ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾: أى مثل ذلك العذاب الشديد الفظيع، نجازي ونعاقب كل مبالغ في الكفر والعصيان، ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾: أى وهم يصطرخون في جهنم ويستغيثون برفع أصواتهم قائلين: ربنا أخرجنا من النار، وردنا إلىٰ الدنيا لنعمل عملا صالحًا يقربنا منك، غير الذي كنا نعمله. قال القرطبي: أي نؤمن بدل الكفر، ونطيع بدل المعصية، ونمتثل أمر الرسل[1]، وفي قولهم: ﴿ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ اعتراف بسوء عملهم وتندم عليه وتحسر[2]، قال تعالىٰ وهو برد عليهم موبخًا لهم: ﴿ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾: أي أو لم نترككم ونمهلكم في الدنيا عمرًا مديدًا يكفي لأن يتذكر فيه من يريد التذكر والتفكر؟! فماذا صنعتم في هذه المدة التي عشتموها؟ وما لكم تطلبون

---

(١) «القرطبي»: ١٤/ ٣٥٢.

(٢) «التسهيل في علوم التنزيل»: ٣/ ١٥٩.

عمرًا آخر؟!، وفي الحديث: «**أَعْذَرَ اللَّهُ إِلَىٰ امْرِئٍ أَخَّرَ أَجَلَهُ حَتَّىٰ بَلَغَ سِتِّينَ سَنَةً**»[١]، ومعنىٰ «**أَعْذَرَ**» أي بلغ به أقصىٰ العذر، ﴿**وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ**﴾: أي وجاءكم الرسول المنذر، وهو محمد ﷺ، الذي بعث بين يدي الساعة، وقيل: ﴿**النَّذِيرُ**﴾: هو الشيب، ﴿**فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ**﴾: أي فذوقوا العذاب يا معشر الكافرين فليس لكم اليوم ناصر ولا معين يدفع عنكم عذاب اللَّه.

قال الإمام الفخر: والأمر أمر إهانة ﴿**فَذُوقُوا**﴾ وفيه إشارة إلىٰ الدوام، وإنما وضع الظاهر: ﴿**لِلظَّالِمِينَ**﴾ موضع الضمير لكم لتسجيل الظلم عليهم، وأنهم بكفرهم وظلمهم ليس لهم نصير أصلا: لا من اللَّه، ولا من العباد.

نظرات في التفسير:

هذه الآيات عطف علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ**﴾ [فاطر: ٢٩]، وما بينهما متعلق به؛ فبعد أن ذكر اللَّه تعالىٰ التالين لكتابه، وما اتصفوا به من صفات، وما جوزوا به في الدنيا، وما سينالهم من خير في الآخرة تحدث جل شأنه عن الصنف المقابل لهذا النوع؛ فقال تعالىٰ: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ**﴾.

فهؤلاء الذين كفروا باللَّه وبكل ما جاءت به رسله تعالىٰ ينالون عقابهم وعذابهم في جهنم، لكنه علىٰ نمط مخالف لنمط الدنيا؛ لأن العذاب الدنيوي نتيجته أحد أمرين اثنين وهما:

أ - إما أن يودي العذاب الدنيوي بحياة من يقع عليه.

ب - وإما أن يعتاد المعذَّب العذاب فيألفه بدنه ولا يحس به؛ فيصير بذلك فاسد المزاج، وهذا إن امتد به.

---

(١) أخرجه البخاري بقوله: (باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر اللَّه إليه في العمر)، وذكر الآية، قال ابن كثير: وهذا هو الصحيح في مقدار العمر.

أما عذاب الآخرة فهو علىٰ النقيض من ذلك: فلا يودي بحياة من يقع عليه، كما أنه لا يألفه بدنه وإن امتدت به السنون، دليل الأولىٰ من الآية قوله تعالىٰ: ﴿لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ حتىٰ لو قالوا: ﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧] أي بالموت، دليل الثانية من الآية قوله تعالىٰ: ﴿وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾، ثم ذيلت الآية بما يدل علىٰ أن هذا جزاء اللَّه في الآخرة لكل كفور.

لما نفىٰ القرآن الموت عن المعذبين في جهنم ونفىٰ أيضًا تخفيف العذاب عنهم، وإنما هم في عذاب دائم، لا تخفيف فيه، فماذا هم صانعون، ويجيب القرآن قائلا: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ تحكي هذه الآية صورة صوتية لاستغاثتهم من عذاب جهنم، أن الاصطراخ من الصراخ، وهو صوت المعذب؛ فهم لا يموتون بالعذاب حتىٰ ولوطلبوه من مالك، ولا يخفف عذابهم، حتىٰ ولو اصطرخوا، وجأروا، ولو مزجوا هذا الاصطراخ بالتوبة والندم، وطلب الخروج إلىٰ الدنيا ليعملوا الصالحات قولا وفعلا؛ فهم يستغيثون باللَّه من العذاب منادينه تعالىٰ بلفظ الربوبية المتضمن اعترافهم وإقرارهم بوحدانية كفالته تعالى لهم، وينصون علىٰ سبب طلبهم الخروج من جهنم وهو العمل الصالح، ثم أقروا صدق قولهم هذا بوصف هذا العمل بأنه غير العمل الذي عملوه في الدنيا، وتنصيصهم بأن هذا العمل الصالح الذي التزموا به مغاير تمامًا لما ارتكبوه من فساد العمل والمعتقد في حياتهم الدنيا ما هو إلا اعتراف منهم صريح بأن الذي كان يصدر منهم في الدنيا هو في منتهىٰ الفساد والإفساد، وغاية في الشر والضلال.

وهذا الترتيب في غاية الحسن: إذ الحبيس غالبًا مايصبر علىٰ العذاب من غير سؤال للخروج أو التخفيف، فإذا طال لبثه طلب الخروج من غير التزامه بشيء ولا عهد ولا قطيعة علىٰ نفسه، فإذا لم يستجب له قدم العهود والوعود إذا أفرج عنه وخرج من عذابه بأن لا يعود إلىٰ ما كان عليه، وأنه ملتزم مستقبلا أن يفعل كل ما يأمر به اللَّه تعالىٰ، ويتجنب كل ما نهىٰ عنه.

فهل استجاب اللَّه لهم طلبهم وحقق أمنيتهم؟ لا: بل جاء الرد الإلهي في منتهىٰ التحقير والسخرية والتهكم فقال جل شأنه: ﴿أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾: أي أعطاكم اللَّه فسحة في الوقت بإطالة أعماركم للتذكر، كما بعث إليكم المنذرين من الأنبياء والرسل؛ فقطعت بذلك معاذيركم؛ إذ يقبل العذر بأحد هذين الأمرين السالفين، أو بهما؛ لأن المانع من الإيمان:

أ - إما أن يكون من ذات الإنسان، حيث لم يُمَكَّن من النظر فيما أنزل اللَّه تعالىٰ.

ب - وإما أن يكون في مرشدهم لعدم وجوده، أو لعدم إخبارهم بما أنزله اللَّه وأوحىٰ به إليه ليبلغهم به، لكن كل هذا لم يكن بدليل الآيات الكثيرة الواردة في القرآن، وبدليل هذا الاستفهام التوبيخي التهكمي الوارد في هذه الآية؛ فهذا الاستفهام التقريعي التأنيبي الصادر من اللَّه تعالىٰ لهؤلاء المصطرخين الطالبين الخروج من جهنم لعمل الصالحات يحمل أكثر من معنىٰ من أهمها ما يلي:

أ - عدل عن الرد الصريح حيث لم يقل لهم لا خروج لكم من النار؛ وذلك استخفافا بهم واحتقارًا.

ب - ولإلزامهم الحجة، وإيضاح المقام في أنه تعالىٰ سهل لهم طريق الإيمان بتعميرهم ومجيء النذير إليهم.

ج - الدار الآخرة ليست دار التكليف؛ فلهذا لا يُجدي فيها التضرع والدعاء.

د - أن مثل هؤلاء الكفرة تمكن منهم الضلال: فهم لا يوفون بوعد، ولا يلتزمون بعهد لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨].

هـ - لما عاش هؤلاء الكفار في ضلالة عمياء في الدنيا كانوا في مثلها في الآخرة لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٢]

و ـ هم جزموا بالعمل الصالح لو ردوا إلىٰ الدنيا دون استثناء، ومشيئة اللَّه تعالىٰ؛ فكان لهم مثل هذا الرد، وكان اللَّه تعالىٰ يقول لهم متهكمًا وملزمًا إذا كان الأمر كما تقولون، وأنكم معتمدون علىٰ أنفسكم، وجزمتم بعمل الصالحات دون مشيئتنا؛ فقد عمَّرْناكم زمنًا طويلا كان في استطاعتكم فيه التذكر والتدبر والإيمان والعمل الصالح، كما جاءكم النذير فلم يحصل ذلك منكم.

فكان إخبار اللَّه عنهم قبل ذكر اصطراخهم بأنهم في نار جهنم لا يُقضىٰ عليهم فيموتوا فيستريحوا، ولا يخفف عنهم من عذابها فيستروحوا، وكان رده تعالىٰ عليهم بعد اصطراخهم بهذا الأسلوب التهكمي المفيد عدم موتهم، وعدم تخفيف العذاب عنهم، وعدم عودتهم إلىٰ الدنيا ليصححوا أوضاعهم مستجيبين للَّه في أمره ونهيه.

بعد هذا التيئيس من الإجابة، وبعد التهكم بهم والسخرية أمرهم المولىٰ أمر إهانة قائلا: ﴿**فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ**﴾ وفضلا عن أن هذا الأمر يحمل الإهانة والتحقير لهم فهو أيضًا يحمل لهم الإخبار بدوام العذاب لهم، وفي هذا التذييل وهو: ﴿**فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ**﴾، ومثله: ﴿**وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ**﴾ [البقرة: ٢٧٠].

ذهب بعض العلماء إلىٰ القول بأن هذين الأسلوبين يحتمل أن يكون المراد من الظالم فيهما أحد أمرين:ـ

أ ـ إما أن يكون المراد من الظالم هو الجاهل جهلا مركبًا، وهو الذي يعتقد الباطل حقًا في الدنيا، وما له من نصير: أي من علم ينفعه في الآخرة.

ب ـ وإما أن يكون المراد من الظالم هو الذي وضع عمله وقوله في غير موضعهما، وهو أيضًا الذي أتىٰ بالمعذرة في غير وقتها.



الآية الرابعة

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٦، ٣٧].

التفسير:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ ﴾: أي لو كان لكل كافر جميع ما في الأرض من خيرات وأموال ومثله معه، ﴿ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾: أي وأراد أن يفتدي بها نفسه من عذاب اللَّه ما نفعه ذلك، وله عذاب مؤلم موجع، ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾: أي دائم لا ينقطع، وفي الحديث: «يُجَاءُ بِالْكَافِرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ لَهُ: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مِلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا أَكُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُقَالُ لَهُ: قَدْ كُنْتَ سُئِلْتَ مَا هُوَ أَيْسَرَ مِنْ ذَلِكَ: أَلا تُشْرِكَ بِي فَأَبَيْتَ؛ فَيُؤْمَرُ بِهِ إِلَىٰ النَّارِ»[1].

نظرات في التفسير:

أرشد اللَّه تعالىٰ المؤمنين في الآية السابقة، وهي قوله تعالىٰ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٣٥] إلىٰ معاقد جميع الخيرات، ومفاتح كل السعادات، ثم أتبع ذلك بشرح وبيان حال الكفار وإيضاح عاقبة من حصر حياته وسعادته في دنياه الفانية؛ فقال جل شأنه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ الآيتين.

فقد تضمنت هاتان الآيتان أمرين عجيبين فظيعين من أمورهم السيئة:

فالآية الأولىٰ وهي قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ جاءت علىٰ صورة التمثيل لبيان لزوم العذاب لهؤلاء الكفار، وأنهم لا يخلصون منه كما أنها تخبر الكفار والناس

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق.

جميعًا لو أن مثل هؤلاء الكفار تصوروا ملكيتهم لكل ما في الأرض مضروبًا في اثنين ـ وهذا مستبعد عقلا وعرفًا ـ ليقدموه فداء لمايحل بهم من عذاب يوم القيامة ما قبل اللَّه منهم هذا الفداء، وما ذاك إلا لعظم ما ارتكبوه، ولأن هذا الفداء قد فات أوانه؛ فأصبح دون جدوىٰ لأنهم قدموه في دار لم تعد للعمل، وإنما نيط بها الجزاء فقط، وفائدة هذا التصوير إدخال الخوف والإرهاب في قلوب هؤلاء الكفار وأمثالهم، كما أنه يدفع البعض في الدنيا إلىٰ تدبر عواقبهم، وما يصير إليه حالهم، ويوقفهم علىٰ معالم الصعوبة التي تنتظرهم وتترصدهم حين يطلبون الفداء؛ فلا يقبل منهم شفاعة، ولا يؤخذ منهم عدل، ولا هم ينصرون، وهذا هو اليأس الذي يلقونه، والتيئيس الذي يوجه إليهم، يدعم هذا ما روي عن الرسول ﷺ أنه قال: «**يُقَالُ لِلْكَافِرِ يَوْمَ القِيَامةِ: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مِلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا أَكُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُقَالُ لَهُ: قَدْ سُئِلْتَ أَيْسَرَ مِنْ ذَلِكَ فَأَبَيْتَ**».

والآية الثانية: ﴿**يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ**﴾ هذه الإرادة تحتمل أحد معنيين:ـ

١ ـ إما أن يكون المقصود من هذه الإرادة هي التمنيات القلبية والرغبة النفسية يشير إلىٰ ذلك قوله تعالىٰ علىٰ لسانهم: ﴿**رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا**﴾ [المؤمنون: ١٠٧]، كما يؤكد هذا الوجه قراءة من قرأ: ﴿**يُرِيدُونَ أَن يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ**﴾ بضم الياء.

٢ ـ وإما أن يكون الهدف من إرادتهم هذه القصد حقيقة، والهم بالخروج، وذلك:

أ ـ إما لرفع اللهب لهم إلىٰ أعلىٰ، فهناك يتمنون الخروج لقوة دفع النار لهم.

ب ـ وإما أنهم يكادون الخروج لقوة دفع النار لهم.

إذ بالافتداء أرادوا الخلاص من النار وعذابها، وبالخروج أرادوا بالإضافة إلىٰ خلاصهم من النار وألمها العودة إلىٰ دار الدنيا ليتداركوا ما فاتهم من عمل صالح، وقول حسن؛ فهل أجابهم اللَّه تعالىٰ إلىٰ طلبهم؟

كلا؛ حيث أيأسهم وعم الحزن في قلوبهم لقوله تعالىٰ: ﴿**وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ**﴾ أي لا يبرحون النار أبدًا، فهم مقيمون فيها أبد الآبدين، فافتداؤهم علىٰ سبيل التمثيل، وإرادتهم الخروج من النار يشعران بفداحة الأمر، كما يشيران أيضًا إلىٰ أنهم وقفوا علىٰ خطئهم، وعرفوا انحرافهم عن جادة الصواب، وودوا الخروج من النار، والعودة إلىٰ حياتهم الدنيا ليكفروا عما سلف منهم من عمل سيِّئ وقول كاذب، وما هذا كله إلا التضرع والخشوع وطلب العفو والمغفرة، وإظهار الندم والإنابة، وما ذلك إلا الدعاء.

وقد احتج بهذه الآية بعض العلماء علىٰ أن اللَّه تعالىٰ يخرج من النار من قال: لا إله إلا اللَّه، علىٰ سبيل الإخلاص، مبررين رأيهم هذا بقولهم: إن اللَّه تعالىٰ جعل هذا المعنىٰ من تهديدات الكفار، وأنواع ما خوفهم به من الوعيد الشديد، ولولا أن هذا المعنىٰ مختص بالكفار، وإلا لم يكن لتخصيص الكفار به معنىٰ، ومما يؤيد هذا ويدعمه قوله تعالىٰ: ﴿**وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ**﴾ وهذا يفيد الحصر؛ فكأن المعنىٰ: ﴿**وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ**﴾ لا لغيرهم، كقوله تعالىٰ: ﴿**لَكُمْ دِينُكُمْ**﴾ أي لكم لا لغيركم؛ فكذا هنا.



الفصل الرابع: طلب الكفار الشفاعة والموت في جهنم وبيان شهادة حواسهم عليهم

طلب الكفار الشفاعة يوضحه قول اللَّه تعالىٰ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٣]

التفسير:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ﴾: أى ما ينتظر أهل مكة إلا عاقبة ما وُعدوا به من العذاب والنكال، قال قتادة: ﴿تَأْوِيلَهُ﴾ عاقبته، ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾: هو يوم القيامة، ﴿يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾: أي يقول الذين ضيعوا وتركوا العمل به في الدنيا ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾: أى جاءتنا الرسل بالأخبار الصادقة، وتحقق لنا صدقهم؛ فلم نؤمن بهم ولم نتبعهم، قال الطبري: أقسم المساكين حين حل بهم العقاب أن رسل اللَّه قد بلغتهم الرسالة، ونصحت لهم وصدقتهم حين لا ينفعهم ولا يُنجيهم من سخط اللَّه كثرة القيل والقال[1]، ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾: أي هل لنا اليوم شفيع يخلصنا من هذا لنعمل صالحًا غير ما كنا نعمله من المعاصي وقبيح الأعمال؟ قال تعالىٰ ردًا عليهم: ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾: أى خسروا أنفسهم حيث ابتاعوا الخسيس الفاني من الدنيا بالنفيس الباقي من الآخرة، وبطل عنهم ما كانوا يزعمونه من شفاعة الآلهة والأصنام.

نظرات في التفسير:

هذه الآية الكريمة امتداد لما قبلها؛ حيث تناولت الآيات السابقة عليها أحوال أهل الجنة والنار والأعراف، كما بينت شرف القرآن وعظم منفعته.

(١) «الطبري»: ١٢/ ٤٨٠.

ثم ساق اللَّه تعالىٰ هذه الآيات ساخرًا منهم ومتهكمًا بهم: أي هل ينظر هؤلاء الكفار إلا نتيجة ما أخبر عنه هذا الكتاب من أن النار مصيرهم وبئس المآل، وهذا هو تأويل آيات القرآن؛ لأن التأويل هو مرجع الشيء ومصيره، وذلك من قولهم: آل الشيء يئول.

﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾: وهو يوم القيامة يقول هؤلاء الكافرون مقالات ثلاث:

المقالة الأولىٰ هي قولهم: ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ يعترفون بصدق الرسل، وبكل ما جاءوا به من عند اللَّه، ولعل السبب في إقرارهم هذا هو ما سوف يشاهدونه يوم القيامة من العذاب الشديد، وبالأمس القريب نسوه أو تناسوه.

المقالة الثانية هي قولهم: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ سيتمنون أن يكون لهم في هذا اليوم من يحسن إليهم ولو بالشفاعة لهم عند اللَّه؛ فيجنبهم ما ينتظرهم من عذاب.

المقالة الثالثة هي قولهم: ﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ سيرجون يوم القيامة في أن يردهم اللَّه تعالىٰ إلىٰ الدنيا ليعملوا أعمالا صالحة غير التي عملوها قبلا: يعني نوحده ونطيعه، هذه آمالهم، وتلكم أطماعكم؛ فهل استجاب اللَّه لهم؟ لا.

لم يحقق اللَّه لهم منها شيئًا بل زادهم ألمًا وتحقيرًا؛ حيث أعرض عن إجابتهم سلبًا وإيجابًا سالكًا بهم طريقًا آخر عرفوا منه أنهم الخاسرون حقًا؛ حيث غاب وضل عنهم ما كانوا يفترونه ويختلقونه من الأصنام التي عبدوها من دون اللَّه.

فهذه المقالات الثلاث المتضمنة للإقرار ورجاء الشفاعة والرغبة في العودة إلىٰ العمل الصالح، ما هي إلا اعتراف بالذنب والتقصير، وإظهار الندم والتوبة والتضرع، وما ذلك إلا الدعاء، ولقد استنبط الجبائي من هذه الآية حكمين اثنين:-

الأولىٰ: كون الآية مفيدة أن هؤلاء الكفار كانوا في حال التكليف قادرين علىٰ الإيمان والتوبة؛ فلذلك سألوا الردة ليُؤمنوا ويتوبوا، ولو كانوا في الدنيا غير قادرين كما يقول المجبرة لم يكن لهم في الردة فائدة، ولا جاز أن يسألوا ذلك.

الثاني: كون الآية دلالة علىٰ بطلان قول المجبرة والذي يزعمون فيه أن أهل الآخرة مكلفون؛ لأنه لو كان ذلك لما سألوا الانتقال إلىٰ حال وهم في الوقت علىٰ مثلها، بل كانوا يتوبون ويؤمنون في الحال؛ فبطل ما حُكي عن النجار وطبقته من أن التكليف باق علىٰ أهل الآخرة.

طلب الكفار الموت في جهنم

يتمثل ذلك في آيتين اثنتين: الأولىٰ في سورة الفرقان، والثانية في سورة الزخرف

الآية الأولى

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ⦗١١⦘ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ⦗١٢⦘ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ⦗١٣⦘ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾ [الفرقان: ١١ ـ ١٤].

التفسير:

﴿ **بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ** ﴾: أي بل كذبوا بالقيامة، ﴿ **وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا** ﴾: أي وهيئنا لمن كَذَّبَ بالآخرة نارًا شديدة الاستعار، قال الطبري: المعنىٰ ما كذب هؤلاء المشركون باللَّه، وأنكروا ما جئتَهم به من الحق، من أجل أنك تأكل الطعام وتمشي في الأسواق، ولكن من أجل أنهم لا يوقنون بالمعاد تكذيبًا منهم بالقيامة، وأعددنا لمن كذب بالبعث نارًا تسعر عليهم وتتقد[1]، ﴿ **إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ** ﴾: أي إذا رأت جهنم هؤلاء المشركين من مسافة بعيدة، وهي خمسمائة عام، ﴿ **سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا** ﴾: أي سمعوا صوت لهيبها وغليانها، كالغضبان إذا غلا صدره من الغيظ، وسمعوا لها صوتًا كصوت الحمار وهو الزفير، قال ابن عباس إن الرجل ليجر إلىٰ النار فتشهق إليه النار شهوق البغلة إلىٰ الشعير، وتزفر زفرة لا يبقىٰ أحد إلا خاف[2]، وتقييد الرؤية من بُعْد ﴿ **مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ** ﴾ فيه مزيد تهويل لأمرها، ﴿ **وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا** ﴾: أي وإذا أُلقوا في جهنم في مكان ضيق، قال ابن عباس: تضيق عليهم ضيق الزُّج[3] في الرمح ﴿ **مُّقَرَّنِينَ** ﴾: أي مُصفَّدِين قد قرنت أيديهم إلىٰ أعناقهم

(١) «الطبري»: ١٨ / ١٤٠.
(٢) «تفسير ابن كثير»: ٢ / ١٢٦.
(٣) الزج: الحديدة في أسفل الرمح.

بالسلاسل، ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ : أى دعوا في ذلك المكان علىٰ أنفسهم بالويل والهلاك؛ فيقولون: يا هلاكنا، نادوه نداء المتمني للهلاك، ليسلموا مما هو أشد منه، كما قيل: أشد من الموت ما يتمنى معه الموت.

﴿لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ : أي يقال لهم: لا تدعو اليوم بالهلاك علىٰ أنفسكم مرة واحدة، بل ادعوا مرات ومرات؛ فإن ما أنتم فيه من العذاب الشديد يستوجب تكرار الدعاء، وتخفيف العذاب.

نظرات في التفسير:

تفسير هذه الآيات يمكن حصره في النقاط الآتية:

١ ـ صلتها بما قبلها. ٢ ـ ﴿أَعْتَدْنَا﴾. ٣ ـ السعير وصفاتها. ٤ ـ حال نزلائها.

١ ـ وجه الصلة بين هذه الآيات وما قبلها هي أن كفار مكة طعنوا في رسالة الرسول ﷺ بشُبَهٍ ست: أولها قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ وآخرها: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا﴾ قال الكلبي: أصحاب هذه الشُّبَهِ هم أبو جهل والكفار؛ فرد اللَّه تعالىٰ هذه الشُّبَهَ بآيات ثلاث: الأولىٰ: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ﴾ الثانية: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَلِكَ﴾ الثالثة: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ أى بسبب تكذيبهم بيوم القيامة وما سيقع فيه صدر عنهم كل ما سلف من الشُّبَهِ.

٢ ـ قال مسلم: ﴿أَعْتَدْنَا﴾ أي جعلناها عتيدًا ومعدة لهم، واستدل بصيغة الماضي هذه علىٰ وجود النار. وبذلك قال الجبائي: أي يعذب بها الكفار والفساق في قبورهم في الدنيا.

٣ ـ قال الحسن: السعير اسم من أسماء جهنم، وسميت بذلك لشدة استعار نارها، ولقد وصف اللَّه تعالىٰ هذا السعير بثلاث صفات: رؤيتها للكفار، غيظها، زفيرها: أي إذا رأت الكفار المكذبين بالبعث قد أقبلوا عليها من بعيد غضبت واشتد غضبها، حتىٰ وصل إلىٰ درجة الغيظ والزفير المسموعين، ولكن هل هذه الصفات علىٰ حقيقتها أم لا؟

أ ـ قال الزجاج: لا مانع عقلا أن يخلق اللَّه في النار هذه الصفات؛ فتكون رائية للكفار.

ب ـ وقيل: المقصود أن روادها يعلمون أن لها تغيظًا وزفيرًا.

ج ـ وقال عبيد بن عمران: إن جهنم لتزفر زفرة لا يبقىٰ أحد إلا وترعد فرائصه، حتىٰ إن إبراهيم عليه السلام يجثو علىٰ ركبتيه، ويقول: نفسي نفسي.

د ـ وقيل المراد: تغيظ الخزنة علىٰ حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه: أي سمعوا لخزنتها تغيظًا وزفيرًا.

هـ ـ وقيل: إن المراد من التغيظ ـ وإن لم يسمع ـ ما يدل عليه الصوت، وهو كقول القائل: رأيت غضب الأمير علىٰ فلان. إذا رأىٰ ما يدل عليه.

٤ ـ أما حال نزلاء السعير فيحكيه قوله تعالىٰ: ﴿ **وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا** ﴾.

للعلماء في المكان الضيق آراء منها ما يلي:

أ ـ قال قتادة: ذكر لنا عبد اللَّه بن عمر قال: إن جهنم لتضيق علىٰ الكافر كضيق الزج علىٰ الرمح.

ب ـ وقال الكلبي: الأسفلون يرفعهم اللهب، والأعلون يخفضهم الداخلون فيزدحمون في تلك الأبواب الضيقة.

ج ـ وقال صاحب الكشاف: الكرب مع الضيق، كما أن الروح مع السعة، ولقد سئل النبي ﷺ عن الضيق فقال: «**وَالذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهُمْ يُسْتَكْرَهُونَ فِي النَّارِ كَمَا يُسْتَكْرَهُ الوَتَدُ فِي الحَائِطِ**».

٢ ـ والمراد بـ ﴿ **مُقَرَّنِينَ** ﴾: إما في سلاسل: أي قرنت أيديهم إلىٰ أعناقهم، أو يُقرن كل كافر مع شيطانه في سلسلة، وفي أرجلهم الأصفاد.

٣ - مع رؤية السعير لنزلائها، وتغيظها وزفيرها بهم، وإحاطتها لهم بألوان من العذاب: من ضيق وزحام وقرن في السلاسل والأغلال: ماذا يفعلون وماذا يقولون؟ إنهم يتضرعون ويستغيثون ويدعون وينادون لونًا من ألوان النجاة غريبًا، ألا وهو واثبوراه: أى ينادون هلاكهم وثبورهم قائلين له: يا ثبور هذا حينك وزمانك.

روىٰ أنس مرفوعًا: أن أول مَنْ يُكسَىٰ حلة من النار إبليس؛ فيضعها علىٰ جانبيه ويسحبها، من خلفه ذريته، وهو يقول: يا ثبوراه، وينادون يا ثبورهم، حتىٰ يردوا النار.

فيحكي اللَّه تبارك وتعالىٰ عنهم هذا التضرع؛ وذلك ليتعظ الأحياء قبل مغادرة الدنيا وفوات الأوان، ودعاؤهم علىٰ أنفسهم بهذه اللفظة تصوير كامل لحالتهم النفسية وآلامهم الجسدية بحيث أصبحوا يفضلون الثبور والموت علىٰ مثل هذه الحياة التي يحيونها في جهنم؛ فهل استجاب اللَّه لهم فأهلكهم؟ لا لم يستجب لهم، ولم ينجز طلبهم، بل رد عليهم بما يزيد من حسرتهم وألمهم فقال جل شأنه: ﴿**لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً**﴾: أي يقال لهم ذلك، وهم جديرون أن يقال لهم ذلك: سواء كان القائل لهم هو اللَّه تعالىٰ، أم ملائكته بأمره، أم أنه لم يكن ثم قول، وإنما هذا التعبير حكاية لما هم فيه من تعدد ألوان العذاب، وأن حالتهم استنطقت فقالت لهم إنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم منه واحدًا إنما هو ثبور كثير لكون العذاب ألوانًا شتىٰ، ولعل المراد من الثبور الكثير أحد الآراء الآتية:

الثبور الكثير لكون العذاب ألوانًا لكل نوع منها ثبور لشدته وفظاعته، أو لأنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا غيرها، أو لأن ذلك العذاب دائم خالص؛ فلهم في كل وقت من الأوقات التي لا نهاية لها، أو لأنهم ربما يجدون بسبب ذلك القول: «واثبوراه» نوعًا من الخفة؛ فينزجرون عن ذلك ويخبرون بأن هذا الثبور سيزداد كل يوم ليزدادوا حزنًا وغمًّا.



الآية الثانية

هي قول اللَّه تعالىٰ: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [الزخرف: ٧٤ - ٧٨]

التفسير:

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾: أي إن الكافرين الراسخين في الإجرام في العذاب الشديد، في جهنم دائمون فيها أبدًا، قال الصاوي: والمراد بالمجرمين الكفار؛ لأنهم ذُكروا في مقابلة المؤمنين[1]، ﴿لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾: أى لا يخفف عنهم العذاب لحظة، ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾: أي وهم في ذلك العذاب يائسون من كل خير، ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾: أى وما ظلمناهم بعقابنا لهم، ولكن كانوا هم الظالمين لتعريضهم أنفسهم للعذاب الخالد، ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾: أى ونادىٰ الكفار مالكًا خازن النار قائلين: ليميتنا اللَّه حتىٰ نستريح، قال ابن كثير: أى ليقبض أرواحنا فيريحنا مما نحن فيه. قال ابن عباس رضي اللَّه عنهما: فلم يجبهم إلا بعد ألف سنة[2]. ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾: أي أجابهم: إنكم مقيمون في العذاب أبدًا، لا خلاص لكم منه: لا بموت ولا بغيره، ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾: خطاب توبيخ وتقريع: أي لقد جئناكم أيها الكفار بالحق الساطع المبين، لكنكم كنتم كارهين لدين اللَّه مشمئزين منه؛ لكونه مخالفًا لأهوائكم وشهواتكم، قال الرازي: هذا كالعلة لما ذُكر، والمراد نفرتهم عن محمد ﷺ وعن القرآن، وشدة بغضهم لقبول الدين الحق[3].

---

(١) «حاشية الصاوي»: ٤/ ٥٤.

(٢) «تفسير ابن كثير»: ٣/ ٢٩٦.

(٣) «التفسير الكبير»: ٢٧/ ٢٢٧.

نظرات في التفسير:

بعد أن ذكرت الآيات القرآنية السابقة وعد اللَّه لعباده المسلمين بقوله: ﴿ **ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ** ﴾ [الزخرف: ٧٠]، أردفته بوعيده للمجرمين بقوله: ﴿ **إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ** ﴾ والمقصود من الآية هم الكفار؛ لأن نسق الآيات لا ينتظم عصاة المسلمين، ولقد وصفهم اللَّه بثلاث صفات:

١ ـ الخلود: ﴿ **خَالِدُونَ** ﴾: أى دوام بقائهم، واستمرار عذابهم في جهنم.

٢ ـ عدم التخفيف: ﴿ **لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ** ﴾: أى لا يخفف ولا ينقص من عذابهم، من قولهم: فترت عنه الحمىٰ، إذا سكنت ونقص حرها.

٣ ـ اليأس: ﴿ **وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ** ﴾ قال صاحب الكشاف: قرئ ﴿ **وَهُمْ فِيهَا** ﴾ أي في النار ﴿ **مُبْلِسُونَ** ﴾ أما الضحاك فحمل الضمير في ﴿ **فِيهِ** ﴾ علىٰ التابوت، وقال: يُجعل المجرم في تابوت من نار، ثم يقفل عليه فيبقىٰ فيه خالدًا لا يرىٰ ولا يُرىٰ، ثم علل اللَّه تعالىٰ ما هم فيه من العذاب بقوله: ﴿ **وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ** ﴾؛ فخلود هؤلاء المجرمين في جهنم، وعدم تخفيف عذابهم أو نقصه، ويأسهم الكامل من ذلك جعلهم يفتحون عقيرتهم ويصرخون خازن النار قائلين: ﴿ **وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ** ﴾ هم يستغيثون به ويضرعون إليه أن يرجو ربه في أن يقضي عليهم بأية صورة كانت حتىٰ ولو بالموت والهلاك ليستريحوا مما هم فيه من عذاب.

وفي قولهم: ﴿ **يَا مَالِكُ** ﴾ نكتة لطيفة تجدر الإشارة إليها، وهي قول بعض الصحابة لابن عباس أن ابن مسعود قرأ: ﴿ **وَنَادَوْا يَا مَالِ** ﴾ فقال ابن عباس: ما أشغل أهل النار عن هذا الترخيم، ولكن ابن مسعود ربما رأىٰ أن الترخيم يناسب المقام لأنه يدل علىٰ أنهم بلغوا في الضعف والنحافة إلىٰ حيث لا يمكنهم أن يذكروا من الكلمة إلا بعضها؛ لهذا حسن الترخيم.

ولكن كيف يستقيم لهم هذا النداء، وذلكم الطلب، مع أن الآية أثبتت أنهم في جهنم مبلسون، والمبلس: اليائس الساكت سكوت يائس من فرج؟

ويمكن الجواب علىٰ هذا التساؤل أن في النار مواقف شتىٰ، وألوانًا عديدة؛ فتارة يعتريهم اليأس القاتل، وتارة يشملهم الأمل فيطلبون ما يأملون.

ولذا روي أنه يُلقىٰ علىٰ أهل النار الجوع حتىٰ يعدل ما هم فيه من العذاب؛ فيقولون ادعوا مالكًا؛ فيدعون: ﴿ يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾.

وطلبهم هذا من مالك يحتمل أحد وجهين وهما:

أ ـ إما أن يكون علىٰ سبيل التمني، مع علمهم أنه لا خلاص لهم عن ذلك العقاب، غير أن شدة العذاب أنستهم ذلك.

ب ـ وإما أن يكون علىٰ سبيل الاستغاثة الحقيقية، ولا يمنع هذا علمهم بأنه لا خلاص لهم من ذلك العقاب؛ فهم يستغيثون بمالك ليرفع إلىٰ ربه ضراعتهم وتوبتهم ودعاءهم؛ فهل استجيب لهم؟ لا، لم يستجب المولىٰ لهم، بل أمر مالكًا أن يجيبهم بما يفيد تقريعهم، وبقاءهم الأبدي في جهنم؛ فقال اللَّه له قل لهم: ﴿ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴾، ثم ذكر ما يفيد علة هذا الجواب بقوله: ﴿ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾.

غير أنه لم يتضح من إجابة مالك متىٰ سيقول لهم ذلك: أفي الحال، أم بعده؟ وهل بعد فترة قصيرة أم لا؟ فعن عبد اللَّه بن عمر: يقول لهم ذلك بعد أربعين سنة. وعن ابن عباس: بعد مائة سنة. وعن غيرهما: ألف سنة. واللَّه أعلم بحقيقة ذلك، إلا أنه ينبغي أن نفهم أن هذا الإمهال إهمال لهم، واستخفاف بشأنهم، وزيادة في غيهم. اهـ.

❑ ★ ❑ ★ ❑

بيان شهادة حواسهم عليهم

أما شهادة حواسهم عليهم فيوضحه قول اللَّه تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٠ - ٢٣].

التفسير:

﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا﴾: أى حتىٰ إذا وقفوا للحساب، ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: أى نطقت جوارحهم وشهدت عليهم بما اقترفوا من إجرام وآثام، وفي الحديث: «فَيُخْتَمُ عَلَىٰ فِيهِ - أي فمه - ثُمَّ يُقَالُ لِجَوَارِحِهِ انْطِقِي؛ فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، ثُمَّ يُخْلَىٰ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الكَلامِ فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا؛ فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ»[1]، ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾: أى وقالوا لأعضائهم وجلودهم توبيخًا وتعجبًا من هذا الأمر الغريب: لِمَ أقررتم علينا وشهدتم بما فعلنا، وإنما كنا نحاول وندافع عنكم؟ ﴿قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾: أى قالوا معتذرين: ليس الأمر بيدنا، وإنما أنطقنا اللَّه بقدرته الذي ينطق الإنسان والحيوان والجماد؛ فشهدنا عليكم بما عملتم من القبائح، ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: أى هو أوجدكم من العدم، وأحياكم بعد أن لم تكونوا شيئًا؛ فمن قدر علىٰ هذا قدر علىٰ إنطاقنا، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: أى وإليه وحده تُردون بالبعث، قال أبو السعود: المعنىٰ ليس نطقنا بعجيب من قدرة اللَّه الذي أنطق كل حي؛ فإن من قدر علىٰ خلقكم وإنشائكم أولا، وعلىٰ

(١) هذا جزء من حديث طويل أخرجه مسلم، وفيه دلالة علىٰ أن أعضاء الإنسان تشهد عليه يوم القيامة

إعادتكم ورجعكم إلىٰ جزائه ثانيًا، لا يُتعجب من إنطاقه لجوارحكم[1]، ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ ﴾ : أى وما كنتم تستخفون من هؤلاء الشهود في الدنيا حين مباشرتكم الفواحش؛ لأنكم لم تظنوا أنها تشهد عليكم، قال البيضاوي: أي كنتم تستترون عن الناس عند ارتكاب الفواحش مخافة الفضيحة، وما ظننتم أن أعضاءكم تشهد عليكم فما استخفيم منها، وفيه تنبيه علىٰ أن المؤمن ينبغي ألا يمر عليه حال إلا وعليه رقيب[2]، ﴿ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ : أي ولكن ظننتم أن اللَّه تعالىٰ لا يعلم كثيرًا من القبائح المخفية؛ ولذلك اجترأتم علىٰ المعاصي والآثام، ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ ﴾ : أى وذلكم الظن القبيح برب العالمين أنه لا يعلم كثيرًا من الخفايا ـ وحاشا للَّه ـ وهو سبحانه يعلم دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء، وهو بكل شيء عليم، ظنكم هذا هو الذي أوقعكم في الهلاك والدمار فأوردكم النار، ﴿ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ : أى فخسرتم سعادتكم وأنفسكم وأهليكم، وهذا تمام الخسران والشقاء.

نظرات في التفسير:

بعد أن بين اللَّه تعالىٰ في الآيات السابقة الصورة التي سوف يكون عليها عقاب أولئك الكافرين في الدنيا أردفه ببيان عقابهم في الآخرة، ابتداء بقوله تعالىٰ: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ [فصلت: ١٩]؛ ليحصل من هذا البيان تمام الزجر والتهديد والتحذير.

أي يحشر اللَّه تعالىٰ أعداءه إلىٰ موقف الحساب، ثم يسوقهم إلىٰ النار حتىٰ يُحبس أولهم علىٰ آخرهم فيوقف سوابقهم حتىٰ يصل إليهم تواليهم، حتىٰ إذا ما جاءوها: أي دخلوها، بدليل الشهادة عليهم بالكفر والانحراف، ولا يكون ذلك إلا من شدة الألم، ولا معنىٰ لهذه الشهادة في مواقف الحساب، وإنما المقام يقتضيها في

(١) «تفسير أبي السعود»: ٥/ ٢٢.
(٢) «تفسير البيضاوي»: ٢/ ١٥٦.

جهنم، يدعم ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾[فصلت: ٢٤]، وبناءً عليه يُفهم أن هذه الشهادة ستكون في جهنم لا قبلها، وأنها ستحصل فعلا، كما يشهد لذلك أيضًا نكران أصحابها لها، ولكن أقول ما الذي حض هؤلاء الكفرة علىٰ إنكار شهادة حواسهم هذه؟ لعل الجواب يكون أحد الأمور الآتية، أو كلها:

أ ـ إلفهم الكذب في الدنيا حتىٰ أصبح ذلك عادة لهم.

ب ـ أو هو العذاب وشدته أنستهم ما صدر عنهم.

ج ـ أو لتظهر قدرة اللَّه وعظمته وكمال حكمته في نطق الحواس التي ما كان من شأنها النطق في أيام السلم والرخاء فضلا عن أيام الآلام.

د ـ أو لتظهر المحاجة بين الكفار وحواسِّهم.

فقول الكفار لجلودهم: ﴿ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ﴾: يفيد الألم والحسرة والإقرار بالذنب والرغبة في العفو، وقول اللَّه تعالىٰ لهم: ﴿ فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾: يفيد أن صبرهم واستغاثتهم لا تقيهم النار، وقول اللَّه تعالىٰ لهم: ﴿ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾: أي إذا طلبوا العُتبىٰ والرضا من اللَّه تعالىٰ لم يُجابوا إليها، ولا سبيل لهم البتة في الحصول عليها.

هذه الأمور كلها دلت علىٰ أن إنكارهم هذا سيكون في جهنم، وخاصة إذا عرفنا أن مثل هذا الاستعتاب في القرآن وارد قرين الخلود، والشاهد علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ [الجاثية: ٣٥] وأحوالهم هذه كلها ناطقة بالخوف والرجاء والندم والتضرع، وما ذلك إلا الدعاء.

إن هؤلاء الكفرة سيلقون جهنم جزاء ما اكتسبوا من قول وفعل إذا دخلوها لم يخرجوا منها، وإذا دعوا اللَّه وتضرعوا إليه لن يجابوا، وإذا طلبوا العتبىٰ والرضا لن يقبل اللَّه منهم هذا أبدًا، كما لا يطلب منهم أن يرضوه بالتوبة والطاعة والدعاء. اهـ.



ما يمكن استنتاجه من أدعية أهل النار

١ ـ التلاعن والتخاصم والتبرؤ ورغبة التابعين في مضاعفة العذاب للمتبوعين، وهذه الخصومة بين قرناء السوء.

٢ ـ الرغبة في العودة إلىٰ الدنيا أو تخفيف العذاب، أو الموت في جهنم أو تفاديها، ولو بكل ما في حوزته من مُلْكِ الدنيا ومتعها.

٣ ـ الاعتراف بالذنب وإظهار الندم والحسرة واحتقار المتسببين في فسادهم، وطلب رؤيتهم للاستهزاء بهم.

٤ ـ استغاثتهم بأهل الجنة والالتجاء إلىٰ رؤساء الكفر وخزنة جهنم وسائر الشفعاء للتخفيف من النار.

٥ ـ التباكي والتشنج بهدف التخفيف من الألم النفسي فحسب، وبخاصة عند شهادة حواسهم عليهم.

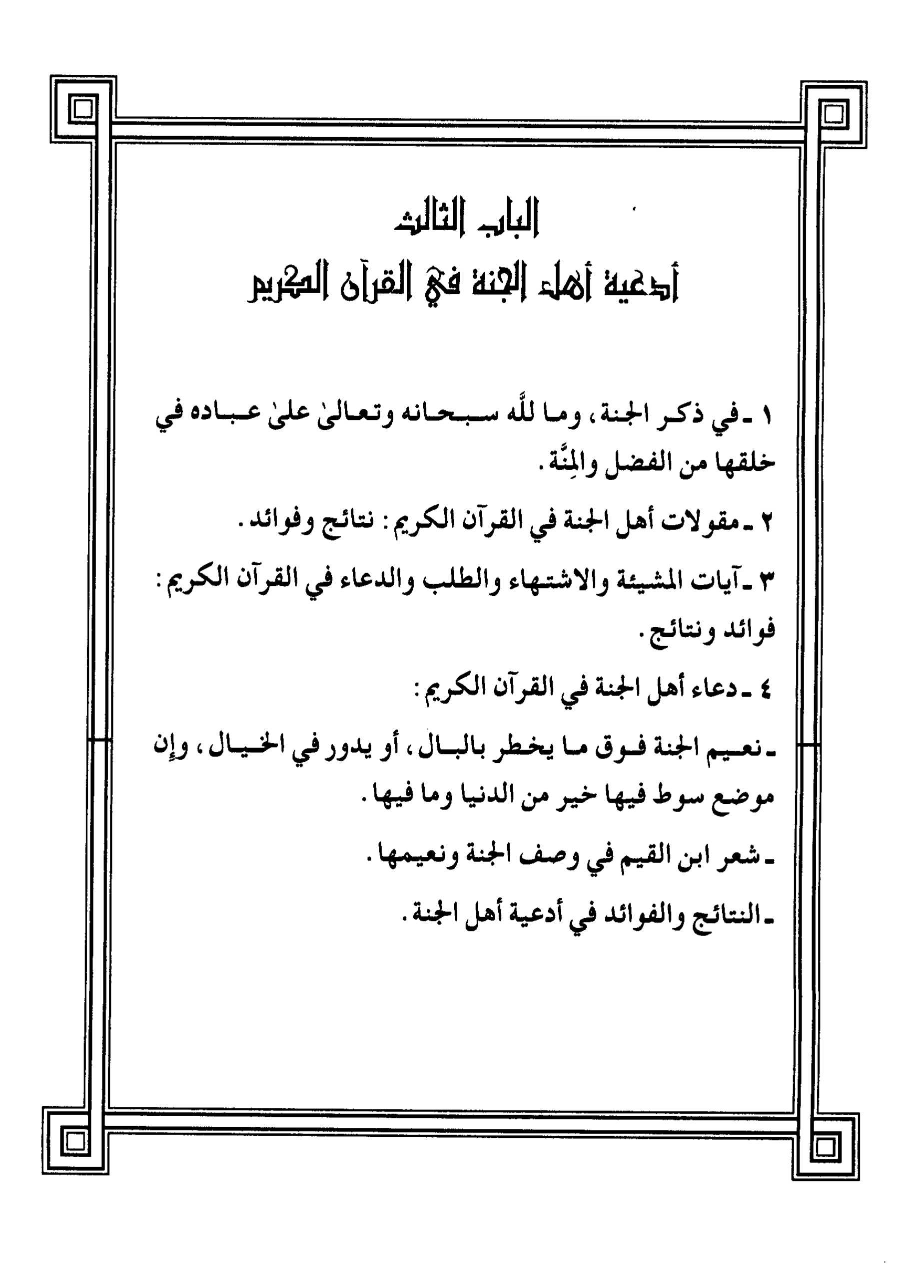
٦ ـ الدعاء علىٰ أنفسهم بالهلاك والموت، والاستنجاد بمالك خازن جهنم ليطلب لهم من ربهم القضاء عليهم.

٧ ـ لا يُقبل من نزلاء جهنم الاستعتاب والرضا والتوبة والإنابة.

٨ ـ السبب في أدعية أهل النار شدة ما يلاقونه من عذاب.

٩ ـ الهدف من أدعيتهم رفع العذاب أو تخفيفه، أو الموت والهلاك، أو العودة للدنيا، أو الصراخ للاستنخفاف.

١٠ ـ الثمرة من هذه الأدعية الاستمرار في العذاب مع تعدد ألوانه.



الباب الثالث
أدعية أهل الجنة في القرآن الكريم

١ ـ في ذكر الجنة، وما لله سبحانه وتعالىٰ علىٰ عباده في خلقها من الفضل والمِنَّة.

٢ ـ مقولات أهل الجنة في القرآن الكريم: نتائج وفوائد.

٣ ـ آيات المشيئة والاشتهاء والطلب والدعاء في القرآن الكريم: فوائد ونتائج.

٤ ـ دعاء أهل الجنة في القرآن الكريم:

ـ نعيم الجنة فوق ما يخطر بالبال، أو يدور في الخيال، وإن موضع سوط فيها خير من الدنيا وما فيها.

ـ شعر ابن القيم في وصف الجنة ونعيمها.

ـ النتائج والفوائد في أدعية أهل الجنة.

الفصل الأول: في ذكر الجنة وما لله سبحانه وتعالى على عباده في خلقها من الفضل والمنة

- الطريق إلىٰ الجنة. - صفة الجنة. - صفة أهل الجنة.

الطريق إلى الجنة

أعَدَّ اللَّهُ سبحان وتعالىٰ لعباده الصالحين في الجنة نعيمًا يفوق تصوراتنا وتقديراتنا، ويتعدىٰ تمنياتنا وتوقعاتنا، فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، تكرمًا منه وتفضلا، وتعطفًا علىٰ عباده المتقين.

قال تعالىٰ: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٦].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢-٤].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن أعرابيًا جاء إلىٰ رسول الله ﷺ؛ فقال: : يا رسول الله دلني علىٰ عمل إذا عملته دخلت الجنة فقال ﷺ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَلا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمَ الصَّلاةَ وَتُؤتِيَ الزَّكَاةَ المَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ**». قال: والذي نفسي بيده لا أزيد علىٰ هذا شيئًا أبدًا ولا أُنقص منه فلما ولّىٰ قال ﷺ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ فَلْيَنْظُرْ إِلَىٰ هَذَا**».

وفي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ شَهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَىٰ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَأَنَّ الجَنَّةَ حَقٌّ، وَأَنَّ النَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الجَنَّةِ شَاءَ**».

وفي صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه قال أتىٰ النعمان بن قوقل إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: إذا صليت الصلاة المكتوبة، وحرمت الحرام، وأحللت الحلال أدخل الجنة؟ فقال النبي ﷺ: «**نَعَمْ**».

وفي الصحيحين عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَتَانِي آتٍ مِنْ رَبِي وَأَخْبَرَنِي** - أو قال: **فَبَشَّرَنِي** - **أَنَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِكَ لا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الجَنَّةَ، قُلْتُ: وَإِنْ زَنَىٰ وَإِنْ سَرَقَ؟! قَالَ: وَإِنْ زَنَىٰ وَإِنْ سَرَقَ**».

وفي صحيح مسلم عن عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ دَخَلَ الجَنَّةَ**».

وفي صحيح مسلم أيضًا أن رسول الله ﷺ أعطىٰ أبا هريرة نعليه وقال: «**اذْهَبْ بِنَعْلَيَّ هَاتَيْنِ فَمَنْ لَقِيتَهُ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الحَائِطِ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ فَبَشِّرْهُ بِالجَنَّةِ**».

وفي سنن أبي داود عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ

يقول: «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلامِهِ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ دَخَلَ الجَنَّةَ».

وفي الصحيحين من حديث حارثة بن وهب قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «أَلا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الجَنَّةِ: كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ[1] لَوْ أَقْسَمَ عَلَىٰ اللَّهِ لأَبَرَّهُ[2]، أَلا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ: كُلُّ عُتُلٍّ[3] جَوَّاظٍ[4] مُتَكَبِّرٍ».

وروى الإمام أحمد في مسنده عن عبد اللَّهِ بن عَمْرو بن العاص عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ أَهْلَ النَّارِ: كُلُّ جَعْظَرِيٍّ جَوَّاظٍ مُتَكَبِّرٍ جَمَّاعٍ مَنَّاعٍ، وَأَهْلُ الجَنَّةِ الضُّعَفَاءُ المَغْلُوبُونَ».

وفي سنن ابن ماجه عن ابن عباس رضي اللَّهُ عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ مَنْ مَلأَ أُذُنَيْهِ مِنْ ثَنَاءِ النَّاسِ خَيْرًا وَهُوَ يَسْمَعُ، وَأَهْلُ النَارِ مَنْ مَلأَ أُذُنَيْهِ مِنْ ثَنَاءِ النَّاسِ شَرًّا وَهُوَ يَسْمَعُ».

وفي صحيح مسلم من حديث عياض المجاشعي أن رسول اللَّه ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «أَلا إِنَّ رَبِي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي مِنْ يَوْمِي هَذَا، كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبدًا حلالا، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلُّهُمْ، وَأَنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِم[5]؛ فَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمُ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا مَا لَمْ أُنَزِلْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا، وَأَنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَىٰ أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، وَقَالَ إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِي بك، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لا يغسِلُهُ المَاءُ، تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَحْرِقَ قُرَيْشًا؛ فَقُلْتُ: رَبِّ

(١) المتضعف: الذي يتضعفه الناس، ويتجبرون عليه في الدنيا لفقره.

(٢) أي صدقه في قسمه.

(٣) العتل: هو الفظ الغليظ القلب، والجواظ: الضخم المختال في مشيته، والجموع المنوع.

(٤) الجعظري: الفظ الغليظ المتكبر.

(٥) اجتالتهم: أي استخفتهم فجالوا معهم في الضلال.

إذًا يَشْلَغُوا رَأْسِي[1] فَيَدَعُوهُ خُبْزَةً قال: : اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا أَخْرَجُوكَ، وَأَغْزِهِمْ نُعِزْكَ[2]، وَأَنْفِقْ فَسَيُنْفَقْ عَلَيْكَ، وَابْعَثْ جَيْشًا نَبْعَثْ خَمْسَةً مِثْلَهُ، وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ، وَقَالَ: أَهْلُ الجَنَّةِ ثَلاثَةٌ: ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَقِيقُ القَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَىٰ وَمُسْلِمٌ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ، وَأَهْلُ النَّارِ خَمْسَةٌ: الضَّعِيفُ الذِي لا زَبْرَ لَهُ[3]، الذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعًا لا يَبْغُونَ أَهْلا وَلا مَالا، الخَائِنُ الذِي لا يَخْفَىٰ لَهُ طَمَعٌ وإن دق إلا خانه، وَرَجُلٌ لا يُصْبِحُ وَلا يُمْسِي إلا وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ، وذكر البخل، وَالشِّنْظِيرُ الفَحَّاشُ[4]، وَإِنَّ اللَّهَ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَىٰ لا يَفْخَرَ أَحَدٌ، وَلا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ».

❑ ★ ❑ ★ ❑

---

(١) أي يشدخوه ويشجو كما يشدخ الخبز ويكسر.

(٢) نُعِنْك.

(٣) لا زبر له: لا عقل له ينهاه ويزجره.

(٤) الشنظير: الفحاش السيئ الخلق.

صفة الجنة، وما لله سبحانه على عبادها في خلقها من الفضل والمنة

لا خلاف بين العلماء أنها في السماء لقوله تعالىٰ: ﴿عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾ [النجم: ١٤-١٥]، ولأنها دار نعيم فتكون في جهة العلو، خلاف النار فإنها سجن، والسجن يكون في السفل.

وقالت المعتزلة والجهمية: إن الجنة لم تخلق بعد، كما قالوا في النار، واحتجوا في الجنة بقوله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ﴾ [القصص: ٨٣]، والجعل هو الخلق، وإنما يخلقها يوم القيامة، ولنا قوله تعالىٰ: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، والمُعَدُّ ما يكون موجودًا، وما احتجوا به فليس المراد من الآية الخلق في المستقبل، بل في الماضي: أي جعلها، لئلا يقع التناقض بين الآيتين، وإذا ثبت أنها موجودة فأهلها يتنعمون فيها على الأبد، كما في أهل النار؛ فإنهم يعذبون فيها على الأبد.

وقال جهم بن صفوان يبيدان ويفنيان لئلا يصير أهلهما شركاء لله تعالىٰ، ولنا قوله تعالىٰ: ﴿جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [الكهف: ١٠٧، ١٠٨] في آيات كثيرة، وما ذكره فلا نسلم أنه يؤدي إلىٰ المشاركة لأن الله تعالىٰ واجب الوجود واجب البقاء مستحيل العدم، والعبد جائز الوجود جائز البقاء فعدمت المشاركة.

وقد جاءت في فضائل الجنة أخبار وآثار منها: قال أحمد بن حنبل[1] بإسناده عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «**جَنَّاتُ[2] الفِرْدَوْسُ**

(١) مسند أحمد ٤/٤١٦، و«البخاري» (توحيد: ٢٤)، ومسلم (إيمان: ٢٩٦).
(٢) المسند: جنان.

أَرْبَعٌ: ثِنْتَان مِنْ ذَهَبٍ حَلْيَتِهِمَا وآنِيَتِهِمَا وَمَا فِيهِمَا، وَثِنْتَان مِنْ فِضَّةٍ: حَلْيَتِهِمَا وآنِيَتِهِمَا وَمَا فِيهِمَا، وَلَيْسَ بَينَ القَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلىٰ رَبِّهِمْ إِلا رِدَاءُ الكِبْرِيَاءِ عَلَىٰ وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ». أخرجاه في الصحيحين.

ومنها حديث أبي موسىٰ أيضًا عن النبي ﷺ قال[1]: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ لَخَيْمَةً مِنْ دُرَّةٍ مُجَوَّفَةٍ، عَرْضُهَا سِتُّونَ مِيلا، فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا أَهْلٌ مَا يَرَوْنَ الآخَرِينَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمُ المُؤْمِنُ».

وفيهما من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال[2]: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ». فإن قيل: فأعلىٰ ما في الجنة النظر، وقد خطر علىٰ قلوبنا أنا نراه؛ فكيف قال: ولا خطر علىٰ قلب بشر؟! فالجواب: أننا في وقت النظر يحصل لنا من اللذة والاستغراق ما لم يخطر علىٰ قلب بشر.

وفي الصحيحين[3] أيضًا عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَلِجُ الجَنَّةَ صُورَتُهُمْ عَلَىٰ صُورَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ، لا يَبْصُقُونَ فِيهَا وَلا يَمْتَخِطُونَ وَلا يَتَغَوَّطُونَ، آنِيَتُهُمْ فِيهَا الذَّهَبُ، وَأَمْشَاطُهُمْ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ، وَمَجَامِرُهُم الأَلُوَّةُ، وَرَشْحُهُمُ المِسْكُ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَان: يُرَىٰ مُخُّ سُوقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ الحُسْنِ، لا اخْتِلافَ بَيْنَهُمْ وَلا تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُمْ عَلَىٰ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا».

---

(١) «البخاري» (تفسير سورة: ٥٥، بدء الخلق: ٨)، ومسلم (جنة: ٢٣ - ٢٥)، ومسند أحمد ٣: ١١٣، ١١٥، ٤/ ٤٠٠، ٤١١.

(٢) «البخاري» (توحيد: ٣٥، بدء الخلق: ٨)، ومسلم (إيمان: ٣١٢)، ومسند أحمد ٢: ٣١٣، ٣٧٠، ومواطن أخرىٰ.

(٣) «البخاري» (بدء الخلق: ٨، أنبياء: ١)، ومسلم (جنة: ١٤ - ١٦)، ومسند أحمد ٢: ٢٣٠، ومواطن أخرىٰ كثيرة.

وفيهما من حديث أبي ذر عن النبي ﷺ قال[1]: «**أُدْخِلْتُ الجَنَّةَ فَإِذَا فِيهَا جَنَابِذُ اللُّؤْلُؤِ، وَتُرَابُهَا المِسْكُ**»، والجنابذ: القباب، وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري أن رسول اللّه ﷺ قال[2]: «**إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ يَتَرَاءونَ أَهْلَ الغرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ العَاثِرَ فِي الأُفُقِ مَنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ لِتَفَاضلِ مَا بَيْنَهُمْ**».

قلت: وقد رويت هذه اللفظة: «**العَاثِر**»، وليست بشيء، والمشهور من حديث أبي سعيد الذي أخرجه الحميدي: «**الغَارِبُ فِي الأُفُقِ الشَّرْقِي أَوْ الغَرْبِي**»، وفي رواية: «**الكَوْكَبُ الدُّرِيُّ**»؛ فأما العاثر فهو السهم الذي لا يدري من رمىٰ به.

تمام الحديث: قالوا: يا رسول اللّه تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؛ فقال: «**وَالذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا باللّهِ وَصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ**».

وفيهما من حديث سهل بن سعد وأبي سعيد وأبي هريرة وأنس كلهم عن النبي ﷺ أنه قال[3]: «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لا يَقْطَعُهَا**»، وقد ذكرنا الحديث.

وأخرج أحمد في المسند[4] عن عتبة بن عبد السلمي: أنها تشبه شجرة الجوز بالشام، قال: تنبت علىٰ ساق واحد، وينفرش أعلاها، وقال مسلم بإسناده عن أنس عن النبي ﷺ قال[5]: «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ لَسُوقًا يَأْتُونَهَا كُلَّ جُمْعَةٍ؛ فَتَهُبُّ فِيهَا رِيَاحُ الشَّمَال فَتَحْثُوا فِي وُجُوهِهِمْ وَثِيَابِهِمْ فَيَزْدَادوا جَمَالا وحُسْنًا؛ فَيَرْجِعُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ فَيَقُولُونَ لَهُمْ: وَاللّهِ لَقَدِ ازْدَدْتُمْ حُسْنًا وَجَمَالا**». انفرد بإخراجه مسلم.

---

(١) «البخاري» (صلاة: ١، أنبياء: ٥)، ومسلم (إيمان: ٢٦٣)، ومسند أحمد ٥: ١٤٤.

(٢) «البخاري» (بدء الخلق: ٨)، ومسلم (جنة: ١٠ - ١١)، ومسند أحمد ٢: ٢٣٥، ٣٣٩.

(٣) مر تخريجه.

(٤) مسند أحمد ٤: ١٨٤.

(٥) صحيح مسلم (جنة: ١٣)، ومسند أحمد ٣: ٢٨٤، ٢٨٥.

وقال الترمذي[1] بإسناده عن حسان بن عطية عن سعيد بن المسيب أنه لقي أبا هريرة فقال أبو هريرة أسأل اللَّه أن يجمع بيني وبينك في سوق الجنة. فقال سعيد: أفيها سوق؟! قال: نعم، أخبرني رسول اللَّه ﷺ أن أهل الجنة إذا دخلوها نزلوا فيها بفضل أعمالهم، ثم يؤذن لهم في مقدار يوم الجمعة من أيام دار الدنيا؛ فيزورون ربهم، ويبرز لهم عرشه، ويتبدىٰ لهم في روضة من رياض الجنة؛ فيوضع لهم منابر من نور، ومنابر من لؤلؤ، ومنابر من ياقوت، ومنابر من زبرجد، ومنابر من ذهب، ومنابر من فضة، ويجلس أدناهم - وما فيهم دني - علىٰ كثبان المسك والكافور، ما يرون بأن أصحاب الكراسي أفضل منهم مجلسًا. قال أبو هريرة: قلت يا رسول اللَّه وهل نرىٰ ربنا؟ قال: «**نَعَمْ، هَلْ تُمَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمسِ وَالقَمَرِ لَيلَةَ البَدْرِ؟**» قلنا لا. قال: «**كَذَلِكَ لا تُمَارُونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ**». ولا يبقىٰ في ذلك المجلس رجل إلا حاضره اللَّه محاضرة، حَتىٰ يقول للرجل: يا فلان، أتذكر يوم قلت كذا وكذا؟ فيذكره بعض غدراته في دار الدنيا؛ فيقول: رب ألم تغفر لي؟ فيقول بلىٰ، بسعة مغفرتي بلغت منزلتك هذه، فبينما هم كذلك غشيتهم سحابة من فوقهم فأمطرت عليهم طيبًا لم يجدوا مثل أو مثل ريحه شيئًا قط، ويقول ربنا: قوموا إلىٰ ما أعددت لكم من الكرامة فخذوا ما اشتهيتم؛ فنأتي سوقًا قد حفَّت به الملائكة، فيه ما لم تنظر العيون إلىٰ مثله، ولم تسمع الأذن، ولم يخطر علىٰ قلب بشر؛ فيحمل إلينا ما اشتهينا، ليس يباع فيه ولا يشترىٰ، وفي هذا السوق أهل الجنة يلقىٰ بعضهم بعضًا؛ فيقبل الرجل ذو المنزلة المرتفعة فيلقىٰ من هو دونه - وما فيهم دون - فيروعه ما عليه من اللباس؛ فما ينقضي حديثه حتىٰ يحل عليه ما هو أحسن منه، وذلك لأنه لا ينبغي لأحد أن يحزن فيها، ثم ننصرف إلىٰ منازلنا فيلقانا أزواجنا فيقلن: مرحبًا وأهلا، لقد جئتم وإن عليكم من الجمال أفضل مما فارقتمونا عليه؛ فيقولون: إنا جالسنا اليوم ربنا الجبار، وبحقنا أن ننقلب بمثل ما انقلبنا.

---

(٤) الترمذي (جنة: ١٥)، وابن ماجه زهد: ٣٩.

وقال أحمد بن حنبل[1] بإسناده عن أبي المدله أنه سمع أبا هريرة يقول: قلنا: يا رسول الله حدثنا عن الجنة ما بناؤها؛ فقال: «**لَبِنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ، وَلَبِنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ، ومِلاطُهَا المِسْكُ الأذْفَرُ، وَحَصَاهَا اللُّؤْلُؤُ وَاليَاقُوتُ، وَتُرَابُهَا الزَّعْفَرَانُ، مَنْ يَدْخُلُهَا يَنْعَمُ وَلا يَبْأَسُ، وَيَخْلُدُ وَلا يَمُوتُ، لا تَبْلَىٰ ثِيَابُهُ، وَلا يَفْنَىٰ شَبَابُهُ**».

وروىٰ الترمذي وأحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ[2]: «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، وَإِنَّ جَنَّةَ الفِرْدَوْسِ أَوْسَطُهَا وَأَعْلاهَا سماء، وَعَلَيْهَا يُوضَعُ العَرْشُ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَمِنْهَا تَنْفَجِرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ**»؛ فقال له رجل: بأبي وأمي أنت يا رسول الله، هل فيها خيل؟ قال: «**نَعَمْ، والذِي نَفْسِي بيَدِهِ، إِنَّ فِيهَا لَخَيْلا مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ، تَرِفُّ بِهِمْ بَيْنَ خِلالِ وَرَقِ الجَنَّةِ يَتَزَاوَرُونَ عَلَيْهَا**». فقال له رجل: فهل فيها من إبل؟ قال: «**نَعَمْ، والذِي نَفْسِي بيَدِهِ، إِنَّ فِيهَا لإبلا مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ، رِحَالُهَا الذَّهَبُ والفِضَّةُ، عَلَيْهَا نَمَارِقُ الدِّيبَاجِ، تَرِفُّ بِهِمْ خِلالَ وَرَقِ الجَنَّةِ يَتَزَاوَرُونَ عَلَيْهَا**». فقال له رجل: هل فيها صوت؟ قال: «**نَعَمْ، إِنَّ اللَّهَ لَيُوحِي إِلَىٰ شَجَرَةٍ فِي الجَنَّةِ أَنْ أَسْمِعِي عِبَادِي هَؤُلاءِ الذِينَ شَغَلَهُمْ ذِكْرِي فِي الدُّنْيَا عَنْ عَزْفِ المَزَاهِرِ وَالمَزَامِيرِ بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّقْدِيسِ**».

وفي حديث ابن مسعود قال: أنهار الجنة تتفجر من جبل مسك، وفي رواية: وتجري في عين أخدود، وقال ابن عباس: خمر الجنة أشد بياضًا من اللبن، وعن ابن عباس أنه قال: الجنان سبع: دار الجلال، ودار السلام، وجنة عدن، وهي قصبة الجنة، وهي مشرفة علىٰ الجنان، وجنة المأوىٰ، وجنة الخلد، وجنة الفردوس، وجنة النعيم. قال: ونخل الجنة جذوعها زمرد أخضر، وتربا ذهب أحمر، وسعفها كسوة أهل الجنة.

---

(١) مسند أحمد ٣: ١٥٢، ٢٤٧.

(٢) بعضه في مسند أحمد ٥: ٣٥٢، وانظر الترمذي (جنة: ١١).

وقال أحمد بن حنبل حدثنا عبد الرزاق بإسناده عن سهل بن سعد عن النبي ﷺ أنه قال[١]: «**إنَّ فِي الجَنَّةِ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابٍ، فِيهَا بَابٌ يُسَمَّىٰ الرَّيَانُ لا يَدْخُلُهُ إلا الصَّائِمُونَ**». أخرجاه في الصحيحين.

وحدثنا عبد الوهاب بن علي الصوفي بإسناده عن أنس بن مالك قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**يَدْخُلُ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ عَلَىٰ طُولِ آدَمَ: سِتِينَ ذِرَاعًا، وعلىٰ حُسْنِ يُوسُفَ، وَعَلَىٰ مِيلادِ عِيسَىٰ ثلاثًا وَثَلاثِين سَنَةً، وَعلَىٰ لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ**».

وقال ابن أبي الدنيا بإسناده عن الحسن عن أنس قال: قال النبي ﷺ: «**إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ يَشْتَاقُ الإِخْوَانُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ؛ فَيَسِيرُ سَرِيرُ هَذَا إِلَىٰ سَرِيرِ هَذَا، وَسَرِيرُ هَذَا إِلَىٰ سَرِيرِ هَذَا حَتَّىٰ يَجْتَمِعَا؛ فَيَتَّكِئُ هَذَا وَيَتَّكِئُ هَذَا؛ فَيَقُولُ لِصَاحِبِهِ: تَعْلَمُ مَتَّىٰ غُفِرَ لنا؟ فَيَقُولُ صَاحِبُهُ: نَعَمْ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا فِي مَوْضِعِ كَذَا وَكَذَا**».

وقال أحمد بن حنبل[٢] حدثنا عبد الملك بن أبجر بإسناده عن ابن عمر قال: قال رسول اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ أَدْنَىٰ أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً لَيَنْظُرُ فِي مُلْكِهِ أَلْفَيْ سَنَةٍ يَرىٰ أَقْصَاهُ كَمَا يَرَىٰ أَدْنَاهُ، وَإِنَّ أَفْضَلَهُمْ مَنْزِلَةً مَنْ يَنْظُرُ إِلَىٰ[٣] وَجْهِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي كُلِّ يَوْمٍ مَرَّتَيْنِ**».

فإن قيل فهل في الجنة توالد؟ فالجواب: أن فيه قولين: أحدهما أن لا يكون فيها توالد؛ لأن الولادة محل الأقذار والجنة طاهرة، والثاني أنه يكون فيها توالد، وقد دل عليه الحديث، قال أحمد[٤] حدثنا علي بن عبد اللَّه بإسناده عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «**إِذَا اشْتَهَىٰ المُؤْمِنُ الوَلَدَ فِي الجَنَّةِ كَانَ حَمْلُهُ وَوَضْعُهُ وَسِنُّهُ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ**».

---

(١) «البخاري» (صوم: ٤)، ومسلم ١: ٣١٧، وفي المسند ٥: ٣٣٥ حديث مثابة.

(٢) مسند أحمد ٢: ١٣، ٦٤، و«البخاري» (رقاق: ٥١)، ومسلم (إيمان: ٣٠٨، ٣١١، ٣١٤).

(٣) المسند: في.

(٤) مسند أحمد ٣/٩، وابن ماجه (زهد: ٣٩)، والترمذي (جنة: ٣٩).

صفة أهل الجنة

أهل الجنة في سعادة دائمة، وطمأنينة أبدية لا تنتهي ولا تتبدل؛ منعمون بما حباهم اللَّه من الخير الكثير والنعيم المقيم علىٰ أحسن صورة، كأنهم أبناء ثلاثة وثلاثين قوة وشبابًا وفتوة، لا يفتر شبابهم، وجوههم كالقمر ليلة البدر وأصفىٰ وأحسن، وأجسامهم كوجوههم: يُرىٰ باطنها من ظاهرها، وظاهرها من باطنها، طيبة روائحهم من غير طيب، أحسن من المسك، وأطيب من العنبر، يرشح من أجسادهم عرق أحسن من المسك وأطيب من العنبر، متناسبة أعضاؤهم ووجوههم ورءوسهم وأيديهم وأرجلهم، أشرق علىٰ وجوههم السناء والضياء والبهاء،وشملهم الجمال، واستولىٰ عليهم الكمال، يزدادون نضارة علىٰ تجدد الأوقات والأزمان، لا تفتر همَّتهم، ولا تكِلُّ ألسنتهم عن التقديس والتسبيح والتحميد والتعظيم للَّه عز وجل، ولا يعتريهم القلق، ولا يصل إليهم الهم، ولا يمر عليهم الغم، ولا تضيق صدورهم، ولا تستوحش نفوسهم، ولا تذهل عقولهم، ولا ترتاع قلوبهم، قد صفت لهم الدار، واطمأن بهم القرار؛ فطوبىٰ لهم وحسن مآب.

قال تعالىٰ: ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ** ﴾ [عبس: ٣٨، ٣٩].

وقال تعالىٰ: ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (٨) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً** ﴾ [الغاشية: ٧ - ١١].

وقال تعالىٰ: ﴿ **ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ** ﴾ [الأعراف: ٤٩].

وقال تعالىٰ: ﴿ **يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ** ﴾ [الزخرف: ٦٨].

وأهل الجنة صدورهم خالية من الغِلِّ والحسد: قال تعالىٰ: ﴿ **وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم**

مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٧، ٤٨].

ووجوههم خالية من السواد والذِّلة، قال تعالىٰ: ﴿وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وأهل الجنة لا لغو في حديثهم قال تعالىٰ: ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلامًا سَلامًا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦].

وأهل الجنة في نعيم دائم خالد لا يبيد أبدًا، قال تعالىٰ: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥].

وعن أبي هريرة رضي اللّه عنه عن النبي ﷺ قال: «يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي زُمْرَةٌ هُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا تُضِيءُ وُجُوهُهُمْ إِضَاءَةَ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ» متفق عليه.

وعن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّهِ ﷺ: «أَوَّلُ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ عَلَىٰ صُورَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ، ثُمَّ الذِين يَلُونَهُمْ عَلَىٰ أَشَدِّ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً، لا يَبُولُونَ وَلا يَتَغَوَّطُونَ[1] وَلا يَتْفُلُونَ وَلا يَتَمَخَّطُونَ، أَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ، وَرَشْحُهُمُ المِسْكُ، وَمَجَامِرُهُمُ الأَلُوَّةُ[2] أَزْوَاجُهُمُ الحُورُ العِينُ، عَلَىٰ خَلْقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ عَلَىٰ صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ». متفق عليه.

وعن معاذ بن جبل رضي اللّه عنه أن النبي ﷺ قال: «يَدْخُلُ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ مُرْدًا[3] مُكَحَّلِينَ، أَبْنَاءَ ثَلاثِينَ، أو ثَلاثٍ وَثَلاثِينَ سنة» رواه الترمذي.

---

(١) لا يتبرزون.

(٢) الألوة: عود هندي يتبخر به.

(٣) مُرْدًا: جمع أمرد، وهو الذي لا شعر على لحيته.

أهل الجنة لا ينامون:

عن جابر رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**النَّوْمُ أخُو المَوْتِ، وَأَهْلُ الجَنَّةِ لا يَنَامُونَ**» رواه ابن مردويه.

وعن جابر أيضًا قال: سُئِلَ نبي اللَّه ﷺ فقيل: أيَنَامُ أهلُ الجنة؟ قال النبي ﷺ: «**النَّوْمُ أخُو المَوْتِ، وَأَهْلُ الجَنَّةِ لا يَنَامُونَ**».

الجنة تزداد حسنًا على الدوام:

عن كعب قال: ما نظر اللَّهُ إلىٰ الجنة إلا قال: طيبي لأهلك؛ فتزداد ضِعفًا ـ بكسر الضاد ـ حتىٰ يدخلها أهلها.

وأخرج أحمد في مسنده عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ يَنْعَمُ وَلا يَبْأَسُ**[1]**، لا تَبْلَىٰ ثِيَابَهُ، وَلا يَفْنَىٰ شَبَابُهُ، فِي الجَنَّةِ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ**»[2].

اللهم إنا نسألك الجنة وما قرَّب إليها من قول وعمل، ونعوذ بك من النار وما قرَّب إليها من قول وعمل، اللهم حقِّق لنا هذه الغاية، إنك علىٰ كل شيء قدير، وبالإجابة جدير، وصلِّ اللَّهم علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم.

❑ ★ ❑ ★ ❑

---

(١) البؤس: الفقر والاحتياج، قال تعالىٰ: ﴿وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٨]

(٢) مسند أحمد ج٣/٨٨٣٥ـ٩٢٩٠، ٩٤٠٠، ٩٩٦٤، قيام الساعة، ذكر الجنة وأوصافها.

الفصل الثاني: مقولات أهل الجنة في القرآن الكريم نتائج وفوائد

وردت مقولات أهل الجنة في القرآن الكريم في سور الأعراف وفاطر والزمر

الآية الأولى

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

التفسير:

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾: أي طهرنا قلوبهم من الحسد والبغضاء حتىٰ لا يكون بينهم إلا المحبة والتعاطف، كما ورد في الحديث: «**يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَيْسَ فِي قُلُوبِ بَعْضِهِمْ عَلَىٰ بَعْضٍ غِلٌّ**»[1]، وصيغة الماضي تفيد التحقق والتثبت. ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ﴾: أي تجري أنهار الجنة من تحت قصورهم زيادة في نعيمهم. ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾: أي وفقنا لتحصيل هذا النعيم العظيم، ولولا هداية اللَّه تعالىٰ وتوفيقه لما وصلنا إلىٰ هذه السعادة. ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾: أي واللَّه لقد صدقنا الرسل فيما أخبرونا به عن اللَّه عز وجل. ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: أي وتناديهم الملائكة أن هذه هي الجنة التي أعطيتموها برحمة وفضل من اللَّه، ثم أعمالكم الصالحة في الدنيا. قال القرطبي: ورثتم منازلها بعملكم، ودخولكم إياها برحمة اللَّه وفضله، وفي الحديث: «**لَنْ يَدْخُلَ أَحَدُكُمُ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ**»[2]. الحديث.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.
(٢) أخرجه مسلم، وانظر القرطبي: ٧/ ٢٢٩.

نظرات في التفسير: نتائج وفوائد:

اشتملت هذه الآية علىٰ المعاني والفوائد والنتائج التالية:

الأولىٰ: اللَّه تعالىٰ ينزع الحقد الذي كان في صدور المؤمنين في الدنيا؛ إذ الجنة ليست صالحة لذلك.

الثانية: أن المؤمنين في الجنة يتمتعون بقصور عالية، وأنهار عذبة صافية جارية تحت أشجار هذه القصور زيادة في النعيم.

الثالثة: أنهم يحمدون اللَّه تعالىٰ في الجنة علىٰ هدايته لهم للأعمال الصالحة التي أدت نتائجها إلىٰ هذا النعيم.

الرابعة: اعترافهم وهم في بحبوحة ذلك النعيم أن رسل اللَّه جاءتهم بكل حق وعدل وفضيلة.

الخامسة: تناديهم الملائكة قائلة لهم إن هذه الجنة وما فيها من نعيم هي في حكم الميراث لكم، وتلك رحمة اللَّه بكم جزاء ما كنتم تعملون من الصالحات.



الآية الثانية

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ [فاطر: ٣٣ ـ ٣٥]

التفسير:

أخبر اللَّه تعالىٰ عما أعده للمؤمنين في جنات النعيم فقال تعالىٰ: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾: أي جنات إقامة ينعمون فيها بأنواع النعيم، وهي مراتب ودرجات متفاوتة حسب تفاوت الأعمال، وإنما جمع الجنات لأنها جنات كثيرة وليست جنة واحدة: فهناك جنة الفردوس، وجنة عدن، وجنة النعيم، وجنة المأوىٰ، وجنة الخلد، وجنة السلام، وجنة عليين، وفي كل جنة مراتب ونُزُل بحسب مراتب العاملين. ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ﴾: أي يزينون في الجنة بأساور من ذهب مرصعة باللؤلؤ. ﴿ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾: أى وجميع ما يلبسونه في الجنة من الحرير، بل وفرشهم وستورهم، قال القرطبي: لما كانت الملوك تلبس في الدنيا الأساور والتيجان جعل اللَّه ذلك لأهل الجنة، وليس أحد من أهل الجنة إلا في يده ثلاثة أسورة: سوار من ذهب وسوار من فضة وسوار من لؤلؤ[1]. ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ﴾: أي وقالوا عند دخولهم الجنة الحمد للَّه الذي أذهب عنا جميع الهموم والأكدار والأحزان.

قال المفسرون: عبر بالماضي ﴿ وَقَالُوا ﴾ لتحقق وقوعه، والحزن يعم كل ما يكدر صفو الإنسان: من خوف المرض، والفقر، والموت، وأهوال القيامة، وعذاب النار، وغير ذلك[2]﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾: أي واسع المغفرة للمؤمنين، شكور لطاعة المطيعين،

(١) «القرطبي»: ٩٢/٥٢ .

(٢) انظر تفسير أبي السعود: ٤/٢٤٥، والطبري: ٢٢/٩١ .

وكلا اللفظين للمبالغة، أي واسع الغفران، عظيم الشكر والإحسان، ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ﴾ : أي أنزلنا الجنة وأسكننا فيها، وجعلها مقرًا لنا وسكنًا، لا نتحول عنها أبدًا، وكل ذلك من إنعامه وتفضله علينا. ﴿لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ : أي لا يصيبنا فيها تعب ولا مشقة، ﴿وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ : أي ولا يصيبنا فيها إعياء ولا فتور، قال ابن جزي : وإنما سميت الجنة ﴿دَارَ الْمُقَامَةِ﴾ لأنهم يقيمون فيها ويمكثون ولا يخرجون منها، والنصب تعب البدن، واللغوب تعب النفس الناشئ عن تعب البدن[1] .

نظرات في التفسير: نتائج وفوائد:

الأولىٰ: أن المؤمنين سيكونون في جنات إقامة دائمة يتزينون فيها بالذهب واللؤلؤ والحرير، وهو لباس الملوك في الدنيا .

الثانية: أن أهل الجنة يحمدون اللَّه تعالىٰ علىٰ إذهاب الحزن عنهم بجميع أنواعه .

الثالثة: أن المؤمنين أهل الجنة اعترفوا بنعم اللَّه عليهم؛ حيث أنزلهم دار المقامة من فضله وكرمه، ورفع عنهم المتاعب والإرهاق؛ فلا نصب يمسهم، ولا لغوب يلحقهم .

❏ ★ ❏ ★ ❏

(١) «التسهيل في علوم التنزيل»: ٣/ ١٥٩ .

الآية الثالثة

قال تعالىٰ: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٣، ٧٤].

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾: أى وسيق الأبرار المتقون للَّه إلىٰ الجنة جماعات جماعات: راكبين علىٰ النجائب، قال القرطبي: سَوْق أهل النار طردهم إليها بالخزي والهوان كما يفعل بالمجرمين الخارجين علىٰ السلطان، وسوق أهل الجنان سوق مراكبهم إلىٰ دار الكرامة والرضوان لأنه لا يُذهب بهم إلا راكبين، كما يفعل بالوافدين علىٰ الملوك؛ فشتان ما بين السوقين[(١)] ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾: أي حتىٰ إذا جاءوها وقد فتحت أبوابها كقوله تعالىٰ ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ [ص: ٥٠]، قال الصاوي: والحكمة في زيادة الواو هنا ﴿وَفُتِحَتْ﴾ دون التي قبلها أن أبواب السجون تكون مغلقة إلىٰ أن يجيئها أصحاب الجرائم فتفتح لهم ثم تغلق عليهم، بخلاف أبواب السرور والفرح فإنها تفتح انتظارًا لمن يدخلها فناسب دخول الواو هنا دون التي قبلها[(٢)]. ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾: أي وقال لهم حرَّاس الجنة: سلام عليكم أيها المتقون الأبرار ﴿طِبْتُمْ﴾: أي طُهرتم من دنس المعاصي والذنوب؛ فادخلوا الجنة دار الخلود. قال البيضاوي: وجواب: ﴿إِذَا﴾ محذوف للدلالة علىٰ أن لهم من الكرامة والتعظيم ما لا يحيط به الوصف والبيان[(٣)]، ويقول ابن كثير: تقديره إذا كان هذا سعدوا وطابوا، وسروا وفرحوا بقدر ما يكون لهم من النعيم[(٤)]، ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾: أي وقالوا عند دخولهم الجنة واستقرارهم فيها الحمد للَّه الذي حقق لنا ما وعدنا به من دخول الجنة، قال المفسرون:

(١) «تفسير القرطبي»: ١٥/ ٢٨٥.
(٢) «حاشية الصاوي»: ١٣/ ٣٨١.
(٣) «تفسير البيضاوي»: ٢/ ١٤٧. (٤) «تفسير ابن كثير»: ٣/ ٢٣٢.

والإشارة إلىٰ وعده تعالىٰ لهم بقوله تعالىٰ: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾، ﴿وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾: أي وملكنا أرض الجنة نتصرف فيها تصرف المالك في ملكه، وننزل فيها حيث نشاء لا ينازعنا فيها أحد؛ ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾: أي ونعم أجر العاملين بطاعة اللَّه الجنة.

نظرات في التفسير: نتائج وفوائد:

الأولـــىٰ: يُساق الذين اتقوا ربهم بلطف إلىٰ الجنة جماعات، حتىٰ إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم حالة كونكم طيبين مقدرين الخلود.

الثـانيــة: وسوقهم علىٰ هذه الصورة، وتفتح الأبواب قبل مجيئهم تكرمة لهم عندئذ: أي عند دخول المؤمنين الجنة لهجت ألسنتهم بحمد اللَّه وشكره والثناء عليه لأنه صدق وعده لهم بالجنة، وأورثهم أرضا ينزلون في أي مكان منها حيث يشاءون؛ لأنه لا فضل لبعضها علىٰ البعض الآخر؛ إذا لا يمتاز فيها مكان علىٰ مكان.

الثالثة: من هذا العرض الموجز السريع يتضح لنا أن المؤمنين في الجنة سيحظون بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر، وقد نص علىٰ ذلك كتاب اللَّه تعالىٰ، وحديث رسول اللَّه ﷺ كما تقدم.

الرابعـــة: ومادام قد ثبت أنه لا مزيد علىٰ ما مَنَّ اللَّه به من فضل علىٰ عباده المؤمنين في الجنة؛ فهل يجوز بعد هذا للمؤمنين السؤال والدعاء في الجنة؟ علىٰ أنه توجد آيات كثيرة في القرآن تثبت أن لهم في الجنة ﴿مَّا يَشَاءُونَ﴾ و﴿مَا تَدَّعُونَ﴾؟ وهل هذان اللفظان يحملان معنىٰ الدعاء صراحة أم ضمنًا؟



الفصل الثالث: آيات المشيئة والاشتهاء والطلب والدعاء في القرآن الكريم نتائج وفوائد
آيات المشيئة والاشتهاء

الآية الأولى

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿ **جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ** ﴾ [النحل: ٣١].

التفسير:

﴿ **جَنَّاتُ عَدْنٍ** ﴾: أى جنات إقامة يدخلونها تجري من تحتها الأنهار: أى يدخلون تلك الجنات التي تجري من بين أشجارها وقصورها الأنهار ﴿ **لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ** ﴾: أى لهم في تلك الجنات ما يشتهون دون كدر ولا تعب، ولا انقطاع ولا نصب ﴿ **كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ** ﴾: أي بمثل هذا الجزاء الكريم يجزي اللَّه عباده المتقين لمحارمه المتمسكين بأوامره.

❑ ★ ❑ ★ ❑

الآية الثانية

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً (١٥) لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْداً مَّسْئُولاً﴾ [الفرقان: ١٥، ١٦].

التفسير:

﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾: أي قل لهم يامحمد ﷺ علىٰ سبيل التقريع والتهكم؛ أذلك السعير خير أم جنة الخلود التي وعدها اللَّه للمتقين من عباده؟ قال ابن كثير: يقول اللَّه تعالىٰ يا محمد، هذا الذي وصفناه لك من حال الأشقياء الذين تتلقاهم جهنم بوجه عبوس، وتغيظ وزفير، ويُلقون في أماكنها الضيقة مقرنين، لا يستطيعون حراكًا، ولا فكاكًا مما هم فيه أهذا خير أم جنة الخلد، التي وعدها اللَّه المتقين من عباده[1]، قال الإمام الفخر: فإن قيل: كيف يقال العذاب خير أم جنة الخلد؟ وهل يجوز أن يقول العاقل: السكر أحلىٰ أم الصبر؟ قلنا: هذا يحسن في معرض التقريع، كما إذا أعطىٰ السيد عبده مالا فتمرد وأبىٰ واستكبر فيضربه ضربًا وجيعًا، ويقول علىٰ سبيل التوبيخ: أهذا أطيب أم ذلك؟[2] ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً﴾: أى كانت لم ثوابًا ومرجعًا ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾: أى لهم في الجنة ما يشاءون من النعيم، ﴿خَالِدِينَ﴾: أي ماكثين فيها أبدًا، سرورًا بلا زوال ولا انقضاء، ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْداً مَّسْئُولاً﴾: أي كان ذلك الجزاء وعدًا علىٰ ذي الجلال حقيقًا، ويطلب لكونه مما يتنافس فيه المتنافسون، وهو وعد واجب.

❑ ★ ❑ ★ ❑

(١) «تفسير ابن كثير»: ٣/ ٦٢٦.

(٢) «التفسير الكبير»: ٢٤/ ٥٧.

الآية الثالثة

قال تعالىٰ: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ [الشورىٰ: ٢٢].

التفسير:

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ ﴾: أي والمؤمنون الصالحون في رياض الجنة يتمتعون في أطيب بقاعها، أو في أعلىٰ منازلها، ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾: أي لهم في الجنات ما يشتهون من أنواع اللذائذ والنعيم، والثواب العظيم عند رب كريم، قال ابن كثير: فأين هذا من هذا؟!

أين من هو في الذل والهوان ممن هو في روضات الجنان؟ فيما يشاء من مآكل ومشارب وملاذ؟[1]، ولهذا قال اللَّه تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾: أي ذلك النعيم والجزاء هو الفوز الأكبر الذي لا يوازيه شيء، قال القرطبي: أى الفضل الذي لا يوصف، ولا تهتدي العقول إلىٰ حقيقة صفته؛ لأن الحق جل وعلا إذا قال ﴿ كَبِيرُ ﴾ فمن ذا الذي يقدر قدره؟[2].



(١) «تفسير ابن كثير»: ٣/ ٢٧٥.
(٢) «تفسير القرطبي»: ١٦/ ٢٠.

الآية الرابعة

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿ **يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ [الزخرف: ٧١].

التفسير:

﴿ **يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ** ﴾: أي يطاف علىٰ أهل الجنة بأوان من الذهب فيها الطعام، وأقداح من ذهب فيها الشراب، قال ابن كثير: آنية أهل الجنة التي يأكلون فيها الطعام والكئوس التي يشربون فيها الشراب كلها من ذهب وفضة[1]، كما قال تعالىٰ: ﴿ **وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا** ﴾ [الإنسان: ١٥]، وفي الحديث: «**لا تَلْبَسُوا الحَرِيرَ ولا الدِّيبَاجَ، وَلا تَشْرَبُوا فِي آنِيَةِ الذَهَبِ وَالفِضَّةِ، وَلا تَأْكُلُوا فِي صِحَافِهِمَا؛ فَإِنَّهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَكُمْ فِي الآخِرَةِ**»[2].

﴿ **وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ** ﴾: أي وفي الجنة كل ما تشتهيه النفوس من أنواع اللذائذ والمشهيات، وتُسَرُّ به الأعين من المناظر الجميلة والمشاهد اللطيفة، ﴿ **وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾: أي وأنتم في الجنة باقون دائمون، لا تخرجون منها أبدًا، قال أبو السعود: وهذا تمام للنعمة، وكمال للسرور؛ فإن كل نعيم زائل موجب لخوف الزوال[3].

نظرات في التفسير:

هذه الآيات الأربع تفيد أن للمؤمنين في الجنة الحرية الكاملة في طلب ما يشاءونه ويشتهونه، وعدم ذكر المفعول إنما هو لإفادة العموم؛ فكل ما يشتهونه من مطعوم ومشروب ومنكوح وملبوس وممتع به فهو لهم لا يتخلف عن طلبهم، ويتساءل المرء:

---

(١) «تفسير ابن كثير المختصر»: ٣/٢٩٥.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(١) «تفسير أبي السعود»: ٥/٤٩.

هل بعد تلكم النعم سالفة الذكر تبقىٰ للمؤمنين في الجنة مشيئة وشهوة في تحصيل متعة؟ اللهم لا، وكيف يطلبون ويشتهون وقد توفر لديهم في الجنة كل ما عرفوه في الجنة، وما لم يعرفوه، بل وما لم يتصوروه.

لهذا يتعجب المرء قائلا: لماذا أخبرت هذه الآيات الكريمات أن للمؤمنين في الجنة ما يشاءون وما يشتهون لعل الحكمة من ذلك أن في ذكر ذلك زيادة تكريم لأصحاب الجنة؛ وذلك كقول المضيف لضيفه: ما تشتهيه من سائر الأشياء المحببة إليك أتيت به، وفي الوقت نفسه يكون قد قدم له كل ما يشتهيه ويحبه، وكقول الأب أيضًا لابنه: إن نجحت في الامتحان بامتياز فسوف أمنحك كذا وكذا من المال والهدايا؛ فلما اجتاز الامتحان بامتياز أعطاه أبوه ما وعده وزاد عليه، ثم قال له: يا بني اطلب ما شئت وما أحببت فأنا به كفيل، مع العلم بأنهما يعلمان أنه لا مزيد علىٰ ذلك.



آيات الطلب والدعاء

الآية الأولى

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣١].

التفسير:

﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾: أى تقول لهم الملائكة نحن أنصاركم وأعوانكم في الدنيا والآخرة، ونرشدكم إلىٰ ما فيه خيركم وسعادتكم في الدارين، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾: أى ولكم في الجنة ما تشتهيه نفوسكم، وتقَرُّ به عيونكم من أنواع اللذائذ والشهوات، ولكم فيها كل ما تطلبونه وتتمنونه.

الآية الثانية

قال تعالىٰ: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ [يس: ٥٧].

التفسير:

﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾: أي لهم في الجنة فاكهة كثيرة من كل أنواع الفواكه، ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾: أي ولهم فيها ما يتمنون ويشتهون كقوله تعالىٰ: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١].

❑ ★ ❑ ★ ❑

الآية الثالثة

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ (٥٣) كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ [الدخان: ٥١ ـ ٥٥].

التفسير:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾: أي إن الذين اتقوا اللَّه في الدنيا باتباع أوامره واجتناب نواهيه هم اليوم في موضع إقامة يأمنون فيه من الآفات والمنغصات، ولهذا قال تعالىٰ بعده: ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾: أي في حدائق وبساتين ناضرة، وعيون جارية، ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾: أي يلبسون ثياب الحرير: الرقيق منه وهو السندس، والسميك منه وهو الإستبرق، ﴿مُّتَقَابِلِينَ﴾: أي متقابلين في المجالس ليستأنس بعضهم ببعض، ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾: أي كذلك أكرمناهم بأنواع الإكرام، وزوجناهم أيضًا بالحور الحسان في الجنان، قال البيضاوي: أي قرناهم بالحور العين، والحوراء: البيضاء، والعيناء: عظيمة العينين[1]، وإنما وصف اللَّه تعالىٰ نعيمهم بذلك لأن الجنات والأنهار من أقوىٰ أسباب نزهة الخاطر، وانفراجه عن الغم، ثم ذكر الحور الحسان لأنه بها اكتمال سعادة الإنسان، كما قيل: ثلاثة تنفي عن القلب الحزن: الماء والخضرة والوجه الحسن، ثم زاد في بيان النعيم فقال تعالىٰ: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾: أي يطلبون من الخدم إحضار جميع أنواع الفواكه في الجنة لأجل أنهم سالمون من التخم والأمراض؛ فلا تعب في الجنة ولا وصب، وهم بفضل اللَّه آمنون.

نظرات في التفسير: فوائد ونتائج:

انظر ما سبق بيانه في آيات المشيئة والاشتهاء فارجع إليه في موضعه.

---

(١) «تفسير البيضاوي»: ٢/ ١٨٢.

الفصل الرابع: دعاء أهل الجنة في القرآن الكريم

دعاء أهل الجنة

قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ٩، ١٠].

التفسير:

ذكر الله حال السعداء في الجنة فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾: أى يهديهم إلىٰ طريق الجنة بسبب إيمانهم، ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾: أي تجري من تحت قصورهم الأنهار أو من تحت أسرتهم، وهم مقيمون في جنات النعيم، ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾: أي دعاؤهم في الجنة سبحانك اللَّهم، وفي الحديث: «يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحِ والتَّحْمِيدَ كَمَا تُلْهَمُونَ النَّفَسَ»: أى أن كلامهم في الجنة تسبيح الله، ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ﴾: أي وتحية بعضهم بعضًا سلام عليكم، كما تجيبهم بذلك الملائكة: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝ سَلامٌ عَلَيْكُم﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: أي وآخر دعائهم أن يقولوا الحمد للَّهِ رب العالمين.

نظرات في التفسير:

بخبر الله تعالىٰ في هذه الآيات أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يرشدهم ربهم يوم القيامة بسبب إيمانهم بأن يجعل لهم نورًا يهتدون به يوم القيامة، هؤلاء تجري من تحت أشجار قصورهم الأنهار في جنات النعيم، وأن تحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد للَّه رب العالمين.

فما معنىٰ ﴿دَعْوَاهُمْ﴾: هل يراد بها الدعاء أو القول أو الطلب، وما حقيقتها؟

١ ـ فإن كان المراد منها الدعاء وهو قولهم: ﴿ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ﴾ فهي مقولة تنزه اللّه تعالىٰ عما لا يليق به ذاتًا وصفة وفعلا، ويكون هذا من إطلاق الدعاء وإرادة التسبيح من إطلاق العام وإرادة الخاص؛ فكل تسبيح دعاء، وليس كل دعاء تسبيح، إن التسبيح تنزيه أي إقرار بالوحدانية، والدعاء عبادة أي تبع لذلك.

٢ ـ أو يكون المراد بـ﴿ دَعْوَاهُمْ ﴾ القول: أي قولهم فيها: ﴿ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ﴾ لأن الدعاء فيه معنىٰ القول دون حروفه.

٣ ـ أو يكون المراد من هذا اللفظ الطلب: أي إذا أرادوا شيئًا من الخدم قالوا: ﴿ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ﴾ فيحضره الخدم لهم، وفي هذه الجملة كمال وجمال التنزيه للّه سبحانه وتعالىٰ، وهي جملة تعارفت عليها خدمة الجنة فإذا سمعوها قالوا لقائلها: لبيك لبيك؛ فهي خير ما ينادىٰ به، وخير ما تواضع عليه أهل الدنيا من قولهم: يا ولد ياخادم يا عبدي المطيع، ويسرنا في هذا المقام أن نستعرض بعض آراء المفسرين في معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ﴾ نوجزه فيما يلي:

١ ـ ذهب صاحبا (تفسير الجلالين) إلىٰ القول بأن معناها الطلب: أي طلبهم لما يشتهونه في الجنة أن يقولوا: ﴿ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ﴾.

وذكر الشوكاني خمس معان لها: هي الدعاء والعبادة والإدعاء والطريقة والتمني.

أ ـ أي دعاؤهم ونداؤهم هو تسبيح اللّه وتقديسه في الجنة، والمعنىٰ: نسبحك باللّه تسبيحًا.

ب ـ أي عبادتهم كقوله تعالىٰ: ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ [مريم: ٤٨].

ج ـ أي الادعاء الكائن بين المتخاصمين، والمعنىٰ أن أهل الجنة يدعون في الدنيا والآخرة تنزيه اللّه سبحانه وتعالىٰ عن المعايب، والإقرار له بالألوهية.

قال القفال: أصله من الدعاء؛ لأن الخصم يدعو خصمه إلىٰ من يحكم بينهما.

د ـ أي طريقهم وسيرتهم: وذلك أن المدعي للشيء مواظب عليه؛ فيمكن أن تجعل الدعوىٰ كناية عن الملازمة، وإن لم يكن في قوله: ﴿ **سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ** ﴾ دعوىٰ ولا دعاء.

هـ ـ أي تمنيِّهم كقوله تعالىٰ: ﴿ **وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ** ﴾ [فصلت: ٣١]، وكأن تمنِّيهم في الجنة ليس إلا التسبيح وتقديس اللَّه تعالىٰ، وأخرج ابن مردويه عن أبي بن كعب قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إِذَا قَالُوا سُبْحَانَكَ اللَّهُمْ وَبِحَمْدِكَ أَتَاهُمْ مَا يَشْتَهُونَ فِي الجَنَّةِ مِنْ رَبِّهِمْ**»، وقد روي نحو هذا عن جماعة من التابعين.

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي الهذيل قال: الحمد أول الكلام وآخر الكلام، ثم تلا: ﴿ **وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [يونس: ٩، ١٠].

وقال الشوكاني: أي وخاتمة دعائهم الذي هو التسبيح أن يقولوا الحمد للَّه رب العالمين.

٣ ـ وروىٰ ابن كثير عدة معان أهمها ما يلي:

قال: فإن ابن جرير أخبر أن قوله تعالىٰ: ﴿ **دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ** ﴾.

قال إذا مر بهم الطير يشتهونه قالوا: سبحانك اللَّهم ـ وذلك دعواهم ـ فيأتيهم الملك بما يشتهونه فيسلم عليهم فيردون عليه؛ فذلك قوله تعالىٰ: ﴿ **وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ** ﴾.

قال: فإذا أكلوا حمدوا اللَّه ربهم؛ فذلك قوله تعالىٰ: ﴿ **وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ وقال: قال مقاتل بن حيان: إذا أراد أهل الجنة أن يدعو أحدهم بالطعام قال: ﴿ **سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ** ﴾ قال فيقوم علىٰ أحدهم عشرة آلاف خادم، مع كل خادم صحفة من ذهب فيها طعام ليس في الأخرىٰ، قال: فيأكل منهن كلهن.

وقال: قال سفيان الثوري: إذا أراد أحدهم أن يدعو بشيء قال: ﴿ **سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ** ﴾.

قال ابن كثير: وقوله تعالىٰ: ﴿ **وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ فيه دلالة علىٰ أنه المحمود أبدًا، المعبود علىٰ طول المدىٰ؛ ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره، وعند ابتداء كتابه وعند تنزيله حيث قال تعالىٰ: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ**

عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١].

٤ ـ ويرىٰ بعض علماء التفسير أن قوله تعالىٰ: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾.

أ ـ أن دعاؤهم في الجنة: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾: أي اللهم نسبحك تسبيحًا: أي ننزهك عن كل سوء.

وقال البغوي: قال أهل التفسير: هذه الكلمة ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ علامة بين أهل الجنة والخدم في الطعام؛ فإذا أرادوا الطعام قالوا ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ فأتوهم في الوقت بما يشتهون علىٰ الموائد، كل مائدة ميل في ميل، علىٰ كل مائدة سبعون ألف صحفة، في كل صحفة لون من الطعام لا يشبه بعضه بعضًا، وإذا فرغوا من الطعام حمدوا اللَّه عز وجل؛ فذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وقيل: ﴿دَعْوَاهُمْ﴾ بمعنىٰ: قولهم: أي قولهم وكلامهم فيها تلذذًا ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾.

روىٰ مسلم وأحمد وأبو داود عن جابر في حديثه المرفوع: أن أهل الجنة يُلهمون التسبيح والتحميد كما تُلهمون النفس.

أما تحيتهم في الجنة سلام: إما أن يحيي بعضهم بعضًا بالسلام، وإما أن تدخل عليهم الملائكة من كل باب قائلين لهم ﴿سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾، وإما أن تأتيهم الملائكة من عند ربهم بالسلام، ويقرأ اللَّه تعالىٰ عليهم السلام، وروىٰ ابن ماجه وابن أبي الدنيا والدارقطني والآجري عن جابر قال: قال: النبي ﷺ: «بَيْنَمَا أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي نَعِيمِهِمْ إِذْ سَطَعَ عَلَيْهِمْ نُورٌ فَرَفَعُوا رُءُوسَهَمْ فَإِذَا الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ مِنْ فَوْقِهِمْ فَقَالَ السَّلامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ؛ وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨]..... الحديث»[1].

(١) ضعيف رواه ابن ماجه «كتاب المقدمة» باب: فيما أنكرت الجهمية، حديث: ١٨٤، وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه: ١٨٤.

نعيم الجنة فوق ما يخطر بالبال أو يدور في الخيال وإن موضع سوط منها خير من الدنيا وما فيها

قال تعالىٰ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦، ١٧].

فتأمل يا أخي كيف قابل ما أخفوه من قيام الليل بالجزاء الذي أخفاه لهم مما لا تعلمه نفس؟! وكيف قابل قلقهم وخوفهم واضطرابهم علىٰ مضاجعهم حين يقدمون إلىٰ صلاة الليل بقرة الأعين في الجنة؟!

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ» مصداق ذلك في كتاب اللَّه عز وجل: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

وفي لفظ آخر يقول اللَّه عز وجل: «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ ذُخْرًا بَلْهُ مَا أَطْلَعْتُكُمْ عَلَيهِ» ثم قرأ: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾ [السجدة: ١٧].

وفي بعض طرق البخاري قال أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾.

وفي صحيح مسلم من حديث سهل بن سعد الساعدي قال: شهدت مع النبي ﷺ مجلسًا وصف فيه الجنة حتىٰ انتهىٰ، ثم قال في آخر حديثه: «فِيهَا مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ وَلا

أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ»، ثم قرأ هذه الآية: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ⁽¹⁶⁾ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْس أَوْ تَغْرُبُ**».

وفي صحيح البخاري من حديث سهل بن سعد قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**مَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**».

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لَقَيْدُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِمَّا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**»، وهذا الإسناد علىٰ شرط الصحيحين.

وكيف يُقدر قدر دار غرسها اللَّه بيده، وجعلها مقرًا لأحبابه، وملأها من رحمته وكرامته ورضوانه، ووصف نعيمها بالفوز العظيم، وملكها بالملك الكبير، وأودعها جميع الخير بحذافيره، وطهرها من كل عيب وآفة ونقص؟! فإن سألت عن أرضها وتربتها فهي المسك والزعفران، وإن سألت عن سقفها فهو عرش الرحمن، وإن سألت عن بلاطها فهو المسك الأذفر، وإن سألت عن حصبائها فهي اللؤلؤ والجوهر، وإن سألت عن بنائها فلبنة من فضة ولبنة من ذهب.

وإن سألت عن أشجارها فما فيها شجرة إلا وساقها ذهب وفضة لا من الحطب ولا من الخشب، وإن سألت عن ثمرها فأمثال القلال: ألين من الزبد، وأحلىٰ من العسل.

وإن سألت عن ورقها فأحسن ما يكون من رقائق الحلل، وإن سألت عن أنهارها فأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفىٰ.

وإن سألت عن طعامهم ففاكهة مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون، وإن سألت

عن شرابهم فالتسنيم والزنجبيل والكافور، وإن سألت عن آنيتهم فآنية الذهب والفضة في صفاء القوارير.

وإن سألت عن سعة أبوابها فبين المصراعين مسيرة أربعين من الأعوام، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام، وإن سألت عن تصفيف الرياح لأشجارها فإنها تستفز بالطرب لمن يسمعها، وإن سألت عن ظلها ففيها شجرة واحدة يسير الراكب المجد السريع في ظلها مائة عام لا يقطعها، وإن سألت عن سعتها فأدنىٰ أهلها يسير في ملكه وسرره وقصوره وبساتينه مسيرة ألفي عام.

وإن سألت عن خيامها وقبابها فالخيمة الواحدة من درة مجوفة طولها ستون ميلا من تلك الخيام، وإن سألت عن علاليها وجواسقها فهي غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار، وإن سألت عن ارتفاعها فانظر إلىٰ الكوكب الطالع أو الغارب في الأفق الذي لا تكاد تناله الأبصار.

وإن سألت عن لباس أهلها فهو الحرير والذهب، وإن سألت عن فراشها فبطائنها من إستبرق مفروشة في أعلىٰ الرتب، وإن سألت عن أرائكها فهي الأسرة عليها البشخانات، وهي الحجال مزرَّرة بأزرار الذهب؛ فما لها من فروج ولا خلال.

وإن سألت عن وجوه أهلها وحسنهم فعلىٰ صورة القمر، وإن سألت عن أسنانهم فأبناء ثلاث وثلاثين علىٰ صورة آدم عليه السلام أبي البشر، وإن سألت عن سماعهم فغناء أزواجهم من الحور العين، وأعلىٰ منه سماع أصوات الملائكة والنبيين، وأعلىٰ منها خطاب رب العالمين.

وإن سألت عن مطاياهم التي يتزاورون عليها فنجائب إن شاء اللَّه مما شاء تسير بهم حيث شاءوا من الجنان، وإن سألت عن حليهم وشارتهم فأساور الذهب واللؤلؤ علىٰ الرءوس ملابس التيجان، وإن سألت عن غلمانهم فولدان مخلدون كأنهم لؤلؤ مكنون.

وإن سألت عن عرائسهم وأزواجهم فهن الكواعب الأتراب اللائي جرى في أعضائهن ماء الشباب؛ فللورد والتفاح ما لبسته الخدود، وللرمان ما تضمنته النهود، واللؤلؤ المنظوم ما حوته الثغور، وللرقة واللطافة ما دارت عليه الخصور، تجري الشمس في محاسن وجهها إذا برزت، ويضيء البرق من بين ثناياها إذا ابتسمت، إذا قابلت حبها فقل ما تشاء في تقابل النيرين، وإذا حادثته فما ظنك بمحادثة الحبيبين، وإن ضمها إليه فما ظنك بتعانق الغصنين، ويرىٰ وجهه في صحن خدها، كما يرىٰ في المرآة التي جلاها صيقلها[1] ويرىٰ مخ ساقها من وراء اللحم، ولا يستره جلدها ولا عظمها ولا حللها، لو اطلعت علىٰ الدنيا لملأت ما بين الأرض والسماء ريحًا، وأفواه الخلائق تهليلا وتكبيرًا وتسبيحًا، ولتزخرف لها ما بين الخافقين، ولأغمضت عن غيرها كل عين، ولطمست ضوء الشمس كما تطمس الشمس ضوء النجوم، ولآمن علىٰ ظهرها بالحي القيوم، ونصيفها علىٰ رأسها خير من الدنيا وما فيها، وحديثها أشهىٰ من الدنيا وما فيها، ولا يزداد علىٰ طول الأحقاب إلا حسنًا وجمالا، ولا يزداد لها طول المدىٰ إلا محبة ووصالا، مبرأة من الحبل والولادة والحيض والنفاس، مطهرة من المخاط والبصاق والبول والغائط وسائر الأدناس، لا يفنىٰ شبابها، ولا تبلىٰ ثيابها، ولا يخلق ثوب جمالها، ولا يمل طيب وصالها، قد قصرت طرفها علىٰ زوجها فلا تطمح لأحد سواه، وقصر طرفه عليها في غاية أمنيته وهواه، وإن نظر إليها سرته، وإن أمرها بطاعة أطاعته، وإن غاب عنها حفظته؛ فهو معها في غاية الأماني والأمان، هذا ولم يطمثها قبله إنس ولا جان، كلما نظر إليها ملأت قلبه سرورًا، وكلما حدثته ملأت أذنه لؤلؤًا منظومًا ومنثورًا، وإذا برزت ملأت القصر والغرفة نورًا.

وإن سألت عن السن فأتراب في أعدل سن الشباب، وإن سألت عن الحسن فهل رأيت الشمس والقمر، وإن سألت عن الحدق فأحسن سواد في أصل بياض في أحسن

---

(١) الصَّيْقَل: جلاء السيوف، والمراد هنا: الذي يجلو المرآة وينظفها لكي تظهر الصورة كأفضل ما تكون.

حور، وإن سألت عن القدود فهل رأيت أحسن الأغصان، وإن سألت عن النهود فهن الكواعب، ونهودهن كألطف الرمان، وإن سألت عن اللون فكأنه الياقوت والمرجان، وإن سألت عن حسن الخُلُق فهن الخيِّرات الحسان اللاتي جمع لهن بين الحسن والإحسان؛ فأعطين جمال الباطن والظاهر فهن أفراح النفوس وقرة النواظر.

وإن سألت عن حسن العشرة ولذة ما هنالك فهن العرب المتحببات إلىٰ الأزواج بلطافة التبعل التي تمتزج بالروح أي امتزاج.

فما ظنك بامرأة إذا ضحكت في وجه زوجها أضاءت الجنة من ضحكها، وإن انتقلت من قصر إلىٰ قصر قلت هذه الشمس متنقلة في بروج فلكها، إذا حاضرت زوجها فيا حسن تلك المحاضرة، وإن خاصرته فيا لذة تلك المعانقة والمخاصرة:

وحديثها السحر الحلال لو أنه … لم يجن قتل المسلم المتحرز

إن طال لم يملل وإن هي حدثت … ود المحدث أنها لم توجز

وإن غنت فيا لذة الأبصار والأسماع، وإن أنست وأمتعت فيا حبذا تلك المؤانسة والإمتاع، وإن قبَّلت فلا شيء أشهىٰ إليه من ذلك التقبيل، وإن نولت فلا شيء ألذ ولا أطيب من ذلك التنويل.

هذا وإن سألت علىٰ يوم المزيد وزيارة العزيز، ورؤية وجهه المنزه عن التمثيل والتشبيه، كما ترىٰ الشمس في الظهيرة، والقمر ليلة البدر كما تواتر عن الصادق المصدوق النقل فيه، وذلك موجود في الصحاح والسنن والمسانيد من رواية جرير وصهيب وأنس وأبي هريرة وأبي موسىٰ وأبي سعيد؛ فاستمع يوم ينادي المنادي يا أهل الجنة: إن ربكم تبارك وتعالىٰ يستزيركم فحي علىٰ زيارته؛ فيقولون سمعًا وطاعة، وينهضون إلىٰ الزيارة مبادرين؛ فإذا بالنجائب قد أُعدت لهم فيستوون علىٰ ظهورها مسرعين، وحتىٰ إذا انتهوا إلىٰ الوادي الأفيح الذي جعل لهم موعدًا وجُمعوا هناك فلم

يغادر الداعي منهم أحدًا، أمر الرب تبارك وتعالىٰ بكرسيه فنصب هناك، ثم نصبت لهم منابر من نور، ومنابر من لؤلؤ، ومنابر من زبرجد، ومنابر من ذهب، ومنابر من فضة، وجلس أدناهم - وحاشاهم أن يكون فيهم أدنىٰ - علىٰ كثبان المسك، ما يرون أن أصحاب الكراسي فوقهم في العطايا، حتىٰ إذا استقرت بهم مجالسهم، واطمأنت بهم أماكنهم نادىٰ المنادي: يا أهل الجنة إن لكم عند اللَّه موعدًا يريد أن ينجزكموه؛ فيقولون ما هو؟! ألم يبيض وجوهنا، ويثقل موازيننا، ويدخلنا الجنة، ويزحزحنا عن النار، فبينما هم كذلك إذ سطع لهم نور أشرقت له الجنة، فرفعوا رءوسهم فإذا الجبار جل جل جلاله وتقدست أسماؤه وقد أشرف عليهم من فوقهم، وقال: أهل الجنة سلام عليكم؛ فلا ترد هذه التحية بأحسن من قولهم: اللَّهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام؛ فيتجلىٰ لهم الرب تبارك وتعالىٰ، ويضحك إليهم ويقول: يا أهل الجنة؛ فيكون أول ما يسمعون منه تعالىٰ: أين عبادي الذين أطاعوني بالغيب ولم يروني؛ فهذا يوم المزيد؛ فيجتمعون علىٰ كلمة واحدة: قد رضينا فارض عنا؛ فيقول: يا أهل الجنة إني لو لم أرض عنكم لم أسكنكم جنتي، هذا يوم المزيد فاسألوني: فيجتمعون علىٰ كلمة واحدة: أرنا وجهك ننظر إليك؛ فيكشف لهم الرب جل جلاله الحجب، ويتجلىٰ لهم فيغشاهم من نوره ما لولا أن اللَّه تعالىٰ قضىٰ أن لا يحترقوا لا حترقوا، ولا يبقىٰ في المجلس أحد حاضر إلا حاضره ربه تعالىٰ محاضرة، حتىٰ إنه ليقول: يا فلان أتذكر يوم فعلت كذا وكذا، يذكره بعض غدراته في الدنيا؛ فيقول: يا رب ألم تغفر لي؟! بمغفرتي بلغت منزلتك هذه.

فيا لذة الأسماع بتلك المحاضرة، ويا قرة عيون الأبرار بالنظر إلىٰ وجهه الكريم في الدار الآخرة، ويا ذلة الراجعين بالصفقة الخاسرة: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٥].



الإمام ابن القيم رحمه الله يقول شعرا في وصف الجنة ونعيمها

وما ذاك إلا غيرة أن ينالها ... سوىٰ كُفئها والرب بالخلق أعلم
وإن حجبت عنا بكل كريهة ... وحفت بما يؤذي النفوس ويؤلم
فللَّه ما في حشوها من مسرة ... وأصناف لذات به يُتَنَعَّمُ
وللَّه بَرْدَ العيش بين خيامها ... وروضاتها والثغر في الروض يبسم
وللَّه واديها الذي هو موعد المز ... يد لوفد الحب لو كنت منهم
وللَّه أبصارًا ترىٰ اللَّه جهرة ... فلا الضيم يغشاها ولا هي تسأم
فيا نظرة أهدت إلىٰ الوجه نضرة ... أمِن بعدها يسلو المحب المتيم
وللَّه كم من خيرة إن تبسمت ... أضاء لها نور من الفجر أعظم
فيا لذة الأبصار إن هي أقبلت ... ويا لذة الأسماع حين تكلم
ويا خجلة الغصن الرطب إذا انثنت ... ويا خجلة الفجرين حين تبسم
فإن كنت ذا قلب عليل بحبها ... فلم يبق إلا وصلها لك مرهم
إذا قابلت جيش الهموم بوجهها ... تولىٰ علىٰ أعقابه الجيش يهزم
فيا خاطب الحسناء إن كنت راغبًا ... فهذا زمان المهر فهو المقدم
وكن مبغضًا للخائنات لحبها ... فتحظىٰ بها من دونهم وتُنعم
وصم يومك الأدنىٰ لعلك في غدٍ ... تفوز بعيد الفطر والناس صُوَّمُ

وأقـدم ولا تقنـع بعيـش منغـص ... فما فـاز باللـذات مـن ليـس يقـدم

وإن ضاقت الدنيـا عليك بأسرها ... ولـم يـكُ فيهـا منـزل لـك يُعلـم

فحـي علـىٰ جنات عـدن فإنها ... منازلنـا الأولـىٰ وفيهـا المُخيـم

وحي علىٰ السوق الذي فيه يلتقي ... المحبون ذاك السـوق للقـوم يُعلـم

فمـا شئـت خُذ منـه بـلا ثمـن لـه ... فقـد أسلـف التجـار فيـه وأسلمـوا

وحي علـىٰ يـوم المزيـد الـذي بـه ... زيـادة رب العـرش فاليـوم موسـم

وحـي علـىٰ واد هنـالـك أفيـح ... وتـربتـه مـن أذفـر المسـك أعظـم

منابـر مـن نـور هنـاك وفضـة ... ومـن خالـص العقيـان لا يتقسـم

وكثبـان مسـك قـد جعلـن مقاعـدًا ... لمـن دون أصحـاب المنابـر يُعلـم

فبينا همـو في عيشهـم وسرورهـم ... وأرزاقهـم تجـري عليهـم وتقسـم

إذا هـم بنـور ساطـع أشرقـت لـه ... بأقطارهـا الجنـات لا يتـوهـم

تجلـىٰ لهـم رب السمـوات جهـرة ... فيضحـك فوق العـرش ثـم يُكلـم

سـلام عليكـم يسمعـون جميعهـم ... بآذانهـم تسليمـه إذ يسلـم

يقـول سلونـي ما اشتهيتـم فكـل مـا ... تريـدون عنـدي إننـي أنـا أرحـم

فقالوا جميعًا نحـن نسألـك الرضـا ... وأنت الذي تولي الجميـل وترحـم

فيعطيهمُو هـذا ويشهـد جمعهـم ... عليـه تعالـىٰ اللّـه فاللّـه أكـرم

فيـا بائعًـا هـذا ببخـس معجـل ... وأنك لا تدري بلـىٰ سـوف تعلـم

فإن كنـت لا تـدري فتلـك مصيبـة ... وإن كنـت تـدري فالمصيبـة أعظـم

❑ ★ ❑ ★ ❑

النتائج والفوائد في أدعية أهل الجنة

١ ـ الجنة حفت بالمكاره، وفي جامع الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ المَنْزِلَ، ألا إنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ، ألا إنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الجَنَّةُ»**[١].

٢ ـ لا يدخل أحد الجنة بعمله إلا أن يتغمده الله برحمته، وفي الحديث: **«لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْكُمُ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ»**، وكانوا يقولون: النجاة من النار بعفو الله، ودخول الجنة برحمته، واقتسام المنازل والدرجات بالأعمال.

٣ ـ أن أهل الجنة في سعادة دائمة، وطمأنينة أبدية لا تنتهي ولا تتبدل، منعمون بما حباهم الله من الخير الكثير والنعيم المقيم، قال القرطبي: إن نعيم أهل الجنة من أكل وشرب وكسوة وطيب، ليس عن ألم جوع، أو ظمأ أو عري أو نتن، وإنما هي لذات متتالية، ونعم متوالية، والحكمة في ذلك أنهم يتنعمون بنوع ما كانوا يتنعمون به في الدنيا. وقال النووي: مذهب أهل السنة أن تَنَعُّمَ أهل الجنة علىٰ هيئة تَنَعُّم أهل الدنيا إلا ما بينهما من التفاضل في اللذة، ودل الكتاب والسنة علىٰ أن نعيمهم لا انقطاع له[٢].

٤ ـ أن أهل الجنة متوادون متحابون، قد نزع الله من صدورهم الغل والحسد، ووجوههم خالية من السواد والذلة، علىٰ صورة القمر ليلة البدر إضاءة، يزور بعضهم بعضًا، ويتذاكرون ما كان بينهم في الدنيا، قال تعالىٰ: **﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾** [الطور: ٢٥ ـ ٢٨]].

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٠)، والبخاري في «التاريخ الكبير»: ٢٨/١١١، والحاكم ٤/٣٠٧ ـ ٣٠٨، وحسنه الألباني في الصحيحة (٩٥٤)، وصحيح سنن الترمذي ٢/٢٩٧.

(٢) «فتح الباري»: ٦/٣٧٣ ـ ٣٧٤.

٥ ـ أهل الجنة لايبولون ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يتمخطون ولا ينامون، طابت لهم الجنة وطابوا، ينعم اللَّه فيها، وأهل الجنة كلهم ملوك، عن ابن عباس رضي اللَّه عنهما أنه ذكر مراتب أهل الجنة، ثم تلا قوله تعالىٰ: ﴿ **وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً** ﴾ [الإنسان: ٢٠].

وفي صحيح مسلم من حديث المغيرة بن شعبة عن النبي ﷺ قال: «**سَأَلَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلامُ رَبَّهُ: مَا أَدْنَىٰ أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: هُوَ رَجُلٌ يَجيءُ بَعْدَمَا أُدْخِلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ فَيُقَالُ لَهُ: أُدْخُلِ الجَنَّةَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ، وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ؛ فَيُقَالُ لَهُ: أَتَرْضَىٰ أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّي؛ فَيَقُولُ لَهُ: لَكَ ذَلِكَ، وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ؛ فَقَالَ فِي الخَامِسَةِ: رَضِيتُ رَبِّي؛ فَيَقُولُ: هَذَا لَكَ وَعَشْرَةُ أَمْثَالِهِ، وَلَكَ مَا اشْتَهَيْتَ وَلَذَّةُ عَيْنِكَ؛ فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّي**».

٦ ـ وأهل الجنة هم كما وصفهم اللَّه تعالىٰ: ﴿ **الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ** ﴾ [آل عمران: ١٧].

هم الصابرون عن المعصية بمحاربتها ومجانبتها، وعلىٰ الطاعة بتكاليفها والتزاماتها.

القانتون: الخاضعون للَّه وحده.

المنفقون: الباذلون أموالهم في أوجه النفع والبر والخير والصالح العام، وصلة الأرحام والقرابات، وسد الخلات، ومواساة ذوي الحاجات.

والمستغفرون بالأسحار: في هدأة الليل وقبيل صلاة الفجر؛ حيث تنام العيون إلا عيون المتهجدين.

هؤلاء العباد الذين يعملون ويرجون رحمة ربهم ويخشونه بالغيب، وهم من الساعة مشفقون.

يؤرقهم ما ارتكبوا من لمم أو ذلل، ويقلقهم سوء الخاتمة، هدفهم مغفرة الرب، وهمهم النجاة من عذاب يوم القيامة؛ لذا يطلبون غفران الذنب، ويطمعون في الثواب يوم الحساب[١].

---

(١) «دعاء الصالحين أهل الجنة الأبرار» للمؤلف: ص٢٧، ٢٨.

فلا جرم إن كان تردادهم: اللهم لا تردنا بعقوبتك، ولا تؤاخذنا بتقصيرنا عن رضاك، بقليل أعمالنا تقبل، وبعظيم خطايانا تغفر، أنت اللَّه الذي لم يكن شيء قبلك، ولا يكون شيء بعدك، وليُّ الأشياء، ترفع بالهدىٰ من تشاء، لا من أحسن استغنىٰ عن عونك ولا من أساء، ولا من استبد بشيء من حكومتك وقدرتك فكيف لنا بالمغفرة وليست إلا في يديك؟ وكيف لنا بالرحمة وليست إلا عندك؟ يا حفيظ لا ينسىٰ، وقدير لا يبلىٰ، وحي لا يموت، بك عرفناك، وبك اهتدينا إليك، ولولا أنت لم ندرما أنت سبحانك وتعاليت[1].

٧ ـ وأهل الجنة هم المؤمنون حقًا وصدقًا، والاشتغال بالإيمان إقرارًا وإذعانًا مقدم عندهم علىٰ كل شيء.

٨ ـ نعيم الآخرة خير وأفضل من شهوات الدنيا الفانية.

٩ ـ الأعمال الصالحة مهور الحور العين في الجنة، ويروىٰ عن ثابت قال: كان أبي من القوامين للَّه في سواد الليل، قال: رأيت ليلة في منامي امرأة لا تشبه النساء؛ فقلت لها: مَنْ أنت؟ فقالت: حوراء أمة اللَّه؛ فقلت لها: زوجيني نفسك. فقالت: اخطبني من عند ربي وامهرني، فقلت: وما مهرك؟ قالت: طول التهجد. وأنشدوا:

يا طالب الحوراء في خدرها ... وطالبًا ذاك علىٰ قدرها

انهض بجد لا تكن وانيًا ... وجاهد النفس علىٰ صبرها

وجانب الناس وارفضهمُو ... وحالف الوحدة في ذكرها

وقم إذا الليل بدا وجهه ... وصُم نهارًا فهو من مهرها

فلو رأت عيناك إقبالها ... قد بدت رمانتا[2] صدرها

وهي تماشي بين أترابها ... وعقدها يشرق في نحرها[3]

لهان في نفسك هذا الذي ... تراه في دنياك من زهرها

---

(١) «العقد الفريد»: ٢/ ٢٠٠.

(٢) المقصود ثدييها.

(٣) نحرها: أي صدرها.

وقال مالك بن دينار: كان لي أجزاء أقرؤها كل ليلة؛ فنمت ذات ليلة فإذا أنا في المنام بجارية ذات حسن وجمال، وبيدها رقعة؛ فقالت: أتحسن أن تقرأ؟ فقلت نعم. ورفعت لي الرقعة فإذا مكتوب فيها هذه الأبيات:

لهاك النوم عن طلب الأماني وعن تلك الأوانس في الجنان

تعيش مخلدًا لا موت فيها وتلهو في الخيام مع الحسان

تنبه من منامك إن خيرًا من النوم التهجد بالقُرَان

وروي عن يحيىٰ بن عيسىٰ بن ضرار السعدي - وكان قد بكىٰ شوقًا إلىٰ اللَّه ستين عامًا - قال: رأيت كأن ضفة نهر يجري بالمسك الأذفر، حافتاه شجر اللؤلؤ، ونبت من قضبان الذهب؛ فإذا بجوار مزينات يغنين بصوت واحد: سبحان المسبح بكل لسان، وسبحان الموجود بكل مكان، وسبحان الدائم في كل زمان، سبحانه سبحانه؛ قال: فقلت: من أنتن؟ قلن: خلق من خلق اللَّه سبحانه. قلت: وما تصنعن ها هنا؟ قلن:

يناجون رب العالمين لحقهم وتسري هموم القوم والناس نوم

ذرانا[1] إله الناس رب محمد لقوم علىٰ الأقدام بالليل قوم

فقلت: بخ بخ[2] لهو من هؤلاء، قد أقر اللَّه أعينهم؛ فقلن: أما تعرفهم؟ فقلت: واللَّه ما أعرفهم. قلن: هؤلاء المتهجدون بالليل، أصحاب السهر.

١٠ - رضوان اللَّه تعالىٰ لأهل الجنة أفضل من الجنة، ورؤية أهل الجنة للَّه تعالىٰ أحب إليهم مما هم فيه، وأقر لأعينهم، وأخرج مسلم عن صهيب أن النبي ﷺ قال: **«إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لَهُمْ: أَتُرِيدُونَ شَيْئًا أُزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الجَنَّةَ وَتُنَجِّينَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ لَهُمُ الحِجَابُ؛ فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ»**، وفي

---

(١) أي خلقنا.

(١) كلمة استحسان.

رواية، ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وقال الحسن رضي اللَّه عنه في قوله تعالىٰ: الزيادة: النظر إلىٰ وجه اللَّه عز وجل، وليس شيء أحب إلىٰ أهل الجنة من يوم الجمعة - يوم المزيد - قال تعالىٰ: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥]. لأنهم يرون فيه الجبار جل جلاله وتقدست أسماؤه.

١١ - وآخر دعواهم: آخر دعوىٰ أهل الجنة - حمد اللَّه - وهذا دليل علىٰ أن اللَّه تعالىٰ هو المحمود أبدًا، المعبود علىٰ طول المدىٰ، ولهذا حمد اللَّه نفسه عند ابتداء خلقه، واستمراره في ابتداء كتابه، وعند ابتداء تنزيله.

يقول اللَّه عز وجل مصداقًا لذلك: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١]، وهو المحمود في الأولىٰ، والمحمود في الآخرة، وفي جميع الأحوال، ولهذا جاء الحديث: «**إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ والتَّحْمِيدَ كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفَسَ**» - بفتح الفاء - وإنما يكون ذلك كذلك لما يرون من تضاعف نعم اللَّه عليهم فتكرر وتعاد وتزداد؛ فليس لها انقضاء ولا أمد.

إن دعوىٰ أهل الجنة التي يحبون[1] تحقيقها ليست مالا ولا جاهًا وليست دفع هم ولا غم ولا أذىٰ ولا تحصيل مصلحة، فلقد كُفوا شر ذلك كله، ولقد اكتفوا فما لهم من حاجة من تلك الحاجات، ولقد اشتغلوا بما وهبهم اللَّه، ولقد ارتفعوا عن مثل هذه الشواغل والهموم، إن أقصىٰ ما يشغلهم حتىٰ ليوصف بأنه: ﴿دَعْوَاهُمْ﴾: هو تسبيح اللَّه أولا، وحمده أخيرًا، يتخلل هذا وذاك سلام وتحيات بينهم وبين أنفسهم وبين ملائكة الرحمن: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

واللَّه أسأل أن يُدخلنا الجنة برحمته وفضله وكرمه، وأن يباعدنا عن النار، واللَّه يتولاني وإياك، ويكتبنا عنده من الفائزين، إنه سميع قريب مجيب.

تم الكتاب بحمد اللَّه تعالىٰ وتوفيقه

المؤلف دكتور/ موسىٰ الخطيب

المصادر والمراجع

أ ـ القرآن الكريم وتفسيره:

١ ـ القرآن الكريم كتاب اللّٰه تعالىٰ.

٢ ـ «تفسير القرآن العظيم» للإمام الجليل الحافظ عماد الدين إسماعيل بن كثير ـ المتوفىٰ سنة ٧٤٤هـ ـ ط. الحلبي ـ القاهرة.

٣ ـ «الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل» تأليف: أبي القاسم جار اللّٰه محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (٤٦٧ ـ ٥٣٨هـ) ط. الحلبي ـ ١٣٥٤ ـ القاهرة.

٤ ـ «مفاتيح الغيب» المشتهر بـ«التفسير الكبير» للإمام أبي الفضل محمد فخر الدين بن عمر بن الحسن الرازي ـ الطبعة الأولىٰ بمصر.

٥ ـ «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني» لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي المتوفىٰ سنة ١٢٧٠ هـ ـ الطبعة الأولىٰ بالمطبعة الكبرىٰ الأميرية ببولاق بمصر المحمية ـ سنة ١٣٠١هـ.

٦ ـ «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» لناصر الدين أبي الخير عبد اللّٰه عمر البيضاوي ـ المتوفىٰ سنة ٧٩١ هـ ـ ط. الحلبي ١٣٧٥هـ.

٧ ـ تفسير أبي السعود المسمىٰ: «إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا القرآن الكريم» لأبي السعود محمد بن محمد العمادي (٨٩٦ ـ ٩٥١هـ) ط. صبيح ـ القاهرة.

٨ ـ تفسير الطبري «جامع البيان في تفسير القرآن» تأليف ابن جرير الطبري المتوفىٰ سنة ٣١٠هـ (١ ـ ١٦) تحقيق محمود محمد شاكر، ط. القاهرة.

٩ ـ «الجامع لأحكام القرآن» تأليف أبي عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن فرج الأنصاري القرطبي ـ دار القلم ١٩٦٦م ـ القاهرة.

١٠ ـ «التسهيل لعلوم التنزيل» للحافظ المفسر محمد بن أحمد بن جزي، ط. الحلبي سنة ١٣٥٥هـ ـ القاهرة.

١١-« تفسير وبيان القرآن الكريم » مع أسباب النزول للسيوطي - الأستاذ / محمد حسن الحمصي - ط. دار الرشيد - بيروت.

١٢-« فتح القدير » للشوكاني، ط. أولي - الحلبي ١٣٥٩هـ - القاهرة.

١٣-« آيات الدعاء في القرآن الكريم »، بحث دكتوراه لفضيلة الشيخ محمد محمود، مكتبة كلية أصول الدين - جامعة الأزهر ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

١٤-« تفسير الجلالين » لجلال الدين السيوطي وجلال الدين المحلي، طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه مصر.

١٥-« البحر المحيط » لأبي حيان التوحيدي، ط. دار الكتب العلمية - بيروت.

١٦- تفسير الخازن المسمى « لباب التاويل في معاني التنزيل » للإمام علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الصوفي المعروف بالخازن، ط. دار الكتب العربية الكبرى - القاهرة.

١٧- حاشية الصاوي على الجلالين.

١٨-« المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم » للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي، ط. دار الشعب ١٣٧٨هـ.

١٩- « تفسير جزء عم » للشيخ / محمد عبده، ط. دار الشعب.

ب- السنة وشروحها:

١-« فتح الباري شرح صحيح البخاري » لابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢هـ، ط. الريان - القاهرة.

٢-« صحيح البخاري بشرح الكرماني » للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (١٩٤هـ - ٢٥٦هـ)، المطبعة المصرية سنة ١٣٥٣هـ.

٣-« الترغيب والترهيب » للمنذري زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي (٥٨١هـ - ٦٥٦هـ)، ط. مكتبة الحديث - القاهرة.

٤-« سلسلة الأحاديث الصحيحة والضعيفة » للألباني، ط. المكتب الإسلامي.

٥-« سنن أبي داود »، ط. الحلبي سنة ١٣٧١هـ.

٦-« سنن الترمذي » أبي عيسى بشرح تحفة الأحوذي، ط. الحلبي بمصر.

٧ـ « سنن ابن ماجه »، ط. الحلبي سنة ١٣٧١هـ بمصر.

٨ـ « صحيح مسلم » بشرح النووي للإمام أبو الحسن بن حجاج القشيري (٢٠٦هـ-٢٦١هـ)، ط. دار إحياء الكتب العربية سنة ١٣٧٤هـ-القاهرة.

٩ـ مفتاح كنوز السنة، أ-ي. منسنك، ط. إدارة ترجمان السُنة ببيروت.

١٠ـ « المسند » للإمام أحمد بن حنبل (١٦٤هـ-٢٤١هـ)، المطبعة الميمنة سنة ١٣١٣هـ، ومطبعة المعارف سنة ١٣٦٥هـ، تحقيق أحمد شاكر (١٣٠٩هـ-١٣٧٧هـ).

١١ـ « المستدرك » للحاكم: محمد بن عبد الله (٣٢١هـ-٤٠٥هـ)، ط. دائرة المعارف بحيدر أباد سنة ١٣٤٠هـ.

١٢ـ « الأحاديث القدسية » للنووي، ط. مكتبة الاعتصام.

١٣ـ « نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من حديث سيد الأخيار » للشوكاني، د/ محمد بن علي الشوكاني المتوفىٰ سنة ١٢٥٠هـ، ط. الحلبي سنة ١٣٤٧هـ.

١٤ـ « فيض القدير شرح الجامع الصغير » للمناوي، عبد الرءوف المناوي (٩٥٢هـ-١٠٣١هـ)، ط. المكتبة التجارية الكبرى-القاهرة.

١٥ـ « جمع الجوامع » المعروف بالجامع الكبير للسيوطي، الإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي المتوفىٰ سنة ٨٤٩هـ-٩١١م، ط. مجمع البحوث الإسلامية-القاهرة.

١٦ـ « مجمع الزوائد » للهيثمي، علي بن أبي بكر (٧٣٥هـ-٨٠٧هـ)، ط. دار الكتاب العربي.

١٧ـ « سنن النسائي »، أحمد بن شعيب (٢٥٥هـ-٣٠٣هـ)، ط. الحلبي سنة ١٣٨٣هـ.

١٨ـ « تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين » للشوكاني، ط. مكتبة المتنبي.

١٩ـ « الأذكار من كلام سيد الأبرار » للنووي، ط. المكتبة العصرية-بيروت.

٢٠ـ « سنن الدارمي »، ط. شركة الطباعة الفنية المتحدة سنة ١٣٨٦هـ.

٢١ـ « السنن الكبرىٰ » للبيهقي، الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين التوفى سنة ٤٥٨هـ. ط. الهند سنة ١٣٤٤هـ.

٢٢ـ الطبراني : سليمان بن أحمد (٢٦٠هـ ـ ٣٦٠هـ) « المعجم الكبير »، مخطوط ثم طبع ببغداد في خمسة وعشرين مجلداً .

٢٣ـ « المعجم الصغير » للطبراني، مطبعة الأنصار بدلهي سنة ١٣١١هـ.

٢٤ـ « موطأ الإمام مالك » : الإمام أبو عبد الله مالك بن أنس ـ تحقيق الشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف، ط . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

٢٥ـ « الأحاديث المختارة » للضياء المقدسي : محمد بن عبد الواحد (٥٦٩هـ ـ ٦٤٣هـ) .

٢٦ـ « سنن الدارقطني » : الإمام علي بن عمر الدارقطني (٣٠٦هـ ـ ٣٨٥هـ)، ط . عالم الكتب ـ بيروت .

جـ ـ مراجع اللغة:

١ـ « القاموس المحيط » للفيروز أبادي : محمد بن يعقوب (٧٢٩هـ ـ ٨١٧هـ)، ط . دار الفكر ببيروت .

٢ـ « الصحاح للجوهري » (١ ـ ٦) تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، ط . القاهرة ١٩٥٦هـ.

٣ـ « لسان العرب » لابن منظور : محمد بن مكرم (٦٣٠ ـ ٧١١هـ)، ط . صادر بيروت سنة ١٩٥٥م.

٤ـ « غريب الحديث » للحربي : إبراهيم بن إسحاق (١٩٨هـ ـ ٢٨٥هـ) مخطوط ثم طبع .

٥ـ « غريب الحديث » لابن قتيبة : عبد الله بن مسلم (٢١٣هـ ـ ٢٧٦هـ)، مخطوط ثم طُبع .

٦ـ « النهاية في غريب الحديث » لابن الأثير : المبارك بن محمد (٥٤٤هـ ـ ٦٠٦هـ)، المطبعة العثمانية بمصر ١٣١١هـ.

٧ـ « المعرب » للجواليقي تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة ١٩٣٨هـ.

٨ ـ « فقه اللغة » للثعالبي، ط . دار الحديث ـ القاهرة .

د ـ السير والتراجم:

١ـ « الطبقات الكبرىٰ » لابن سعد كاتب الواقدي المتوفىٰ سنة ٢٧٦هـ، ط . المطبعة الرحمانية سنة ١٣٥٣هـ.

٢ـ « تاريخ الملوك » للطبري : أبو جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفىٰ سنة ٣١٠هـ.

٣ـ « البداية والنهاية » ويليه « نهاية البداية » لابن كثير، ط . القاهرة ١٣٥١هـ ـ ١٣٥٨هـ.

٤ـ « مرآة الزمان في تاريخ الأعيان » لسبط الجوزي: شمس الدين أبي المظفر يوسف بن قزاوغلي (٥٨١هـ ـ ٦٥٤هـ)، تحقيق الدكتور إحسان عباس، ط. دار الشروق، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٥ـ « العقد الفريد » لابن عبد ربه الأندلسي: أبو عمر شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه بن سالم القرطبي الأندلسي (٢٤٦هـ ـ ٣٢٧هـ)، ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر.

٦ـ « سير أعلام النبلاء » للذهبي: محمد بن أحمد (٦٧٣هـ ـ ٧٤٨هـ)، مخطوط.

٧ـ « ميزان الاعتدال في نقد الرجال » للذهبي على بن محمد البخاري، ط. ١٩٦٣م.

٨ـ « شذرات الذهب في أخبار من ذهب » لابن عماد الحنبلي، ط. القاهرة ١٣٥٠ ـ ١٣٥١هـ.

٩ـ « تقريب التهذيب » لابن حجر العسقلاني، ط. الهند ـ دلهي سنة ١٣٢٠هـ.

١٠ـ « حلية الأولياء وطبقات الأصفياء » لأبي نعيم: الحافظ أبو نعيم الأصبهاني (٣٣٦هـ ـ ٤٣٠هـ)، مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٤٩هـ.

١١ـ « الملل والنحل » للشهرستاني: محمد بن عبد الكريم بن أحمد المعروف بالشهرستاني المتوفىٰ سنة ٥٤٨هـ، ط. الحلبي القاهرة.

١٢ـ « الإصابة في تمييز الصحابة » لابن حجر العسقلاني، طبع بمطبعة مصطفى محمد بمصر سنة ١٣٥٨هـ.

١٣ـ « قصص الأنبياء » لابن كثير، ط. القاهرة ١٣٥١هـ ـ ١٣٥٨هـ.

١٤ـ « وفيات الأعيان » لابن خلكان (١ ـ ٨)، تحقيق إحسان عباس بيروت ١٩٦٨هـ ـ ١٩٣٣م.

١٥ـ « سيرة ابن هشام » (١ ـ ٤ في مجلدين)، القاهرة ١٩٥٥م.

١٦ـ « تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء » لحمزة الأصفهاني، بيروت ١٩٦١م.

١٧ـ « البدء والتاريخ » لابن طاهر المقدسي (١ ـ ٥) نشر كلمان هوار ـ باريس ١٨٩٩م ـ ١٩١٩م.

١٨ـ « غرر السير » الثعالبي تحقيق مجتنبي مينوي، ط. طهران ١٩٦٣م.

١٩ـ « عيون التواريخ » للكبتي تحقيق فيصل السامر ونبيلة داود، ط. بغداد ١٩٨٠م.

٢٠ـ « الإصابة في معرفة الصحابة » لابن حجر العسقلاني، طبع بمطبعة مصطفى محمد بمصر سنة ١٣٥٨هـ.

٢١ـ « الآثار الباقية عن القرون الخالية » للبيروني، تحقيق سخاو، ط. ليبزج ١٩٢٣م.

٢٢- «الأمكنة والأزمنة» للمزوقي (١ - ٢)، ط. حيدر آباد الدكن - الهند.

٢٣- قصص الأنبياء المسمى بـ« عرائس المجالس » للثعالبي، ط. القاهرة ١٩٥٤م.

هـ- مراجع عامة:

١- «إحياء علوم الدين» للإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي المتوفىٰ سنة ٥٠٥هـ، ويليه كتاب «المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار» للعلامة زين الدين أبي الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي المتوفىٰ سنة ٨٠٦هـ، وفي آخره ثلاث كتب: الأول: «تعريف الأحياء بفضائل الإحياء» للعلامة عبد القادر بن شيخ عبد الله بن شيخ بن عبد الله العيدروسي باعلوي، الثاني: «الإملاء عن إشكالات الإحياء» للإمام الغزالي: رد به اعتراضات أوردها بعض المعارضين له على بعض مواضع في الإحياء، الثالث: «عوارف المعارف» الإمام السهرودي، ط. دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.

٢- «دراسات قرآنية» (من أسرار النبوءات في القرآن) للأستاذ حسن إسماعيل منصور، ط. مجمع البحوث الإسلامية ١٣٩٧هـ- ١٩٧٧م القاهرة.

٣- «طريق الجنة في ترك البدعة وإحياء السنة» للأستاذ سامي نجيب محمد، ط. دار الصفوة - القاهرة.

٤- «آيات الدعاء في القرآن الكريم» (دعاء الصالحين)، د/ محمد محمود أحمد، ود/ موسىٰ الخطيب، ط. مركز الكتاب للنشر، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٥م.

٥- «نعيم الجنة في القرآن والسنة»، الأستاذ/ عبد اللطيف عاشور - ط. مكتبة القرآن - القاهرة.

٦- «البحر الرائق في الزهد والرقائق» - جمع وترتيب أحمد فريد، ط. دار الإيمان، الأسكندرية ١٩٩٠م.

٧- «وصف الجنة والنار في الكتاب والسنة» جمع وترتيب محمد بيومي، ط مكتبة الإيمان، ط. أولى ١٤١٦هـ- ١٩٩٥م القاهرة.

٨- «من دلائل الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية» للدكتور/ موسىٰ الخطيب، ط. مؤسسة الخليج العربي الطبعة الأولىٰ ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م.

٩- «معالم الطريق إلى الجنة» للدكتور/ موسىٰ الخطيب، ط. المركز العربي للنشر الإسكندرية.

١٠- «دين الله واحد» للأستاذ/ محمود أبو رية، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة.

١٢- «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح» لابن قيم الجوزية: محمد بن أبي بكر (٦٩١هـ- ٧٥١هـ)، ط. دار الإيمان القاهرة.

١٣ـ « زاد المعاد في هدي خير العباد »، لابن القيم طبع محمد على صبيح ١٣٥٣هـ.

١٤ـ « مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة » لابن القيم الجوزية، ط. دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

١٥ـ « أقباس من نور الحق » (١ ـ ٣) لفضيلة الشيخ مصطفى محمد الحديدي، ط. مجمع البحوث الإسلامية.

١٦ـ « التذكرة في أحوال الموتىٰ وأمور الآخرة » للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري القرطبي المتوفىٰ سنة ٦٧١هـ، تحقيق د/ محمد محمد تامر، ط. المكتب الثقافي، الطبعة الأولى ١٤٣هـ ـ ٢٠٠٣م القاهرة.

١٧ـ « الروح » لابن القيم، ط. دار نهر النيل ـ القاهرة.

١٨ـ « أدب الدنيا والدين » للماوردي: أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري، تحقيق عبد الله أحمد أبو زينة، ط. دار الشعب ـ القاهرة.

١٩ـ « الاستعداد للموت وسؤال القبر »، زين الدين بن علي المعري، ط. مكتبة التراث الإسلامي ١٩٨٣م.

٢٠ـ « رياض الصالحين » للنووي، ط. دار الأقصىٰ بمصر.

٢١ـ « مفاتيح الجنة » للأستاذ طه عبد الله العفيفي، ط. مكتبة القرآن ـ القاهرة.

٢٢ـ « الترغيب والترهيب » للحافظ المنذري.

٢٣ـ « تنبيه الغافلين » لأبي الليث نصر بن محمد السمرقندي.

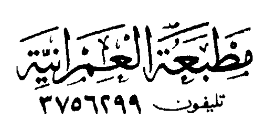
٢٤ـ « مختصر منهاج القاصدين » لابن قدامة المقدسي، قدم له الأستاذ/ محمد أحمد دهمان، وعلق عليه شعيب وعبد القادر الأرناؤط، ط. دار التراث ـ القاهرة.

٢٥ـ « اليوم الآخر »: الجنة والنار ـ د/ عمر سليمان الأشقر، مكتبة الفلاح ـ بيروت.

٢٦ـ « نوادر الأصول » للحكيم الترمذي، تحقيق د/ أحمد عبد الرحيم السايح، ود/ السيد الجملي، ط. دار الريان للتراث ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

❏ ★ ❏ ★ ❏

الفهرس


مطبعة العمرانية
تليفون ٣٧٥٦٢٩٩